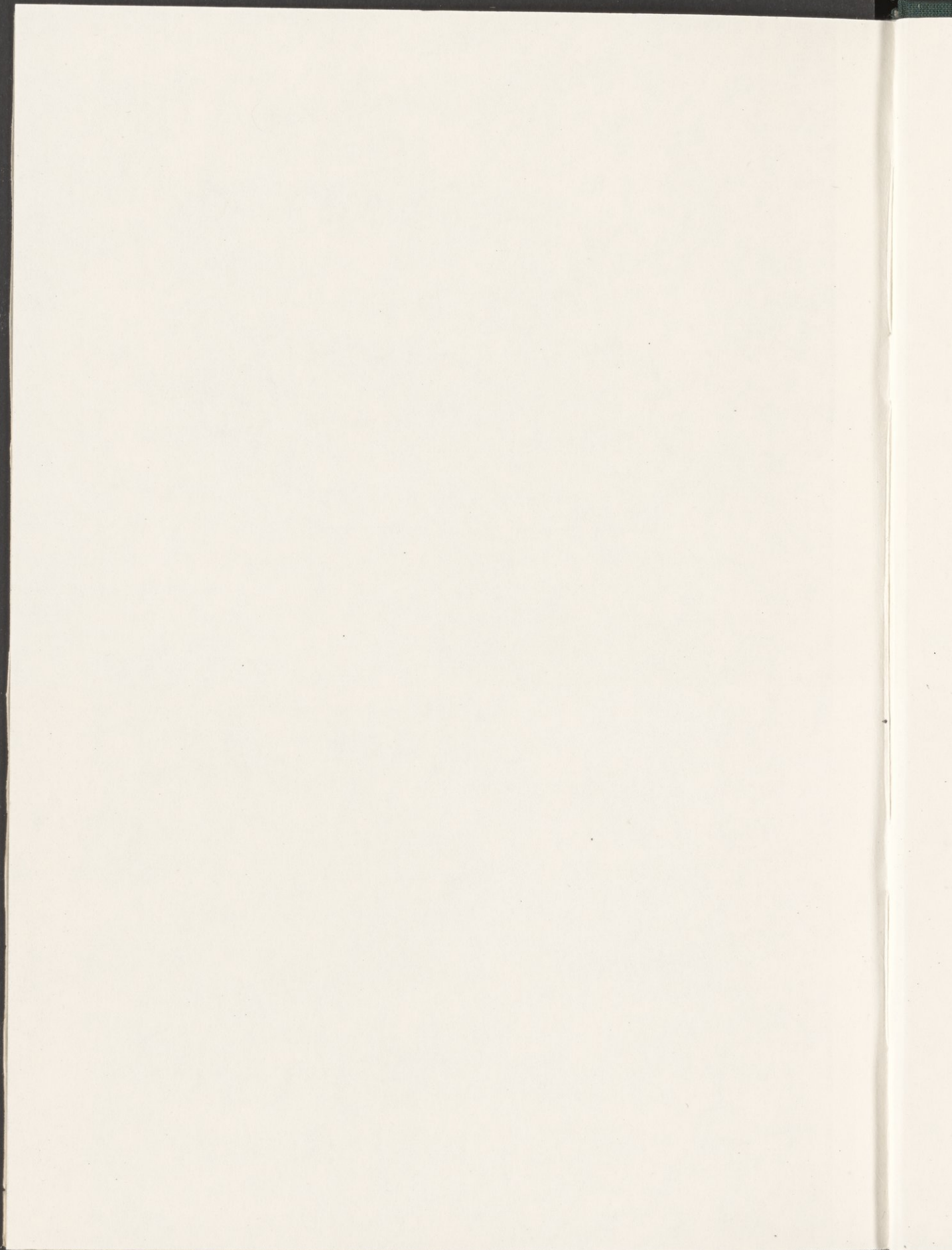
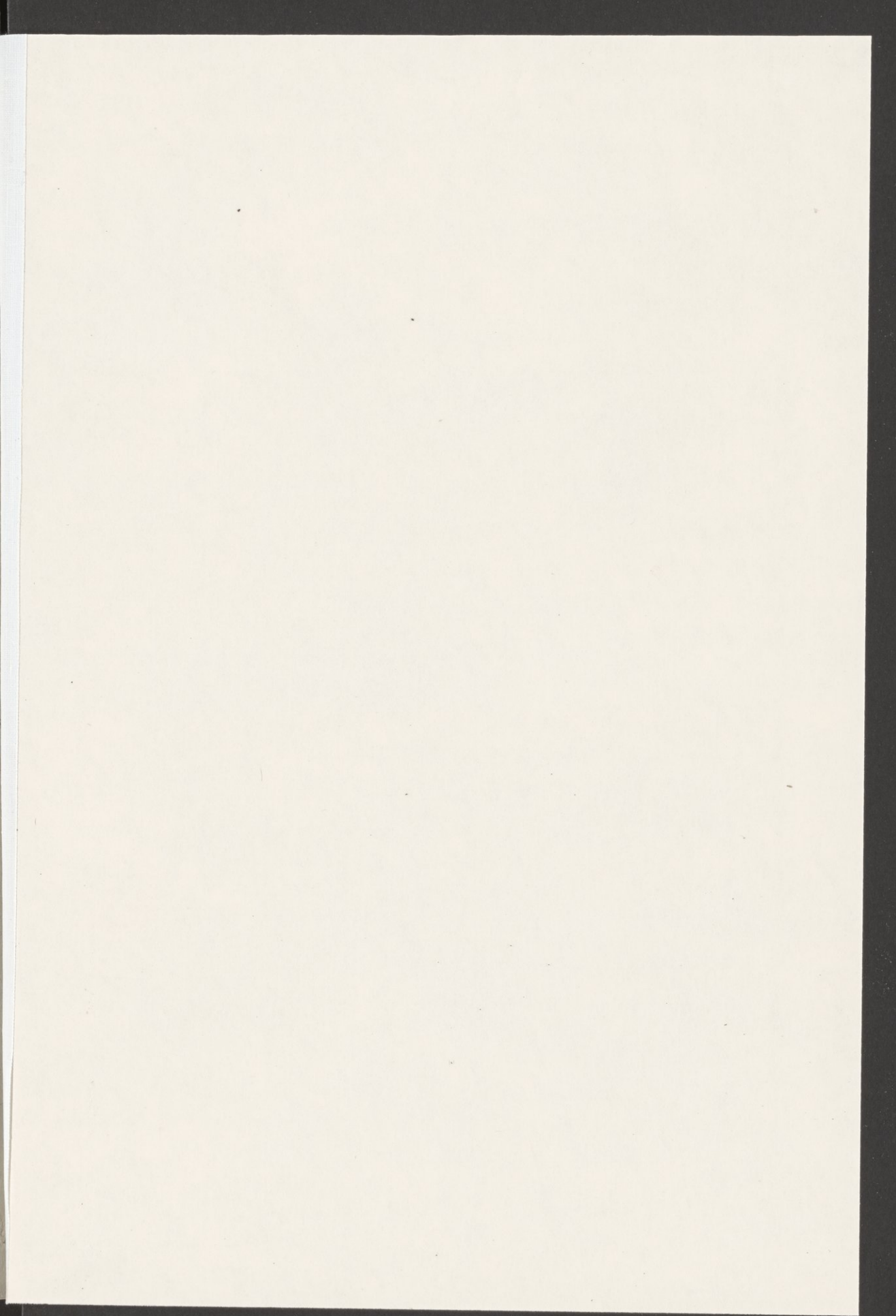




**Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University**





مباحث الجهنبيّة في تاريخ لبنان

بُيُوتُ وُلُبْنَانِ

مُنْذُ قَرْنٍ وَنُصْفِ الْقَرْنِ

بقلم

هنري غيز

قنصل فرنسا في ذلك الزمان

تعريب

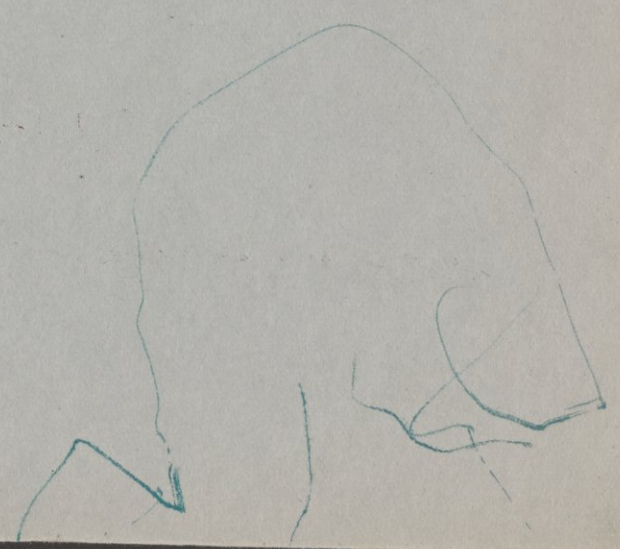
مارون عبود

المجلد الأول

منشورات وزارة التربية الوطنيّة والفنون الجميلة

1. The first part of the paper is a
 description of the general situation
 of the country. It is a very
 interesting and useful
 document.

2. The second part of the paper
 is a description of the
 general situation of the
 country. It is a very
 interesting and useful
 document.



مكتبة جامعة بيروت

الطبعة الأولى ١٩٦٨

بيروت ولبنان

مؤلف: محمد قنديل ونصيف القزويني

٥٥

٩٩

L468

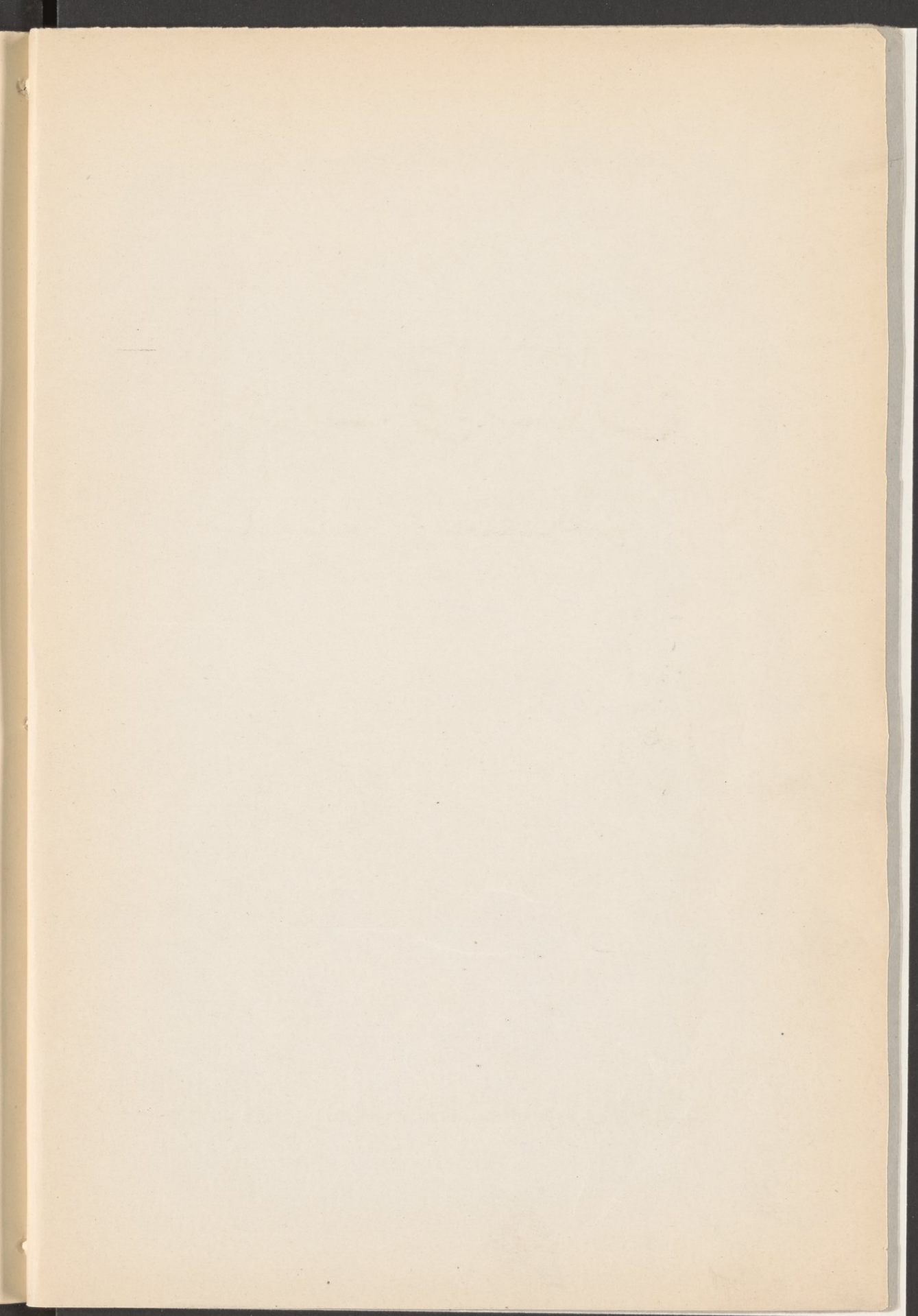
٧٠١

مكتبة
الجامعة

بيروت

١٩٦٨

منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة



مباحث لجهت بيته في تاريخ لبنان

بُيُوتٌ وَلِبْنَانٌ

مُنْذُ قَرْنٍ وَنِصْفِ الْقَرْنِ

D\$
99
L468
v.1

بقلم

هنري غيز

قتصل فرنسا في ذلك الزمان

تعريب

مارون عبود

الجزء الاول

مَنَشُورَاتُ وَزَارَةِ التَّرْبِيَةِ الوَطَنِيَّةِ وَالفنونِ الجَمِيلَةِ

عنوان الكتاب بالفرنسية

RELATION

d'un séjour de plusieurs années

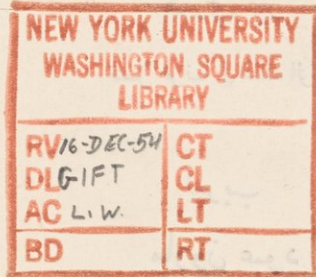
à BEYROUTH et dans le LIBAN

par

HENRI GUYS

PARIS, 1847

v.1



DS
99
.L4
G8
1949
v.1

الطبعة الاولى ، بيروت - لبنان ، ايلول ١٩٤٩

كلمة لا بد منها

هذا كتاب ضخم يصور لنا بيروت ولبنان يوم كان مؤلفه قنصلاً فرنسياً في الربوع اللبنانية . فالمسيو هنري غينز قنصل ابن قنصل ، وولد في ديارنا ، ونشأ على هذا الساحل اللازوردي ، وتعلم الفرنسية كما نتعلمها نحن ، لأنه ربيب أسرة عتيقة المقام بهذه الارض .

في كتاب هذا القنصل اراء ، منها المحتمر ومنها الفطير ، وفيه اوهام وحقائق ، وفيه جدٌ وثرة . ترجمته ترجمة لا تخرج عن الاصل ، ولم أسقط منه إلا ما لا يُحتمل ذكره ولا يطاق ، وهذا قليل . لم ارد على المؤلف عند كل رأي لا تُقرّه نحن ، لئلا يضيع القارىء في اودية الحواشي . فمن يقرأه يعلم ما اعرف ويرى ما ارى . فانا لم اعربه ليقرأه الاجانب .

كلنا نعلم ان السائحين ، كالشعراء ، في كل وادٍ هيمون ، فكيف بهم وقد جاؤوا لبنان الذي هامت فيه وبه امم المسكونة ؟ فكلهم امتدحوا وذموا ، وهذا شأن كتاب الرحلات ، واكثرهم يعمل من الحبة قبة .

اما نحن ، الشرقيين ، فقد كفانا كاتبنا العظيم ، شيخنا احمد فارس الشدياق ، شرّ هؤلاء جميعاً ، كما استقل باعباء عرفان

الفضل في كتابه « كشف الخبا عن فنون اوروبا » ، فأعطى
الحق صاحبه .

واحدة بواحدة ، والبادئ اظلم .
وبعد ، فاشهد الله وملائكته ، انني ذقت الامرّين قبل ان
جعلت بعض كلام المؤلف آخذاً برقاب بعض ، فصاحبنا يقطع
من كل وادٍ عصاً ، ويفرّ من موضوع الى موضوع فرّاً عجيبيّاً
غريباً . فهزري غيـز هو مكرّ مفرّ ، لا جواد امرى القيس
السعيد الذكر ...

اجاد المسيو بوجولا في المقدمة - وهي اول ما تقرأ - حين
عرض لانشاء المسيو غيـز واسلوبه ، فقال : « سوف لا نفتش في
كتابكم عن اناقة الانشاء ، وفضامة الوصف ، فمن يكونون في
بيروت وحب لا يهتمون بجمال الاسلوب ، لانهم بعيدون جداً
عن شؤون الجمع العلمي وشجونه ... »
ففي سبيلك وذمتك ، ايها القارىء الكريم ، ما قاسيت ،
وحسبي رضاك ، وانت نعم الوكيل لمن يعيش بين الحبر والورق
والاقلام .

عين كفاح (لبنان) ، صيف ١٩٤٩ .
مارون عبود

كتاب من السيد بوجولا

الى السيد هنري غيز

قنصل فرنسا في حاب

قرأت ، يا سيدي ، مخطوطة « مشاهداتكم » التي شتم ان تطلعوني عليها طالبين رأيي فيها . ان مؤلفكم ، وهذا ما كان يمكنكم ان تتوقعوه ، قد اعجبني جداً . قرأته قراءة عابرة ، ثم قراءة من يحاول ان يستنير ويستفيد . لقد رددتم اليّ شباهي اذ وضعت امام عيني تلك البقعة : بيروت ولبنان ، التي زرتها منذ خمسة عشر عاماً ، فاعدتم الى ذهني صورة مدينة بيروت الغريبة غير المنسقة ، والحقول المغروسة اشجاراً من التوت الجميل ، وغابة الصنوبر القائمة مكان الغابة القديمة التي زارتها فؤوس فرساننا الصليبيين ، وقمة القديس ديمتري الحلوة حيث طافت احلامي عشرين عاماً ، واخيراً بدا لعيني لبنان بأوديته المدهشة ، وارزه الاثري ، وديورته وامرائه ، وشعبه ، وتاريخه المفجع .

ان « مشاهداتكم » ، سيدي ، لتفيض بوصف العادات والتفاصيل الطريفة ، والاراء اللاذعة ، والوثائق على اختلاف انواعها . وصفتم الشعوب التي عثمت طويلاً بين ظهرانيها ، فاوضحتم لنا عاداتهم واخلاقهم وتفكيرها ونفسياتها . انكم تقصّون وتحكمون حكم رجل البلاد المجرّب ، ولكن بتفوق الاوروبي الذي ينظر من اعالي

المدنية المسيحية . فالسائح الذي يريد ان يطوف سوريا ، ببساطة
واستفادة ، يجد ، ولا شك ، في كتابكم ، دليلاً له . والتاجر الذي
يريد ان يعقد صفقاته يستوحي نصائحكم ويتهدي بعلوماتكم .
وقناصلنا في سوريا يتعلمون منه حقوقهم وواجباتهم . واخيراً ان
مؤلفي كتب الرحلات في سوريا ، الذين يهتمهم اصلاح خطأهم ،
واكمال دروسهم ، سيرجعون الى كتابكم فيجدون اجل الفوائد .
ليس كتابكم بنظرة عابرة سبيل ، ولكنه نتيجة ملاحظات
اربعين سنة صرفت في درس العادات والسياسة وعلم الآثار
القديمة . انكم لم توجهوا كلامكم الى الشعراء ، بل الى رجال
العمل . فخيالكم هو الحقيقة بعينها .
سوف لا نفثس في كتابكم عن إناقة الانشاء ، وفخامة الوصف ،
فمن يكونون في بيروت وحلب لا يهتمون بجمال الاسلوب لانهم
يعيدون جداً عن شؤون المجمع العلمي وشجونه ...
سوف نجد في هذه « المشاهدات » طابعاً خاصاً له لذته ، كما نجد
فيها الكثير من الصراحة ، وعدم التصنع . ان كتابكم هذا لشرف
لكم ، وسيكون اثراً خالداً لاقامتكم في سوريا ، ولاسلككم الذي
تجلبه خدمات مشرفة للدولة ، وستكسبون بذلك شهرة عظيمة .
ثقوا ، سيدي ، بالغبطة التي اشعر بها ، وانا اكتب اليكم هذه
الاسطر ، وبالذكري الجميلة التي احفظها لضيافتكم لي في سفوح لبنان .

بوجولا

اكوان ، قرب باريس ، ٢٥ آب ١٨٤٦ .

مقدمة

لقد عزمتُ ان ادون ملاحظات يعود اولها الى بدء اقامتي في بيروت . واني لاشعر بتأخري قليلاً ، لان بيروت ولبنان لم يعودا يستوعبان الانتباه العام الذي كانا يستوعبانه في اثناء الحوادث الهامة التي جرت فيهما . بيد انه لما كانت مشاهداتي هذه تصويرية ، وتاريخية ، واحصائية ، واخلاقية اكثر منها سياسية ، فقد ظننتُ انها تلائم القارئ في كل زمان . وهي ، فيما عدا ذلك ، متنوعة بالمواضيع المطروقة التي اخال اني خصصتها بجميع فئات القراء حتى الفئة التي تلتبس في كتاب جديد سبيلاً للتلهي بدلاً من موضوع يهذب ويفيد . وعلى كل حال ، فقد كان غرضي الاساسي تنوير اذهان من يدفعهم حب الرحلة الى سوريا . فالى رحالة المستقبل اسدي هنا بعض النصائح .

ان المسافر الذي يرغب ان يزور سوريا بلهفة وشوق ، واذا تحرينا الصدق قلنا : باقل ما يستطيع من كراهية ، يجب عليه ان يتزود بكل ما هو ضروري ، وان لا يعتمد في شيء على ما يمكن ان تقدمه له هذه البلاد من اسباب الراحة .

ليس في تلك الربوع سوى مطايا تحمل عليها الاشخاص من مكان الى مكان ، وغالباً ما تكون هذه المطايا هزيلة غير نشيطة .

ولما كانت البراذع التركية غير صالحة البتة ، فعلى المسافر ان يأخذ سرجاً افرنجياً ، ويتزود بثفر وحزام وقرابيس شكت فيها الغدارات القوية .

ان الاسلحة لا تستعمل إلا نادراً ، غير انها هي التي تضمن لك السلام والامان .

ان حقائب الثياب والقبعات والمظلات والاخراج وجميع حوائج المسافر يجب ان تكون مغلقة بمشع ، او مطلاة بمادة دسمة تمنع الحدوش التي يحدثها العوسج والصخور ذات الشناخيب حين تعلق بها المحمولة لدى اجتياز المعابر الضيقة ، كما انها تحول دون البلل في الوقت نفسه .

ولا بد للرحالة من سرير نقال كيلا يضطر الى النوم على التراب ، وليتلافى الغبار والرطوبة والقمل والحشرات الاخرى التي يوجد بينها ما يؤذي ، لابل ما هو خطر ومخيف . والاخيرة من هذه الحشرات موجودة في الحرائب والقلاع القديمة . ان ناموسية محكمة على السرير ليست بالشئ السكافي بالنظر لكثرة البرغش الذي يرى في بعض الامكنة .

ان الرداء ذا القلنسوة ، والطهاقات المصنوعة من نسيج لا تحرقه المياه والوحول ، هي ضرورية .

وكذلك بعض معدات المطبخ ، وادوات سفرة كاملة ، وابريق صالح لطبخ القهوة على الكحول (السبيرتو) وشمعدان ، وعدد لا يحصى من الحاجيات التي تصطبح حسب ذوق الاشخاص .

اما انا ، فلم اجد وسيلة للسفر خيراً من ان يصطبح السائح كل ما هو ضروري من الخيمة فنانزلاً . وعند ذلك لا يضطر الى

التعريج على القرى ، بل يحل باحسن مكان ، وذلك يكون عادة في حديقة قرب نبع او جدول . فهناك لا تتعرض لامراض المساكن القذرة ، ونستريح بعض الشيء من تطلعات الفضوليين المتعبة ، كما اننا لا ندفع لاحد شيئاً من المال ، ولا نتقيد باي موجبات . وهكذا يمكننا ان نعيش على هوانا ، لان الخادم لا يقوم إلا بما يؤمر به .

ليس في لبنان مطاعم ، ولا منازل معدة للسياح ، ولا فنادق . اما الحوانيت التي يسميها اصحابها مقاهي ، وهي تحتوي كل شيء ، كما يزعم من يديرها ، فلا يمكن ان يجد فيها المسافر إلا الزيتون ، والخبز ، والجن الابيض احياناً . اما المشروبات فيقدم منها العرق ، وقلما نجد النبيذ .

وليس لطريقة السياحة في هذه البلدان سعة الطريقة الاوروبية واساليبها السهلة ، مع انها ضرورية . غير ان الرحلات هنا يقام بها باكثر لذة ، وعلى الاخص خلال ثمانية اشهر في السنة او تسعة . انها تذكرنا بالازمنة البدائية يوم كانت تكثر سعادة البشر وتزداد بقدر ما هم قريبون من الطبيعة . فالسعادة امست تطلب اليوم من رفيق انيس ، فالرفيق هو اولى العُدَد التي يحتاج اليها السائح في الشرق ولا يمكنه الاستغناء عنها .

انني اذكر هذه الابيات من الشعر لدي ليل ١ :

« ... ان الاشجار تتحدث قليلاً ، هذا ما قاله لافونتين ،

فأود لو اجد واحداً الى جانبي لانقل له ما يوحيه الي الغاب . »

١ رجل الحقول ، النشيد الثالث .

ان الفصل الحادي والثلاثين (من هذا الكتاب) ينير طريقنا
اذ يصف لنا البيوت العربية والرفاهية التي يمكننا ان نعتمد
عليها فيها .

واني انصح دائماً المسافر الذي لا يملك خيمة (شادر) ، او
ليس في عبء كتاب توصية ، ان يتوجه الى كاهن المحلة لان منزله
اكثر نظافة من غيره ، بل اقل قذارة اذا اردنا الصدق . اما المنفعة
من هذا الانتقاء ، فهي توخي دفع المصارفات دائماً ، لان الكاهن لا
يمكنه ان يرفض ما يقدم له (كحسنة قداس) . اما اذا كان غير
هذا فالمضايقة واقعة ، لا محالة .

نصبتُ خيمتي على سطح منزل الكاهن ، وهو قائم في الضواحي
التي لا يتمتع فيها بامان كبير .

يجب ان يحذر المسافر اراء ابناء هذا البلد ، وبعض الفرنجة ،
فهم يحشون ، اذا ما استشيروا ، مخيلة السائحين بالمبالغات التي يروونها
عن الآثار التي ادهشتهم . وذلك يعود الى غباوتهم لانهم لا يشبهون
القلاع التي يجلب ألبابهم منظرها الرائع الا بما نراه اليوم من
بنيّات ، وهي اكثر سماجة من التي نسميها نحن بربرية . ان العرب
تدهشهم ، بوجه عام ، رؤية الانقاض ، وكل قلعة ، مبنية بججارة
ضخمة ، تعد بمجرد هذه الضخامة اعجوبة نظرهم . انهم يؤكدون
ان الناس يعجزون عن اشادة مثلها ، ويعزون ذلك العمل الى الجن .
ويجب علي ان احيط القارئ علماً بانني امتنع عن التدليل على
الاطغاء العديدة المنتشرة هنا وهناك في مؤلفات السيّاح . ان
مهمة الناقد لا تغريني البتة ، فضلاً عن اني ان فعلت فقد اعرض نفسي
الى ان اكون متعباً وبملاً ، دون ان يكون لي اقل نصيب في

ان الذّ قارئى . فالكثيرون من الذين سبقونى قد نظروا الى الاشياء
التي وصفوها نظرة عجلى ، او انهم وثقوا ثقة عمياء بالاشخاص
الذين استقوا منهم معلوماتهم . وهذان السببان يخلقان لهم عذراً .
ولما كنت اعتبر ، ولا شك ، انهم تحدثوا صادقين عن نقاط اخرى ،
فقد كنت جد مسرور بذكر ما اذاعوا . وقد اهتمت بنقل
اقوالهم كما وردت في كتبهم ، بدلاً من ايرادها بتعابير اخرى ،
وفي ذلك فخر لي اني تركتها لهم ، وضحت بانانيتي لأؤيد بالشواهد
آرائي التي تضمنها كتابي هذا . ان هذه الاراء ، وان بدت ضعيفة ،
فهي لا تقل قيمة عن آرائي انا الذي عرف البلاد ولا بس اهلها .
اني اعدّها نوعاً من التأكيد الذي يضاف الى المزاعم المنقولة ،
ودعامة للفكرة التي سبقني اليها غيري .

وارى لزماً علي ان انبه القارئ الى ان ما يلمسه من فرق
بين قيم النقد ينتج عن تقلبات الاسعار في مختلف الاوقات . وهذه
التقلبات يحدثها التقلب المتواصل في العملة التركية فتؤدي الى
ارتفاع اسواق النقد الاوروي ، ومن ثم الى قيمة الاوراق النقدية
التي تدفع بهذه العملة .

كان بوسعي ان اقدم للقراء رسوماً ومخطوطات اهتمت بجمعها
لانه توفر لديّ مستندات جديدة وكاملة ، وهي كافية للقيام بتنظيم
خريطة لبنان ، فعسى ان يتاح لي فيما بعد ان ابرز الى الوجود هذه
النتائج المختلفة ، المكملة لمشاهداتي .

الفصل الاول

خطة الكتاب . ملخص تاريخ بيروت .

يطلب ، عادةً ، من الرحالة ان يصف ، ببعض التفصيل ، البلد الذي يتناول الحديث عنه ، لكي يعرف النقاط المهمة في تاريخه . وهذه الطريقة يتوجب عليه اتباعها ، ولا سيما حين يضطر ، لانه لا يريد ، او لا يستطيع ان يطوف كثيراً ، ان يقيم في مكان معلوم ، ليراقب ، من محل مشرف ، جميع الاشياء التي يدور عليها موضوعه ، فيعطي كلاً منها على حدة لونه الخاص .

واعتقد انه يجب الاكثار من الامام ببعض المعلومات المختلفة ، لانها تحتوي كل ما هو ضروري لمعرفة مكان او ناحية في مختلف الوجوه التي تعود ان ينظر اليها من خلالها .
واذا اقتفي اثري ، فان معرفة البلدان النائية تصبح سهلة .
والذين يرودون البلدان ، وعندهم هذه الصورة التي تتكون من مجموعة هذه الامامات الجزئية ، يستطيعون ان يقوموا برحلة مجدبة ، فينتقلوا الى المكان الذي يريدون ان يروا فيه شيئاً معيناً ، كل حسب ذوقه وهدفه الذي يحدوه الى السفر .

أفلا يصنع هكذا عندما يراد تنظيم خريطة بلاد ما ؟ لا بد من رسم الخطوط الاولية اولاً ، لتصلح فيما بعد ان تكون صورة

كاملة ، وهذه الطريقة تكون ، على قدر الامكان ، صحيحة
كاملة .

شاهدت علماء وهواة يطوفون جميع انحاء سوريا ، لانهم يريدون
رؤيتها في خمسة عشر يوماً ، ثم ينشرون « مشاهداتهم »
حسب آرائهم المستقاة من المكاتب ، او مأخوذة من محادثات
اهل البلاد الذين صادفهم في طريقهم . تلك هي الخطة التي سلكها
من تقدمهم ، بعد ان مروا عن يمين وشمال بالآثار ، والامكنة ،
والمدن التي كان لهم بعض اللذة في مشاهدتها .

وهذا هو السبب الذي حملني ، في اثناء اقامتي عدة سنوات في
سوريا ، على ان اسدد ، في مناحي شتى ، خطوط السائح العادي .
لقد نبهتهم الى اشياء طريفة كان وجودها عندهم مجهولاً . إلا انهم
لم يحاولوا معرفة الذي دللتهم عليه ، بل ان كثيرين منهم تحدثوا
عن اشياء لم يعرفوها إلا بالسمع .

كان يمكنني ان اسجل لهم عدة اخطاء ، لاني رأيت سوريا
بعيني ، وقرأت الكتب التي نشرت عن هذا البلد . إلا اني لما
كنت لا اكتب إلا لأرضي رغبة اصدقائي الملحة ، طامعاً
بامتناع الجمهور وتفكهنه ، فسوف لا ادل على اخطاء غيري ، لان
ذلك يقتضي الكثير من اللباقة .

وسوف يلاحظ القارئ انني على طرفي نقيض وبعض الرحالة
الذين حكموا ، على ذمة غيرهم ، على اشياء كثيرة حكماً سطحياً .
اما انا فسوف لا اذكر شيئاً لم اره بأم عيني ، او انه لم
يكن من قبل قيد ملاحظة دقيقة ناضجة .

اندثر تاريخ بيروت ، كما اندثرت عدة حوادث تاريخية في

ظلمات الازمنة ^١ . ولولا بضع مقتطفات كتبت وانتهت اليها ،
لتوجب، نلينا ارجاع العصور الى النقطة الاولى التي ابتدأت بها .
وما دمنا نفتقر الى معلومات مفصلة ، فلنكتفِ اذن بالقول ،
مع المصنفين المسيحيين ، ان بيروت اسسها جرسى Gersé المعروف
باسم جريس Géris ^٢ ابن كنعان الخامس . اما اذا اتبعنا اقوال
المصنفين الوثنيين فتكون بروه Beroé زوجة اوجييسس Ogygès
هي التي سميتها بيروتوس Béroutos . وهذه المدينة ، التي زاحت في
الاهمية صور وصيدون ، قد اتى على ذكرها استرابون Strabon
وبلين Pline وبطليموس Ptolomé .

يقول الاب بيسون Besson ^٣ ان اهل هذه المدينة كانوا
من الطبقة البرجوازية ، وان هيروود هو الذي قام بتجميلها ، ثم
شيد فيها الملك اغريبا الاروقة ، والمسارح ، والمدريجات ، وعدة
بنايات فخمة ، وانها لذيذة بثمارها ، وجميلة بسهولة المستقلية على
شط البحر .

اصبحت بيروت ، التي سميت ، على عهد الامبراطرة الرومان ،
فيليكس جوليا Felix Julia ، اكبر مدرسة للشرع في الشرق ،
حتى ان يوستنيانوس أطلق عليها اسم ام الشرائع ومرضعتها .
انجبت بيروت ، حين تصنيف مجموعة القوانين والاجتهادات
الشهيرة ، اشهر مشترعي العصر : دوروتي Dorothee ، واناتول

- ١ راجع الفصل ٢٢ فيما توصلنا الى معرفته عن تاريخ بيروت .
- ٢ تاريخ الارض المقدسة ، جزء ٢ ، ص ٩٠٩ .
- ٣ سوريا المقدسة ، ص ٣٣ .
- ٤ موراري ، قاموس تاريخي ، الجزء الاول ، ص ٣٢٩ .

Anatole الذين اشتغلا في تنسيقها ، وهي نواة القوانين الحديثة .
يقول مؤلف رسائل فلسطين^٥ ان لديه بينات كافية تعيد
تاريخ انشاء هذه المدرسة الى ما قبل حكم ديوكثيانوس ، اي الى
حوالي القرن الثاني .

وبعد انقضاء ثلاثمائة سنة على ذلك ، اكتسبت اهمية كبرى ،
حتى ان اسقف بيروت الذي حضر المجمع الحلكيدوني نصّب
مطراناً عليها ، واصبحت هذه المدينة كرسياً له^٦ .

وعام ٤٤٨ دعي الى عقد مجمع ثان فيها .

وفي ١١١٠ احتلها المحاربون الصليبيون .

بيد انها عادت فسقطت في ايدي المسلمين ، وهدمت بكاملها ،
ولقد حدث مؤرخ الحروب الصليبية عنهم انهم قوضوا وقلبوا
كل شيء حتى الارض التي وطئها المسيحيون . هدموا بيوتهم ،
ومعابدهم ، وماثر صناعتهم ، وتقواهم وقيمهم ، ابادوا كل شيء
بالحديد والنار . مع ان مسجد بيروت الهام هو من صنع المجاهدين
الصليبيين . والسيد بوجولا ، رفيق السيد ماشو في سفره وزميله ،
قد اكد ان هذا المسجد هو الكنيسة عينها التي كرسها الصليبيون
على اسم القديس يوحنا^٧ .

ان الابراج التي كانت لا تزال قائمة بجالة حسنة ، قبل هجوم
الانكليز والنمساويين ، هي ايضاً ، ولا شك ، ماثرة من مآثر
الصليبيين .

٥ اوير دي فيتري .

٦ موراري ، قاموس تاريخي .

٧ رسائل شرقية ، الجزء الخامس ، ص ١٩٥ .

كانت البلدان الإسلامية تعتبر ، وهذا ما تزعمه السيد ميشو^٨ ،
بيروت عاصمة لها ، ثم ان الملوك والامراء الذين تنازعوا ، فيما
بينهم ، السيطرة على مدن الجوار ، كانوا يدخلون هذه المدينة
ليسطوا فيها عظمة تتويجهم^٩ .

ان تاريخ بيروت الحديث معلوم ومعروف ، ولهذا ارى ان
ذكر الحوادث التي قام بها الامير فخر الدين ، وظاهر العمر ،
والجزار هي عديمة المنفعة .

فلنكتف اذن بالقول ان هذا الباشا الاخير ، ذا التاريخ
الدامي (الجزار) ، هو الذي انتزعها ، الى الابد ، من الامراء
الدروز . وحين لم تبق مقرأ لامراء لبنان واقطاعة لهم ، امست
ذات اهمية ضئيلة جداً .

ثم حدث ان احتسى احمد الجزار عند الامير يوسف شهاب لما
هرب من مصر . وعلى الرغم من ان الامير يوسف قد استقبله
استقبالاً حفيماً ، وجعله ، فيما بعد ، « متسلماً » في بيروت ، فقد
نوى على ان يحتل المدينة ، وشرع يحصنها .

وعندما اصبح الجزار باشا عكا - وهذا ما نراه فيما بعد -
دعا المحسن اليه ، الامير يوسف ، حتى اذا ما اصبح في قبضة
يده امر بذبحه .

نظر الباب العالي ، بعين الحسد ، الى المركز الهام الذي حازته
بيروت بفضل موانئها ، ومنتجاتها ، ورفاهية شعوبها ، فأبى ان
يعفيها من رسوم الجمارك . وهكذا اضطرت السفن الى ان ترسو

٨ رسائل شرقية ، الجزء السادس ، ص ١٢٥ .

٩ تاريخ الحروب الصليبية ، الجزء الثالث ، ص ٣٥ .

أكثر الأحيان ، في مرافئ صيدا وطرابلس التي كانت قاعدة أهم
المؤسسات التجارية على الشاطئ، ولكن لما كانت أعمال التجارة حرة
كانت بيروت تتمتع بافضلية على الاساكل الاخرى . ويجب ان
نعتبر ان هذه المدينة هي اكثر اهمية من غيرها بالنسبة للمراكز
الدبلوماسية ، ومكاتب سوريا التجارية .
اما اخضاعها ثانية لسلطة السلطان مباشرة فكان عام ١٧٨٧ .

الفصل الثاني

اهمية بيروت التجارية . اسبابها .

لم يبدُ لبيروت شأن ، كمدينة تجارية ، إلا منذ ثلاثين سنة تقريباً . واستطيع ان اؤكد ، لاني زرتها عامي ١٨٠٨-١٨١٠ ، انه لم يكن يعقد فيها إلا صفقات تجارية قليلة . وبما اني لم ابارحها إلا عام ١٨٢٨ بعد ان عدت اليها عام ١٨٢٤ ، فقد استطعت ان اتبع ازدهارها خلال فترة اربعة عشر عاماً ، في ابّان نهضة صناعتها الحقيقية وتضخم ثروة سكانها .

وهذه المدينة ، بالنسبة لعدد سكانها ، تعد رابعة مدن سوريا . فهي دون طرابلس التي تأتي في الرتبة بعد الشام وحلب . ومن المؤكد ان عدد سكانها لا يتجاوز الخمسة عشر الفاً وخمسمائة شخص ، منهم سبعة آلاف مسلم ، واربعة الاف من الروم الارثوذكس ، والف وخمسمائة ماروني ، والف ومئتان من الروم الكاثوليك ، وثمانمائة درزي ، واربعمائة ارمني وسرياني كاثوليكي ، ومئتا يهودي ، واربعماية اوروبي .

تضافرت عدة عوامل على جعل بيروت المركز الاكثر اهمية على الشاطئ : منها موقعها المتوسط ، وقربها من الشام ، وجودة حرايرها ، وهدوء خليجها . واقول مع هذا ان العامل الاشد تأثيراً هو مجاورتها للجبل الذي حافظ امرأه ، حاكمه القدماء ، على

سلطانهم فيه .
انه لم يكن ، لعشرين سنة خلت ، بإمكان تجار البلاد ، سواء
أ كانوا مسلمين او مسيحيين ، ان يمارسوا اعمالهم التجارية إلا خفية ،
اذ لم يكن في استطاعتهم ان يستقروا في مكان ما بصورة
نهائية . كانوا يعيشون عيشة مؤقتة ، وفي خمول وانتظار الحوادث
التي قد تدهمهم .

ففي ظل الحكم الدستوري تستطيع الطبقة المتوسطة ان تعيش
مترفة ، وتنفق عن سعة . اما في ظل الحكم المطلق الظالم فالسعة
لا تقضي على اصحابها بالحرمان فحسب ، بل تعرضهم ايضاً للخطر
الذي تجرّه عليهم .

يجد الرجل في بيروت فوائد جمة لا يستطيع ان يجدها في اية
اسكنة اخرى على عهد اضطهاد الجزّار وظلمه وبلصه ، هذه الاعمال
التي جدها عبد الله باشا بضرائه الفادحة فقط ، فاستمطر عليه
غضب السلطنة العلية . كان عبد الله باشا ينقاد كثيراً لمطامعه
وارشادات مستشاريه السيئة . بيد انه لم يكن سفاكاً ولا سفاحاً .
وقد لوحظ انه كان يرجع ، في بعض الاحيان ، عن الاجراءات
الظالمة التي عمد اليها . واستطيع ان اقول ، بعد دراستي اخلاق
عبد الله ، انه لو كان في بطانته صديق واحد لجعل الناس ييكون
ايام حكمه .

كلفه حكمه ستة عشر الف كيس ، اي ما يقارب الخمسة
ملايين فرنك . وهذه القيمة الفادحة يجب ان تضاف اليها الهدايا
النفيسة المهداة الى محمد علي بناء على توسطه .

ان اضطرار عبد الله باشا الى تأييد مركزه بالمال كان وسيلة

لاختراع اساليب جمعه . وهكذا وفر السلب والاعتصاب والظلم ،
بعد ان نهبت المدن ، مبالغ باهظة لتدفع الى صندوق خزينة عكا .
أثرى سكان سوريا على عهد سليمان باشا الابوي ، خلف الجزار ،
الذي دام حكمه من سنة ١٨٠٦ الى سنة ١٨٢٠ . كان هذا
الحكم نعمة طويلة العمر تحتاج اليها الشعوب لاصلاح حالة بؤسها
المؤلم ، وتضميد جراحها التخينة .

وبفضل الحياة التي كانوا يقضونها في البرية ، اي في البساتين
القائمة في الضواحي حول المدينة ، كان باستطاعة كل من يسكن
بيروت ، من المقيمين الموقتين ، الذين تدل امتعتهم الحفيفة النقل
عن استقرار غير ثابت وموقت ، ان يبدلوا محل اقامتهم بالفرار
والالتجاء الى الجبل .

لم يستطع الباشاوات حتى الآن ان ينتزعوا من لبنان امتيازاه
القديم ، ألا وهو حماية المظلومين والمنكوبين .
وهذا الامر كان اكثر الامور بساطة لان سلطة متسلم بيروت
لم تكن تمتد الى ما وراء غابة الصنوبر ، وعبر نهر بيروت .
وهذه المسافة يمكن اجتيازها باقل من نصف ساعة مشياً على
الاقدام .

فأكثر السكان الاغنياء كانوا يلجأون الى القرى الواقعة في
سفح الجبل عند اقل بادرة تنبئ بالظلم ، او اقل خبر يسبق هذه
النكبات المحزنة . كانوا يكتفون هنالك حتى تهدأ العاصفة ، ولا
يعودون إلا بعد دفعهم مبلغاً من القيمة المفروضة عليهم ، او
بمصولهم على كفالة تضمن لهم راحتهم . وقد كان نزوح السكان
يحدث جموداً في الاعمال الى حد ان توشك الصناعة ان تسفل

وتقف حركتها ، ويأخذ البؤس بالانتشار بين سواد الشعب .
لذلك كانت السلطات تتسابق حينذاك على نيل « صفو خاطر »
الباشا ورحمته ، فيمنحهما بناء على التوسلات التي تعيده الى فطرته
الخير .

وهكذا أثرت بيروت على الرغم من تعنت السلطة وبؤس
اساكن سوريا الاخرى ، ولا سيما اسكلة عكا .

اما الحروب التي خاضتها الشعوب فيما بينها ، في حلب والشام ،
فسببت عدة مهاجرات الى بيروت . وجميع الذين اضطرتهم الاضطهاد
الى مغادرة منازلهم كانوا يُجذبون بالطمانينة والمنافع التي يوفرها
هم لبنان . كان بوسعهم ان يجنوا نفعاً دون ان يُضطروا الى
الانقطاع عن مدينة بيروت ومزاولة تجارتهم .

وفي تلك الايام ، ونظراً لهذه العوامل نفسها ، أثرت ضواحي
هذه المدينة ، وازداد عدد سكانها ، حتى انه لم يُرَ في جميع
البلدان ، الخاضعة لسيطرة امير الجبل ، بلد مأهول هانئ العيش ،
اكثر مما هي عليه الضاحية المجاورة لبيروت والممتدة من نهر
المعاملتين حتى الشويفات .

اوحى اضطراب التجار الى استرداد اموالهم التي سلبت ظمناً ،
او هدرت في تنقلاتهم ، كثيراً من الاساليب البارعة . لقد اصبحوا
جريئين بقدر ما تسمح لهم الضمانات التي يوفرها لهم مستقرهم
الجديد . لم يكن يعوقهم عن التبسط في اعمالهم التجارية ، الى
مدى بعيد ، إلا عدم الحماية . غير ان الاوروبيين الذين استقروا
في بيروت اخذوا على عاتقهم حماية املاك هؤلاء من القراصنة
اليونان الذين كانوا يغزون البحار آنذاك ، ثم قبلوا فيما بعد ان

يودعوا في مخازنهم البضائع التي يجد تجار البلاد بعض المنفعة في تسليمهم اياها :

اولاً - لانهم يجنون بعض الربح من الفروقات العائدة اليهم من رسوم الجمارك ، فالاجانب يُفضلون من هذا القبيل على ابناء البلاد .

ثانياً - كيلا تعرض اموالهم للخطر اذا ما أفتضح امرهم ، وفهم ان هذه البضائع هي لهم .

والمنفعة الاخيرة التي كانوا يجنونها هي سحب ما يشاؤون من هذه البضائع بصورة تدريجية لانهم مضطرون حسب الظروف الى سكنى المدينة او الجبل .

وقرائي الذين لا يعرفون تركيا إلا معرفة مشوهة ناقصة يدهشهم هذان العاملان : الاول وهو ان السلطات كانت تصطنع اساليب تسبب نزوح الاهلين ، وتشل كل صناعة وبالتالي خراب البلاد . والثاني ان الاوروبيين كانوا ينعمون ، فيما يتعلق برسوم الجمارك ، بامتيازات خاصة على حساب الرعايا العثمانيين .

ومهما قيل ، فأساليب الحكم في تركيا تناقض تماماً الاساليب المتبعة عندنا . السلطة في اوروبا تحمي ابناء البلاد ، وتسهر على رفاهيتهم ، وتدرس الاسباب التي تؤدي الى زيادة عددهم ، واخيراً فانها تفضل المواطنين على الاجانب . اما في سوريا فبالعكس بالعكس . ان الاجراءات التي اتخذت لم يكن ينتظر ان تحدث غير هذه النتائج . ان المظالم قد ألغيت ، اذ لم يعد باستطاعة الباشوات ان يفرضوا على ائمن ضرائب باهظة ، او يكلفوا الاشخاص فوق طاقتهم . ومع ذلك فقد كان الافراد ، في مناسبات

شتمي ، يُضطرون الى ان يدفعوا مبالغ كبيرة توصلًا للممارسة
حقوقهم ، او دفعاً لما يُخشى ان يُحكّم به عليهم اذا مارأوا انفسهم
متهمين .

اما الآن فان رسوم الجمارك اصبحت تستوفى على قدم المساواة .
فالمواطنون يعاملون كالفرنسيين .

ان بلص الباشاوات العادي احدث ضجة كهوى ، وان كانت
المبالغ المفروضة غير ضخمة إلا على الطبقات والاشخاص الذين هم
في مجبوحة . ولما جاء المصريون فرضوا ضريبة جديدة تفوق
الاولى اربعة اضعاف ، ولكنها أعتبرت من المنافع العامة ،
وأكره جميع السكان على دفعها . كانت تجبى هذه الضرائب من
الجميع ، فلا يستثنى منها احد حتى ذوو الفاقة والعجزة . اما
المسيحيون ، بوجه خاص ، فلم يكن لهم ثمة عذر يعفيهم من
دفعها .

الفصل الثالث

وصف بيروت

لا توحى مدينة بيروت ، لاول وهمة ، شيئاً يثير الفضول .
يُلاحظ انها حديثة العهد بتعاطي التجارة دون ان يدلنا شيء ما
على انها استطاعت جمع ثروات ضخمة .

ان مظهر المنازل الخارجي هو من اكثر المناظر بشاعة .
والفكرة الاولى التي تتبادر الى الذهن ، اذا ما نظرنا بعين الاعتبار
الى الذين يقيمون فيها لانها تنبئ عن حالتهم ، هي انه لا يمكن
ان يكون في هذه المدينة سوى صناعين غير ميسورين .

ان واجهات البيوت مبنية ، على الغالب ، بحجر غير منحوت ،
وقد اخذت الايام على عاتقها مهمة تلوينها ، يعاونها في ذلك الدخان
والمطر والغبار . ولما كانت الاخشاب تُستعمل ايضاً كما اوجدتها
الطبيعة ، اي بلا صقل ، فالابواب والنوافذ تكون في اغلب
الاحيان من لون الجدران .

اما ما يتعلق بتنسيق البيوت وترتيبها فيجب ان لا نحسن
الظن به . فعلى من يريد ان يلجها ان يحني رأسه قليلاً او كثيراً
تبعاً لقامته . واذا اراد ان يطل من النافذة فعليه ان يزج جسمه
بانحراف اذا كانت بدانته تفوق المعدل قليلاً . فعلو الشبايك هو
على الاكثر متر واحد ، وعرضها خمسة وسبعون سنتيمتراً ، يفصل

بينها حاجز صغير . وهذا التدبير الذي يلجأون اليه ضروري لحماية
الصغار ، اذ ان هذه الشبابيك تقوم على ارتفاع عشرة سنتمترات
او خمسة عشر سنتمترأً من ارض البيت .

كل ذلك يرجع الى العادة المتبعة في الجلوس على الارض ،
حتى ان الدواوين التي تصنع من فرش رقيقة جداً توضع على
حصر . اما الذين اصيبوا قليلاً بعدوى البذخ فانهم يضعونها على
مقاعد لا يتجاوز علوها الستمترات الثمانية او العشرة .

ومنذ مدة ليست بالبعيدة كان الزجاج يكاد يكون غير
معروف في مدينة بيروت . اما الآن فاننا صرنا نجده في منازل
الاغنياء ...

ان الحواجز والمصاريع التي نجدها في الشرق لم نشاهدها إلا
عند الاوروبيين . لقد اضطروا ، ليستطيعوا ان يعيشوا في هذه
المنازل ، الى ترتيبها وتوسيع ابوابها ونوافذها بقدر ما يسمح لهم
المكان والعرف المتبع .

ومع ذلك فقد لاحظتُ مثل هذه النوافذ عند الاتراك . ثم
اني وجدت ، طبقاً للقاعدة التي تكلمتُ عنها في سياق مشاهداتي ،
ان كل شيء هنا يناقض كل التناقض الاشياء التي تُصنع في
اوروبا . وجدتُ ان صفائحها كانت مقلوبة رأساً على عقب ،
فأعلاها في الخارج واسفلها في الداخل بنوع انها تفسح في المجال
لدخول حرارة الشمس والهواء ، وتمنع الناظر من ان يرى شيئاً
في الشارع او ان يُرى . ان ذلك هو بالحقيقة شبه حاجز وليس
« أبا جور » .

لا يجهل معظم قرائي ان حسن تنسيق المنازل ومحلات اللهو

مجهول تماماً في تركيا نظراً للادارة الحكيمية التي اهتمت
بتشييدها ...

انه يستحيل على اي كان ان يتصور الفوضى التي تسود الشوارع
والمساكن في بيروت . وفي هذا يقول السيد بوجولا : « انني لم
ارَ غرابة وشذوذاً اكثر مما رأيت في مدينة بيروت العربية . ان
منازلها ، المبنية بالحجارة ، عالية اكثر منها في اي مدينة من مدن
سوريا . فقبابها وسراديبها السرية وممراتها المظلمة ، وشوارعها الضيقة
الملتوية تبعث ، لاول وهلة ، نوعاً من الهلع في نفس السائح الذي
يريد ان يطوف في انحاءها . ان كل بيت يؤلف نجماً لا يقتحم ،
والحي الاسلامي بنوع خاص يبدو كأنه مأهول بطبقة من
المساجين . اني لم اجد صعوبة تضاهي الصعوبة التي اشعر بها حين
دخولي بيتاً من بيوت بيروت . ان الظلم الذي لا يضل طريقه
ليُزعج احياناً عند القيام بزياراته الرعائية لهذه البيوت ... ويمكن
القول ان كل واحد منها يصلح ان يكون مركز دفاع ' .
ان مدينة بيروت هي مضية حقاً ، بالنظر الى بيوتها التي
تفصل بينها ممرات معوجة ، وتربطها قناطر قامت عليها غرف
تضعف من نورها الذي لم يكن قوياً بسبب تلاز شوارعها
الضيقة .

فاضطرار المرء الى ان يسمّر نظراته برجليه ، وهذه احدى
محاسن المتاعس ، يحول دون رؤية بنايات بيروت الكريمة . ولما
كان المسافرون يشعرون ببعض الغبطة عندما ينجون من خطر

ما ، فانهم يهتسء بعضهم بعضاً في نهاية كل مرحلة في هذه المازق
الخرجة .

ان استهتار الاتراك بكل ما يمت الى السلامة العامة بصلة هو
شء لا يعتقر لهم ، ولا سيما اذا ما نظرنا الى الوسائل المتوفرة
لديهم للاهتمام بها دون ان يكلفهم ذلك اقل نفقة : لقد كان
بوسعهم ان يسخروا اناساً لسد ثغرة في حائط . إلا انهم لا
يفعلون ذلك إلا بعد وقوع عدة حوادث مفرجة وازهاق عدة
انفس .

والذين لا يعرفون بيروت قبل حكم محمود بك يظنون اني
اتعمد هذه المبالغات . ودفعاً لهذا الظن اقول : ما علينا إلا ان
نبتعد قليلاً عن الشارعين اللذين يتفرعان عن البحر ، حتى نلاحظ
انه يجب على المارة ان يدرسوا طبيعة البلاط درساً مدققاً ليسلموا
من الانزلاقات العديدة التي قد تنتج عنها وتكسر عظامهم .

وصف سائحون كثيرون الحوانيت التركية . اما انا فحسبي
القول انها تشبه تماماً شوارع البلاد وبيوتها ومنازلها وحوانيتها .
اننا نعلم ان اصحاب الدكاكين يقعدون القرفصاء ، فالدكاكين
لا تعلق عن الارض إلا بمقدار متر واحد . اما داخلها فمجهز
برفوف تبسط عليها البضائع . واوسع حركة يستطيع ان يأتيتها
صاحب الدكان هي ان يميل يميناً او شمالاً ، او يقف على رجله
عندما يريد الوصول الى الرفوف العليا . اما المشترون فيقفون
امام الواجهة التي توازي الدكان عرضاً وارتفاعاً .

والصديق او زبون المحل الذي يأتي بقصد التلهي لا الشراء ،
يقبع في الزاوية الاخرى قبالة صاحب الدكان . وبما ان القهوة

موجودة في جميع الاسواق فتصب القهوة المرّة ٢ للضيف بناء على
اشارة صاحب الدكانة ويقدم له الغليون ، لانه ، كما يقول الهواة ،
ما من لذة تضاهي لذة تناول جرعات من القهوة والتدخين عليها ،
فتمازج وتطيب آناً بعد آن . انها افخم مأدبة يمكن ان يدعى
اليها شرقي .

فالقهوة في الشرق تصب للضيوف كما نعلم في جميع المناسبات .
تصب عند الباشاوات وعند الفقير المعدم . وقد أضر الاوروبيون
الذين يسكنون تركيا الى اتباع هذه العادة ، حتى انه اذا لم تقدم
القهوة لابن البلد فلا يعزوه هذا الاخير المنسي ذلك الاهمال الى
عدم التهذيب ، بل يعتبر ان كرامته قد جرحت . وهذه العادة
تفشّت كثيراً حتى تسرّبت الى جاليتنا ، فأصبح النزق الفرنسي
يدفع الكثيرين منا الى التدمير من عدم تقديم القهوة لهم في بيوت
اوروبية ، عازين ذلك الى قلة الاعتبار والاحترام .

ان عظمة الدارات وجمال الينابيع لم تعرفها بيروت ايضاً .
واذا كان هنالك فسحة دبرتها يد القدر في هذه المدينة فانها تصبح
محلاً تكس فيه البضائع .

اما المقاهي ، وما اكثرها هنا ، فهي عبارة عن غرفة مظلمة
رديئة البلاط تنتصب حولها مقاعد من الحجارة ، مفروشة بحصير ،
تنتشر فيها عدة كراسي علو الواحدة منها خمسة وعشرون
سنتراً ، يجلس عليها المتفرجون في داخل القهوة وعلى الطريق

٢ ان البن العدي قليل جداً في سوريا ، ويمكن التأكيد ان البن الذي
يستخدمونه في بيروت هو من البرازيل ، ولكنه غير نظيف لان تفتير الاهلين
يحملهم على ان يفضلوه معيوباً ليشتره بثمان اقل .

العام . أما في المدخل فيقوم موقد عليه ابريقان او ثلاثة اباريق
للقهوة ، واثنا عشر فنجاناً مغلفة بطروف^٣ من النحاس الاصفر .
والى جانب الموقد تصفف النارجيلات وهي عجمية الاصل يدخن
بها التبناك ، وهو نوع من التبغ ذو طعم حاد جداً ، وهذا ما
يحدو الى تدخينه من خلال الماء اذ لا يمكن احتماله بغير هذه
الطريقة :

اما في المساء فتكون المقاهي مطروقة جداً ، وكلما تمتد السهرة
الى ما بعد العشاء ، اذ تقام الصلاة بعد انقضاء ساعة ونصف من
غياب الشمس . انها الفترة القصيرة التي يقوم بها القاصون العرب ،
ولاعبو الكركوز ، بتحريك مواهبهم والهلب قرائتهم .

ان الشرقيين بعيدون جداً عن التجديد ، حتى ان المواضيع التي
قلدوا بها المشاهد الصينية لم تتغير ، فهي هي منذ اربعين سنة لا
تزال كما عرفت فيها . لقد حضرت هذا المشهد نفسه في افريقيا
واليونان وسوريا . ان لاعبي الكركوز يقدمون بعض الاحيان على
الجزء بالشخصيات المحترمة ، والحوادث الحديثة العهد . وقد بدا لي
ان عواقب هذا العمل تحمل على السخط والتقرّز . انه يؤول الى
افساد اخلاق الممثلين والمتفرجين الذين يضمون بينهم العدد الكبير
من الصغار فتفسد اخلاقهم . ومن حسن الحظ ان هذا المشهد
القدر قد ألغى في الجزائر ، حيث كان يقام بتمثيل ملذات من
يتعودون ان يرتادوا المقاهي المغربية .

٣ الظرف هو صحن يعمل عليه الفنجان فيقي من الاحتراق . يكون في البيوت
من الفضة ، اما عند الباشوات فمن الذهب ، وهم يخلونه عادة بمجارة كريمة .

أني لا أرمي إلى اظهار اخطاء من كتبوا قبلي اخبار مشاهداتهم ،
كما صرحت سابقاً ، ومع ذلك فلا بد لي من ان اشير الى الخطأ
الكبير الذي وقع فيه « فولني » Volney عندما تحدث عن الرافصات
اللاتي زعم انهن يظهرن ، بعض الاحيان ، في المقاهي ، ليهجن غلظة
الجاهل الهادئة . واستطيع ان اقول ، وليس هذا نتيجة اختباري
الطويل ، ولكنه يستند الى رأي كثير من الاوروبيين الذين
طافوا في سوريا او اقاموا فيها ، ان امرأة واحدة ، ولو كانت
اشد النساء فجوراً واباحية ، لا تجرؤ على الظهور في هذا المحل
العمومي .

ان القهوة وتدخين النارجيلة وحضور دينك المشهدين لا تكلف
اكثر من عشرين بارة (عشرة سنتيمات) .

وفي بيروت عدة خانات ينزل فيها الداللون والسياح
والمواطنون . انهم يجلثون في غرف صغيرة ، وهذا كل ما يرغبون
فيه ، اذ ان من المصيبة ان يجدوا غرفاً مؤثثة !

ولما كان كل شخص يصطحب معه الامتعة التي يحتاج اليها في
سفره ، فانه يتمركز حالاً دون ان يلجأ الى بائع المفروشات
والسجادات .

يسط المسافر سجاده على الارض ، ثم يرتب امتعته ، ويبدل
ثيابه بسرعة وجراًة ، لانه تعود ذلك ، ثم ينزع من اجرتبه
الحوائج التي تزود بها ، فاذا به قد استقر على احسن ما يرام .
ان السجادة والعباءة والاجربة هي اشد ما يحتاج اليه المسافر .

فالاولى تقوم مقام السرير ، والثانية يجعلها لحافاً ، والثالثة تُحشى
بثياب التبديل ، فتقوم مقام الحدة . اما الحُرُج فينوب عن
الصندوق او الحقيبة ، فتجعل فيه ادوات المطبخ والمؤون البسيطة .
وهذه الامتعة ، التي يصطحبها المسافر ، توفر الكثير من النفقة ،
فلا يدفع المسافر إلا بدل الزرابة .

ان المسجد الكبير لا يتميز إلا بطراز بنيانه المسيحي . يعود
بدء عهده الى زمن الصليبيين اذ كانت كنيسة على عهد القديس
يوحنا ، كما تكلمتُ عن ذلك في فصل سابق . واقول الآن ان
هندسته تشبه هندسة تلك الابنية التي هي من نوعه ، ولا تزال
بعض بقاياها قائمة على الشاطئ الواقع بين يافا والكرمل .
ويزعم ابناء البلاد ان كنزاً كبيراً مدفون هناك . ومصدر
هذا الزعم ضعف عقلية الشرقيين بوجه عام . فجميع الابنية
القديمة تخفي ، حسب زعمهم ، كنوزاً تقدر بمبالغ ضخمة .
اما المساجد الاخرى فلم توح اليهم زعماً خاصاً لانها ، كما يظهر ،
قليلة الدوطة ... ولا يمكننا ان نقارن بينها وبين مساجد المدن
التركية الاخرى التي تملك بعض المدخول المخصص للنفقات
الدينية .

تدخل الكتب ايضاً في عداد الهبات التي تقدم للمساجد
بغية تثقيف الشعب الاسلامي القليل المطالعة بطبيعته . وهذه
الكتب تكون عادة مصاحف وشروحاً وكتب عبادة اخرى .
وفي هذه المساجد يفتش الدراويش عن اسباب الارتفاق ،
وعن ملجأ يأوون اليه عندما يهبطون المدينة . وقد تكون ايضاً
ملجأً للمذنبين لا يرتحلون ، او للمعتوهين . انها تستخدم كبيمارستان

للذين فقدوا عقلمهم او خلقوا مجاذيب .
يطوف هؤلاء الدراويش في الشوارع بالبسة غريبة ، وعلى
رؤوسهم طرايش طويلة . وقد يتسلح بعضهم بحراب . ويحملون
في ايديهم صحيفة ضخمة تشبه شكلاً نصف جوزة او لوزة . اما
الذين يفتقرون الى قليل من الذوق فانهم يستغنون عن ارتداء
الثياب ، ويكتفون بصلب ايديهم على صدورهم او تركها مدلاة
كرقاص الساعة .

ان رحالةً لبيباً شاء ان يعتنق الدين الاسلامي عندما رأى
الاحترام الذي يحاط به المعتوهون في تركيا فيخفف من رؤسهم
وتعاستهم . فهم يحترمونهم ويجلونهم لانهم ، في نظرهم ، اشخاص
منحوا امتيازاً دون غيرهم . فالله لم ينتزع عقلمهم إلا لانه كان
راضياً عنهم . غير انه يمكنني ان اضيف ان هذا الشعور لا يرد
الموت عن هؤلاء الاولياء المساكين الذين يقضون في كثير من
الاحيان لعدم الاهتمام بهم . انه جسد ينطفئ ، هكذا يقولون .
اما القسم الجوهري - يعني الروح - فقد اصبح منذ زمن طويل
عند اقدام خالقه .

تخيّل احد هؤلاء الدراويش ، وقد اصيب بمرض جنون السلطة ،
وسيلة فيها بعض شفاء لجنونه هذا ، وهي سهلة التنفيذ . اشترى
من الابريق الصغيرة مقداراً سمحت به ميزانيتها . ولكي يملك
منها اكثر عدد ممكن انتقاها مثلومة ومشققة ومصدعة . وبعد ان
ملأها ماء ، صفها على منضدة صغيرة لعوام المسلمين ، ليتناول كل
منهم واحداً منها يستعمله عند الوضوء . ثم قعد قريبا يلقي على
المصلين او امره . فكان يقول لمن يمد يده الى الابريق الاصفر :

خذ الاحمر . والى الآخر : دع هذا وخذ ذلك . والى الثالث :
دونك المستدير او المشعث ، او الذي ليس له رقبة الخ... وكان
الحاضرون يتأملون ويتساءلون عما حدا هذا الرجل على القعود منهم
هذا المقعد ، دون ان يفهموا لاول وهلة ما هو الباعث على ذلك ،
واخيراً عرفوا انه كان موظفاً وغزل ...

ان منائر بيروت تشبه كل الشبه منارات البلدان الاخرى ،
وهي قائمة كالشمعدان . اما السراي ، او مركز الحاكم ، فليست
سوى خربة مقوضة . ومع ذلك فمن يتأملها يمكنه ان يحكم على
ما كان عليه سابقاً قصر فخر الدين . لقد اقتبس هذا الامير الكثير
عن الاوروبيين في بناء قصر مديس ، فأضفى على قصره تجميلات
كثيرة دلت بحق على انه احسن الاقتباس .

اما المحكمة فهي في الواقع بيت سكن القاضي ، وهو قصر
العدل في تلك البلاد ، وهناك تعرض المظالم على اختلاف
انواعها .

والبوليس يتلقى الامر من « المتسلم » المكاف توزيع العدالة .
واذا جاز لي ان اتلاعب في الكلام قلت : انها الوظيفة الوحيدة
التي يحسنون القيام بها على حقها ، لاننا نجد انفسنا دائماً معرضين
لضربات العصي المتعددة ...

وفي السراي سجنان يطلق على احدهما اسم « الزندان » وهو
عبارة عن محل رطب تعشش فيه البواغيث . ان خشية تطبيق
هذه العقوبات القاسية ، بل الظالمة في اكثر الاحيان ، تقلل كثيراً
من الجرائم وتحمل على التحفظ الشديد .

ويظهر ان البوليس لم يغير اساليب المحافظة على الامن ، فهو

لا يزال يحافظ على عقيدته القديمة وأسلوبه البالي . وهاكم على
الاقل دليلاً يثبت ان الطريقة المتبعة في القرن السابع عشر لا
تزال تطبق اليوم :

انهم يُركبون المحكوم عليه حماراً ويديرون وجهه صوب
ذنب هذا الحيوان . وبعد ان يسودوا وجهه ويضعوا على
رأسه جلد خروف ملىء باوساخه ، يقودونه الى المدينة على
هذه الصورة ، طائفين به في شوارعها بين الهتافات الصارخة
والبلبلّة العظيمة ° .

وكما هي الحالة في جميع أنحاء الشرق ، ترى اسواق مدينة
بيروت تزخر بالكلاب . ان المشاجرات التي تقع في الاحياء لا
يحمس بعقباها إلا المارة المحايدون الذين يخرجون من مأزق هذا
النزاع المحلي ملطخين او بمزقي الثياب . وما اسعد المتقاتلين
المدفوعين بحماسة الشديدة اذا لم يسحوا لانفسهم ان يعرض
بعضهم بعضاً !

كان امراء الجبل يترددون ، بوجه خاص ، الى مدن الشاطيء ،
في اثناء الاحتلال المصري ، لان ابراهيم باشا كان قد وكل اليهم مهمة
القيام بحمايتها . وعليه فانه لم يكن يرى سوى مسيحين مسلحين .
وهذا ما كان يؤلم اهالي المدينة اعداء ابناء لبنان ، فقد كانوا
يتمنون لو يوليهم الباشا عناية السهر على مدينتهم .

وفي ذات يوم كان احد هؤلاء الامراء ماراً بالاسواق بمطياً
جواده ، فاذا به يصادف على الجانبين ، وفي كل لحظة ، كلاباً

ممددة على البلاط . ولما اعيتته الحيلة في اجتنابها قال ، في ساعة
فقد فيها صبره : ما اكثر الكلاب في هذه المدينة ! فأجابته
حانوتي جرحته هذه الملاحظة ، اذ ظن انه يعنيه : لقد نطقتم
بالحق ، يا صاحب السعادة ، ولكن تأملوا قليلاً تعلموا ان اكثرها
غريب ...

ان المدارس العامة قليلة جداً . ولا يعلم فيها إلا القراءة
والكتابة بدون اتباع قاعدة . والاولاد الذين يراد ان يتلقوا
دروسهم يتعلمون قراءة القرآن . ولما كان هذا التعليم يتعب
الاطفال الذين قلما يقدرون جمال الاسلوب ، فانهم يعدونهم باجمل
الاماني التي تحقق ، بدون مظل او خلف ، يوم يصرح المعلم بان
تميزه ختم الكتاب الكريم . عند ذلك يعطي الاب بحشيشاً للشيخ
ويدعوه الى حفلة الغد .

ان جميع الاقارب والاصدقاء يدعون اليها ايضاً ، كما ان
جماهير من الفضوليين لا تتأخر عن الانضمام اليهم . والصبي الذي
يلبس بفخامة ثياباً كلها جديدة ويجلس بمجوهرات امه ، يركب
حصاناً مجللاً بالكوبان ، ويتبعه رفاقؤه وعلى رأسهم الشيخ يتم
مقاطعه الاثيرة اليه . اما المصحف الشريف فيوضع على طبق ،
وحواليه الجميع يصعدون ترانيم الشكر ، حتى ان النساء يساهمن
في هذا الاحتفال مع الرجال بزغرדתهن المشهورة : لو ، لو ، لو .
انهن لا يفتحن افواههن المحبأة وراء الحجاب السميك إلا ليفلتن
تلك الصرخات الحادة التي يمطنها ما استطعن ، ويتمتعن برحابة

٦ قبل ان هذا النوع من الصراخ يعود الى اصل قديم . انه هليلويا الرومان .

هذا الامتياز الضئيل .

ان الشيوخ او سدنة المساجد هم ايضاً مدعوون الى هذا الاحتفال، فيقومون في اثناء هذا الطواف الاحتفالي بتمثيل روايتهم الدينية ، بعد ان ينضم اليهم المتعصبون الذين يوهمون الناس انهم وقعوا في غيبوبة . ولكي يفيقوهم فانهم يهزّونهم بعنف على نغم الطنبور الذي اصطحبه تلاميذ الشيخ وهم يغنون ، وذلك ما يؤلف مع الموسيقى الاخرى وصراخ النساء وضجيج الجمهور أخوف ضجة يمكن ان يتصورها العقل .

نجد احياناً ، وهذا ليس بالغريب ، شباناً من المسلمين يدرسون النحو على علماء مسيحيين ، نظراً لتفوق الاصول الحديثة التي اتبعها هؤلاء بعد ان وضع اصولها مطران ماروني في حلب . ان فائدة هذه الطريقة ظاهرة لانها تعلم بسنتين ما لا تستطيع ان تعلمه الكتب الاخرى في عشر سنوات .

ان الينابيع التي لم تكن تنضب قط جفّت الآن . اما قديماً فكان يدفعهم حب الاحسان الى تخصيص مبالغ للحصول على الثلوج في اثناء الصيف، فيتمكن عابرو السبيل من ان يشربوا ماء نقياً ويتبردوا بسهولة ^٧ .

وفي بيروت حمامان ، يقع الكبير منهما قرب السراي وهو قديم العهد ، ظهر ان الاسماعيليين ضربوا صفحاً عنه كما ضربوا صفحاً عن المسجد الكبير . ان الحمامات لم تخصص فقط لتطهير المسلمين ، بل لها ايضاً اهمية كبرى في حقل الطب العربي ...

٧ باسوتيل ، رسالة ... الخ ، ص ٤٣ .

فهناك يتعرض المرء الى التقاط الامراض الجلدية ، وغالباً ما تكون هذه الامراض معدية ، واولها واسرعها عدوى الجرب ، الكثير الانتشار في البلاد .

اما مَنْ يريد الاستحمام فلا يتكلف إلا انتزاع ثيابه فوق احد المقاعد الخشبية الكبيرة القائمة حول الغرفة الاولى . ثم يستعيض من ثيابه بمنشفة يشد بها وسطه . الغرف مشتركة بين الجميع . إلا انه يمكن الاختلاء في احدى المقاصير القائمة في الزوايا الاربع . وما من شك في ان المستحم يكون مرتاح البال وفي حرز حرير متى علّق منشفة على الباب كأنها ستار له .

حاول ساذج ذات يوم ان يجتبر صحة الزعم بانه لا بد من ان يجن مَنْ يستحم بعد ان يأكل سمكاً ولبناً . ولما وجد ان عقله لا يزال في رأسه ، رغم قيامه بانفاذ هذه الشروط الثلاثة ، دفعته لذة هذا الاكتشاف التي استولت عليه الى وسط الشارع ، ليعلم ذلك بسرعة . فخرج عارياً وهو يصيح : انظروني ، لقد استحمت بعد ان اكلت سمكاً ولبناً ، ومع هذا فاني لم اجن . إلا ان عريه الكامل كان ينقض زعمه بانه لا يزال يملك عقله ...

ان لمسيحيي بيروت ثلاث كنائس . واكثر هذه الكنائس رحابة وجلالاً هي كنيسة الروم . لقد شيدت وكنيسة الموارنة في وقت واحد ، على عهد امراء الجبل الذين كانوا ، رغم تظاهرهم بالاسلامية والدرزية ، اكثر تسامحاً من سواهم . ان كنيسة الروم في بيروت هي اجمل كنيسة مسيحية في انحاء المملكة العثمانية .

انتقلت عدوى الاوروبيين ، في الاكثار من تشييد الكنائس ، الى الكبوشيين ، حتى اننا لا نجد نسبة بين عدد هؤلاء ووفرة

كنائسهم . وهذه الخطة ابتدئها كبوشيو بريطانيا لتكون الصلوات
والقداست سهلة المتناول للمسيحيين الذين كانوا يقطنون ، وخدمهم ،
انذاك ، بيروت وضواحيها في مستهل القرن السابع عشر . كان
اباء الارض المقدسة يملكون فيها قديماً مأوى للفقراء ، وكنيسة
على اسم الخلّص ، وقد حازت هذه الكنيسة شهرة واسعة حتى ان
القدّيس اثنانثيوس جعلها موضوع احدي مواعظه التبشيرية ^٨ .

وعام ١٤٥٥ حدثت على يد المتعبدين الذين يخدمون الكنيسة
عجوبة تمت بها شهرة قداسة هذا المأوى .

ان مؤلف كتاب « سوريا المقدسة » يجعل من مدينة بيروت
قدساً صغيرة بسبب الصليب العجيب الذي كانت تملكه . انه صنيع
يدي نيكوميدي ، وقد اتصل بالارث ، كما يقول المؤلف ، الى
جاماليل ، ثم أرسل الى بيروت قبل سقوط القدس بسنتين بين
يدي تيت وفاسباسيان . ويقولون انه لا يزال موجوداً اليوم في
مكان ماتحت الارض في كنيسة الخلّص التي اصبحت اليوم مسجداً ^٩ .

ويضيف المؤلف قائلاً : ان القدّيس اثنانثيوس اتخذ من هذا
الصليب موضوع موعظة جميلة القاها في مجمع نيقية ^{١٠} .

أوهل يعقل ان يكون المؤلفون قد خلطوا بين هاتين
الاعجوبتين !

ان بيروت تتقدم باضطراد وتوشك ان تعد بعد الاسكندرية
وازمير . لقد انشئت فيها قنصليات لجميع الدول تقريباً ، ومؤسسات

٨ تاريخ الارض المقدسة ، الجزء الثاني ، ص ٩٠٩ .

٩ سوريا المقدسة ، ص ١٣٣ .

١٠ سوريا المقدسة ، ص ١٣٤ .

تجارية ، وفنادق ، ومحلات مجهزة على اكمل وجه ، واخيراً مله
فخمة لا مثيل لها الا في الاساكل الخطيرة .

حاولت ان اقوم بمشروع تأسيس خان افرنسي يضم بين جنباته
دار القنصلية ، ومحلات التجارة ، والمكاتب ، ومخازن تجارنا حتى
معبد بلادنا ايضاً . وحكومة الملك التي كانت تشجع دائماً مؤسساتنا
في تركيا ارصدت لي ، بعد تأييدها هذا المشروع ، مبلغاً كافياً
للمشروع فيه . الا ان السلطة المصرية التي كانت تستخدم جانباً
من هذا الخان لاستيداع الملح ، وكان يمكنها ان تودعه محلاً
آخر ، قد أصرت على رفضها منحنا هذا المركز رغم المفاوضات
المتعددة التي قمتُ بها حتى لدى نائب الملك .

ولقد اتخذت من هذا الرفض مقياساً لا قدر العواطف التي
يكنسها لنا المصريون ، واني لم اخطيء قط في الاحكام المختلفة التي
اصدرتها على اصدقائنا المزعومين على ضفاف النيل .

الفصل الرابع

ضواحي بيروت.

المدافن هي اول ما يقع عليه النظر عند الخروج من باب السراي . ففي جميع المدن التركية لا يفصل بين مقر الاحياء ومقر الاموات سوى حائط السور الكثيف وعرض الطرقات .

ان سبب هذا القرب الذي لا يجهل العرب مساوئه ، لانهم ملهون بعلم الفيزياء والصحة ، عائد ، بلا ريب ، الى الاعتقاد الذي يوجب الاسراع بدفن المؤمن ، لان ملاك الموت ينتظره في اللحد لاستماع استجوابه الاول .

وهنا يجب ان نذكر بالمثل السائر الذي وضعه موليير شعراً :
« من يدفن الميت باكرأ فكأنه قتله ، فربّ مَنْ ظنّ ميتاً لا يكون موته الا ظاهراً . »

عرفت في اماكن شتى من سوريا اشخاصاً يطلق عليهم اسم ابن الميت او الميتة ، لان اباهم او امهم قد انتشلا حين من المقبرة . تُزار القبور عندهم كثيراً ، والنساء اكثر زيارة لها من الرجال ، كما ان في جعلها حول المدن ، وعلى مرأى من الجمهور ، تسهلاً لمهمة الزائرين ، ومحافضة على الحشمة التي قد تُهتك في الاماكن المنزوية .

لم يكن منظر المدافن يضعف شجاعة الاحياء عند الرومان .

كانوا يهدفون من تشييدها على الطريق العام الى خلق المنافسة
والطموح، اذ تدعو رؤيتها الشباب الى التشبه بالرجال العظام الذين
خلدت ذكراهم هذه المقابر، فيقتفون آثارهم^١ .
ويقوم بين مدافن بيروت قبر لاحدى الحاكمات في عهد السلطان
محمود، ماتت منذ حوالى ثلاثين سنة، على اثر سقوطها من تحت
روام^٢ لدى رجوعها من الحج الى مكة .
والى اول جمعية صحية، تألفت في بيروت، يعود الفضل في
منع دفن المسيحيين في دهايز كنائس المدينة .
في الساحة الواقعة عن يمين باب السراي كان يقوم، فيما مضى،
بستان فخر الدين . واطن ان كاتباً قديماً سبقني الى وصفه . ان
كل منتوجات اوروبا وآسيا كانت تتكردس في هذا المكان .
ومن جملة الزخارف التي ابتدعها الذوق، كان يُرى في ذلك
المكان عدد كبير من التماثيل . انه لشيء غريب حقاً ! فهذا الامير
كان درزياً او مسلماً، وكلتا الديانتين تقضي تعاليمهما الدينية
بالابتعاد عن هذا الجمال المثالي .
وبعد، فمن يدري، فقد تكون تلك التماثيل غير كاملة، اي
نصفية، وقد لا يكون هنالك منها الا التماثيل النصفية . وهذا ما
يغير عند ذاك وجهة النظر .
واذ كنت رأيت في الجزائر بعض المسلمين الذين لا تردعهم
وساوسهم من اقتناء علب تبغ نقشت عليها تصاوير جميلة جداً، بحثت عن

١ مدام دي ستايل، كورين .

٢ هودج مقفل ينقله بغلان .

الاسباب التي تحرم عند البعض ما يجلبه البعض الآخر ، فانبأني احد الافندية ان التماثيل الكاملة التي تمثل الاشخاص كما لو كانت في حالتها الطبيعية هي وحدها الممنوعة . ومن ثم فلا حرج عليهم ، عند الضرورة ، اقتناء تصاوير رجال ونساء شرط ان تكون نصفية . وهذه الصور اذا ما اوقفت عند هذا الحد لا تمثل اجساداً يمكنها الحياة . واما التماثيل الكاملة فاقتناؤها جسارة تتنافى والحشمة ، وهي مشجوبة على الغالب .

وهكذا فان فخر الدين الدرزي ، المتظاهر بالاسلام ، قد استطاع ان يوفق بين امياله واوهام بلاده التي لم يشأ ان يصطدم بها .

ويقال ان هذا الامير افراط في البذخ ، فكانت له جنينة تجمع غرائب الحيوان ، وان الاقبية المعقودة ، الموازية للقصر ، التي لم تمس واجهتها حتى عام ١٨٣٨ ، كانت تستخدم لايوائها . الا انه يرجح ايضاً انها كانت اصطبلاً .

اقتضى ، بسبب المخدار الارض وميلها ، ان تكون جنائن الامير متعددة الاشكال . كان يحدها من الجهة الجنوبية الشرقية برج الكشاف وسلالمه الجميلة التي شوهدت بقااياها عام ١٨٠٨ ، والتي تدل على ان الامير غالباً ما كان يزور البرج . اما المنظر من اعالي هذا البرج فهو بديع جداً .

ان سهول بيروت مغروسة كلها اشجار توت ابيض . وهذه هي الشجرة الوحيدة التي تنمو في التربة الرملية الجافة . وهذا ما دعا الى الاعتناء بها بصورة خاصة ، اذ ان اغصانها تنمو خلال سنة واحدة .

ولهذه الغاية يقطعون جميع اغصانها في شهر ايار ، حتى اذا ما نبتت اغصانها مجدداً في ايار الصيف انتزعت في الحريف اوراقها وكانت علفاً للمواشي ، ثم تنفتق براعمها في مطلع الربيع ويبلغ نموها في ايار اشده ، فتكون طعاماً لدود القز الذي تتركز الصناعة الاساسية عند البيروتين على ما ينتجه من الحرير .

بنيت ، بادىء ذي بدء ، بضعة اكواخ في ضواحي المدينة لتربية دود الحرير . وعندما ابتداء ساكنوها يمنون انفسهم بقليل من الاطمئنان دفعتهم ثقتهم بالسلام الى تشييد بنايات اكثر رحابة . وقد اصبحت البيوت التي تشاهد اليوم هناك اجمل بيوت الضاحية . اما تلك الاخصاص فلا يرجع عهدها الى اكثر من ثلاثين سنة .

ثم اخذ المسلمون ينافسون المسيحيين حتى لم يعد يُرى سوى القليلين من السكان الذين لم يشتروا ولو بضعة امتار من الارض لتشييد برج (كذا) عليها .

يجب ان نُبتلي بجماعة المدينة لنقدر الطراوة القليلة التي ينشدها البيروتيون في هذه البساتين ، هذه البرودة التي تهب عليها تارة من البحر ، وحيناً من جبال لبنان فتدفعها جدران محومة ملتجة . ان هذه الجدران مبنية بجماعة رملية ، وهي بطبيعتها تنقل بوقت واحد الحرارة والرطوبة . وهذا ما يجعل بيوت المدينة غير ملائمة في الفصلين القاسيين . انها اُتاتين حقيقية في الصيف .

قلما نجد في بساتين بيروت اشجاراً مثمرة . لم يحل جفاف التربة وحده دون ذلك ، بل هنالك سبب اهم وهو تقسيم الارض فيما بينهم . انهم يضيّقون بهذه القسمة على بيوتهم فلا يكون لكل

شخص طريق تؤدي به الى منزله . ومن لا يملك طريقاً كيف يملك
جنيته !

واشجار ضواحي بيروت قليلة الانواع ، نجد منها شجر
الازدرخت الذي يوافقه مناخ بيروت كل الموافقة ، وشجر الخروب
والسنديان والزعرور والبطم . اما الصبار فموجود بكثرة ،
والشعب بكامله يقنت بثماره طوال ثلاثة اشهر كاملة .
وفي الناحية الغربية بساين كبيرة من التين لا يقل نوعها
جودة عن تين بروفانس وكالابره الممتاز . وجميع هذه الاشجار
يؤثر فيها جفاف التربة ، فلا ترتفع الى اكثر من ثلاثة امتار او
اربعة .

ان الجميزة التي تهزأ بحرارة الشمس تنبت ايضاً في حقول
بيروت ، ونجد منها اشجاراً ضخمة الجذع غير متطاولة الفروع ،
لان الاغصان التي نراها لا يزيد عمرها على خمس عشرة سنة .
عرفت البستان الذي تزينه شجرة الجميزة الجميلة ، ثم تأثرت جداً
عندما رأيتها تهوي بناء على طلب محمد علي الذي شاء عبد الله باشا
ان يرضه آنذاك . انه كان بحاجة الى كمية كثيرة من هذا الخشب
ليصنع آلات جديدة يخطبها الارز . فقدم له باشا عكا جميع ما
كان في البلاد من هذه الاشجار . فكان يوم قطعها مأتماً في
ضواحي بيروت . فالنظر الذي تعود رؤية هذه القباب الجميلة
الحضراء لم يرتح إلا بصعوبة الى ذلك الفراغ الذي حدث عندما
فقدت .

وهذه الجميزة الواجب غرسها لا قطعها لم تكن ضرورية لتجميل
الضاحية فحسب ، بل كانت تنفياً الجماهير في ظلال اغصانها

الوارقة ، بعد ان يدفعها قيظ المدينة ، فتلتبس عند المساء هواء البرية العليل .

كثيرة هي الاشجار التي استحال مقاهي وفنادق في الهواء الطلق . ان السائحين ذوي الفاقة ، او اصدقاء الطبيعة الجميلة ، كانوا يتألبون عليها زرافات زرافات ، ويجدون في جلوسهم تحت قبتها الخضراء ملجأ يقيهم حرارة شمس النهار وندى الليل .
كم كان جميلاً لو ظلت هذه الاشجار على ما كانت عليه قديماً ، اي مكرسة للالهة ! وهنالك في الشرق حيث تنتشر الاوهام عند الجميع^٣ من يدعو الى احترام هذه الاشجار لانها ضرورية لتنقية الهواء .

ان الجميزة الوحيدة التي صمدت امام فأس عبد الله باسأ الهدام هي الجميزة التي نجدها في باب السماطية الى الغرب ، والفضل في بقائها وسلامتها يرجع الى واقعة دلت على انه بقليل من الخزم يمكن ان يبلغ صوتنا مسامع الظلم .

وجدوا مسلماً ، حين هموا بالقطع ، يسك بجميزته وهو يقبلها .
وعندما ابغوه وجوب انسحابه وافساح الطريق للذين يقومون باعمال القطع ، اجاب : « انكم لا تستطيعون ان تقطعوها قبل ان تقطعوا رقبتى . لقد كلفتني جميع ثروتي ! »

ان هنالك بعض المسلمين الاتقياء الذين يهتمون بتترك مآثر خلقهم تقديس ذكراهم وتستمطر لهم نعم العزة الالهية . فالشركيون

٣ في حلب شجرة لم يجزوا احد ان يمد يده اليها لان الشعب كان متيقناً ان الذين ارادوا اقتطاع اغصانها حلت بهم مصائب مؤسفة . وهذا الوم كان متأسلاً في النفوس حتى ان الجنود المهرين لم يجسروا ان ينتزعوا الحشب اليابس منها .

اعتادوا ان يسألوا الله الرحمة لفاعل الخير الذي يقدرونه حق قدره .

وغارس هذه الجميزة كان من عدد اولئك الاتقياء ، فقد رأى هذا الرجل الصالح ان الشيء النادر ، لدى الخروج من هذه المدينة ، هو الظل ، فغرس شجرة توفر الكثير منه لعابري السبيل فيترحمون عليه .

غير انه بعد انقضاء قليل من الوقت صحت عزمته على القيام بفرض الحج الى مكة ، فكلف احد اصدقائه ، بعد ان استخلفه ، الاعتناء بالشجرة .

وعندما عادت القافلة ولم يرجع معها صاحب الجميزة ، بردت هممة متعهد هذه الشجرة ، وكاد ان يقف مواصلة نفقاته التي ظن انه لا يستردها . إلا ان شخصاً قادماً من الحج حمل اليه توصيات جديدة من صاحب الجميزة ، واكد له عودته بعد قليل من الزمن . لقد اضطر ان يقوم برحلة الى خليج فارس ، وسيعود قريباً عن طريق بغداد والشام .

ثم طالت الغيبة اكثر من المنتظر ، ولكن الرجل رجع اخيراً ، ودنت ساعة الحساب ودفع المصارفات فتخاصما وانتهيا الى التقاضي .

كان ما يطلبه الصديق من صاحب الجميزة مبلغاً لا يُستهان به لان تقلبات الطبيعة والجفاف جعلوا الماء عزيزاً ، والشجرة كانت تسقى منذ زمن طويل .

واخيراً قضت المحكمة على الحاج الجديد ، فاضطر الى بيع

٤ الحاج هو الذي يزور مكة والمدينة .

عقار صغير كان لا يزال يملكه وسدد بثمنه الدين الذي اورثته اياه
تلك الشجرة .

اما الضابط الموفد من قبل عبد الله باشا فقد ادهشته هذه
الحكاية ، فعفا عن الشجرة التي خالها مرصودة . فسامت ولم
يحاول احد اقتلاعها حتى بعد موت حاميتها المدافع عنها .
وتجاه هذه الجميزة يجري ينبوع قام بدفع نفقاته مسلم آخر .
ذلك بان صاحبها الاول وهب هذه القطعة للفقراء عند موته ، ناذراً
ان تحول الى ارض تسقى . وانفاذاً لوصية هذا المحب للانسانية
اشتروا سهماً من مياه المدينة وأجروه ينبوعاً في ذلك المحل
المطروق الذي لم يكن فيه سوى آبار ماؤها اجاج .
اما في تركيا فالخاصة وحدهم يقومون اليوم بقليل من عمل
الاحسان .

وبين المساكن القائمة في ضواحي بيروت مسكن موظفي
جمعية التوراة اللندنية الذين ينشرون كتب التوراة المنقولة الى
اللغات الشرقية ، إما هبةً ، او بيعاً . وهؤلاء السادة يؤلفون
فرعاً من مؤسسة مالطة التي تدمم بالكتب والمال . انهم لا يكتفون
بالتبشير بكلام الله لياتف حولهم المشايخ والانصار ، بل يحسنون
استغلال ضعف البشر . يعرفون ان التوفيق مجالفهم اكثر اذا ما
التجأوا الى دفع المال ، فيبدلونه في سبيل نشر دعوتهم . انهم
يشركون نساءهم في التبشير والوعظ ، فيوحي جمالهن الى الموعوظين
حبة الارض اكثر من حبة السماء ...

ولو كان اصحاب التوراة يبشرون بدعوتهم بين المسلمين
والنصيرية والدروز ، لكننا شكرنا لهم هذه النخوة بارشاد غير

المسيحيين وهديمهم . إلا انهم لا يهتمون إلا بالمسيحيين ، حتى اذا
ما وقفوا الى انتزاع واحد منهم ، خلقوا البلبلة في العائلة والشقاق
والفتن الكبيرة .

اقترح احد مبشري التوراة على مسلم تربطه به علاقات وثيقة
ان يعتنق الدين المسيحي . ولما كان هذا الاخير فطناً ، اجابه :
« نعم ، اني اوافق على ذلك عندما تثبتون لي اي المذاهب
المسيحية : من الارمنية ، والروم ، والسريانية ، والكلدانية ، والقبطية ،
والانكليكانية ، واللوترية ، والكالفينية ، هو الافضل . »

ان « بوسيه » لا يشعر بخرج موقفه في اجابة هذا المسلم على
سؤاله هذا ، ولكن مبشري التوراة في سوريا ليسوا من الملافة
العظام .

الفصل الخامس

ضواحي بيروت ايضاً . غابة الصنوبر .
مار جرجس . الكرنتينا . هضبة مار متر.

في الجهة الغربية فسحة كبيرة من الرمال يتقاذفها البحر من
مصر^١ ليلفظها على ضفاف اليابسة التي يسمونها رأس بيروت .
كانت هذه البقعة مكسوة قديماً بالاغراس والابنية وربما
بالمدافن ايضاً . وهناك سببان يميلانني على هذا الاعتقاد : الاول
ان الاقدمين كانوا يدفنون ، دائماً ، موتاهم على المرتفعات العالية
لجهة البحر ، والثاني وفرة بقايا الحزفيات والزجاج ، وقطع المعادن
والمسكوكات التي كانت تظهر على اثر هبوب العاصفة . فالماء
والهواء كانا يكتسان هذا المكان ويتركان في العراء هذه البقايا الاثرية .
ان الصخور التي لم تغطها الرمال محفورة ، اينما كانت ، بشكل
دياميس ونواويس . وقد نجد كثيراً من النواويس المصنوعة من
التراب الفخاري او الرصاص .

طُمت عدة اماكن خلال اربعة عشر عاماً قضيتها في بيروت .
ويمكننا القول ، منذ الآن ، اذا ما حكمتنا بالنظر الى تدافع
الرمال السنوي ، انه في اقل من قرنين ستصبح جهة رأس بيروت

١ قال السيد لامرتين بلغته الشعرية : « انها قطعة من صحراء مصر مرمية على
اقدام لبنان . » (رحلة الى الشرق ، الجزء الثاني ، ص ٣٣٦) .

المعرضة لهذه الحملات الرملية مطمورة كلها ٢ .
ناهيك بان الشاطئ معرض بكليته لمثل هذا الهجوم العدواني .
بيد ان النتائج التي يحدتها قليلاً ما تؤثر فيه بسبب نتوء رأس
بيروت الذي يكسر شوكة حدته .

واذا نظرنا بعين التأمل الى طبيعة الارض التي تحيط ببيروت ،
فقد يخامرنا الريب ، ولو هنيهة ، بان هذه المدينة كانت قائمة ،
في زمن قديم جداً ، على جزيرة ، ومنفصلة عن لبنان ، لان تربة
السهل المحدق بها مؤلفة من الرمل .

اما اذا توجهنا صوب الجنوب فنجد بعض اشجار من الصنوبر
تستوعي الانتباه نظراً لعلوها وضخامتها ، ونرى على مقربة منها
بقعاً من الارض مكسوة بهذه الاشجار التي يدل اختلافها في
الغرس والعتق على عصور مختلفة .

ان اشجار الصنوبر الضخمة التي تلقى بدون رحمة في الاتاتين
لعمل الكلس (والبيروتيون يظنون انها خلقت لذلك) ، قد اصبحت
على وشك الاضمحلال . وهنا مقام القول الفصل بقضية اثارها
سائحان حول اصل هذه الاشجار وعمرها .

قال السيد بوجولا ٣ : طفت في اثناء ثلاثة ارباع الساعة غابة

٢ ان هذا الحادث اصبح مألوفاً كثيراً في مصر . ويذكر بيان تضمنته العاشور
الكثير من هذه الحالات : ان رمالا جديدة تتصاعد كل يوم من جوف البحر ، فترميها
الامواج على الشاطئ حيث تلتقطها الرياح وتنقلها الى داخل الاراضي . انا نجد شاهداً
يبدأ لدى خروجنا من خان يونس في طريقنا الى غزة ، فرمال البحر المدفوعة بعيداً
نحو الشرق تتناقل وتحول الى صحراء واسعة من الارض كانت تستعمل فيما مضى .

ص ١٧٥ .

٣ رسائل شرقية ، الجزء السادس ، ص ١٢٧ .

الضنوبر التي صنع منها رفقاء البدو سلامهم وحصونهم المتحركة ،
ومعدات الحرب الاخرى التي كانوا يستخدمونها في حصار المدينة .
ولكن لماذا يقول فولني ان الامير فخر الدين هو الذي غرس
هذه البقعة صنوبراً ابتغاء تنقية « الهواء ما دام التاريخ يقول ان
فأس المجاهدين الصليبيين القدماء تعرفت الى صنوبر بيروت » ؟
ان الجواب على ذلك ، حسبما ارى ، سهل جداً لانه يستنتج
من السؤال نفسه ، فالامير فخر الدين اضطر الى اعادة تشجير
الغابة التي عزوا اليها تنقية هواء بيروت ، لان المحاربين الصليبيين
كانوا قد ابادوا قسماً كبيراً منها .

وهتف السيد بوجولا وهو يتحدث عن الاشجار الاخرى في
ساعة وحي حقيقية : « اه ! هل باستطاعة المدينة ، التي يهددون
بها الشرق ، ان تتقي غير الارز المسنّ هدفاً لفتوحاتها ؟ أيمن
العبقرية الصناعية المتعسفة ، الهدامة ، الشاعرية ، ان لا تتجتاح هذه
الاشجار النفيسة لتباع اخشابها الثمينة في اسواق الغرب ؟ »
واذا ما عدنا من الضنوبر الى مصب النهر الذي تتألف منه
تخوم حكومة بيروت ، نجد جامعاً صغيراً هو جامع الخضر
الذي يزعم المسيحيون انه بني في المكان الذي صرع فيه مار
جرجس التمين ° .

٤ رسائل شرقية ، الجزء السادس ، ص ٢٦٣ .

٥ وما يروونه عن بيروت ، وهذا ما يقوله ادريكومبوس ، هو ان مار جرجس
انقذ ابنة الملك من تنين هائل كان قد اوشك ان يفترسها ، واعادها بعد ان قضى على
الحوان المخيف . ويقول ايضاً على ذمة لوديفيكوس ان محل النزاع دعاه الاهلون
« كاباد وسيام » .

وروى المؤرخون الاقدمون ان قد قامت هنالك ، في المحل نفسه ، كنيسة كانوا يشاهدون اعمدتها المنحنية قبل ان واراها الثرى . واذا تجاوزنا شاطئ البحر من الجهة الشمالية وابتعدنا قرابة نصف ميل عن بيروت ، نجد مغارة تتسع لايواء اكثر من اربعمائة شخص . وهذه المغارة جعلها التين مأواه . واذا تقدمنا نصف ميل آخر الى الامام ، نجد كنيسة مار جرجس التي يجلبها المسلمون والمسيحيون إجلالاً كبيراً . ان كل تلك الآثار قد اندثرت بكاملها ، فالكنيسة دكت اساساتها ، والمغارة سدّت بابها بسبب بعض الانهيارات .

ولن اختم وصفي لضواحي بيروت دون ان اذكر المحجر الصحي (الكرنينا) الذي لا يبعد إلا قليلاً عن جامع الحضرة . فهذا المحجر قد قام بانشاءه القناصل ، عام ١٨٣٤ ، بما تيسر لهم ، فاستطاع ان يقي سوريا طوال خمسة عشر شهراً من الطاعون الذي كان متفشياً في القسطنطينية ، وازمير ، وقبرص ، ومصر ، هذه البلدان التي كانت تقدر منها دائماً سفن مشحونة بضائع وركاباً . وابراهيم باشا هو الذي كلفني انشاء النظام الصحي في سوريا ، على ان يساعدني فيه قناصل بيروت الذين شاوروا ان يظهروا غيرتهم في عمل يهمننا جميعاً . إلا ان هذا العمل لم يكن مجدياً بوجه خاص إلا للذين ألفوه ، او الذين حكم عليهم ان لا ينزروا في نقطة معينة . وفيما عدا ذلك فالقيام بمثل هذا التدبير لم يكن عملاً يسيراً .

كان علينا ان نذلل جميع العقبات التي خلقتها قضية المهاجر الصحية في بلاد يناهضها فيها الرأي العام . والقائد العام الذي

كان همه امر المحافظة على سلامة جيشه منحنا سلطة مطلقة . غير
ان اعمال النظارة المصرية كانت صعبة جداً ، حتى انه كان يتوجب
علينا ، لاجل الحصول على مساعدتها ، ان نمرّ في شبكة من
التقاليد أهم نتائجها اذاعة الوقت .

والقناصل ، بفضل جهودهم الجبارة التي لم تعرف الملل ، توصلوا
الى حماية البلاد من الاوبئة رغم تسرب المصابين اليها بلا
انقطاع .

أخطر القناصل ان يقوموا بدفع تلك النفقات من جيبيهم
الخاص . فسرعة الحوادث والاصابات لم تكن تمكننا من انتظار
وصول المال الذي طلبناه من السلطة .

كان علينا ان نشيد اكواخاً كبيرة لايواء القادمين وايداع
البضائع . ولما كانت البضائع ترد في اوقات تكاد تكون متصلة ،
كنا مجبرين على ايجاد امكنة لها تتفق واصنافها . وخلال المدة التي
زاوت فيها الجمعية الصحية اعمالها ، لم يستطع الطاعون ان يجتاز
التخوم التي اقمناها بوجهه . فلم يمّ غير مئة وستة وعشرين
مصاباً في الكرنطينا ، ولم تضطر السلطة الى دفع اقل مبلغ للادارة
الصحية ، لان الجمعية وفّرت للصندوق آلاف القروش ما عدا قيمة
البنائات التي تجاوزت الاربعين الف قرش . اما هذه الجمعية
فكانت مؤلفة من قناصل فرنسا والنمسا والدانمرك واسبانيا
واليونان .

اني لاحظت ، آنذاك ، وفي هذه المناسبة على الاخص ، ان
الاجراءات البسيطة التي تفهم وتدار بحكمة كانت كافية ، وحدها ،
لوقاية من وباء الطاعون رغم طبيعته المعدية .

وفي مكان غير بعيد من الكرتينا، تقوم هضبة مار متر التي
تغشى بها لامرتين ومجدها . انها جميلة حقاً بمناظرها الحلوة ،
والموقع الفخم الذي يتمتع به الناظر . وهاكم ما يقوله فيها :
« كثيراً ما تخيلت في طفولتي هذه الجنة الارضية ، لا بل
هذه عدن التي تقوم في مخيلة جميع المخوقات ، إما بصورة حلم
جميل ، واما كأنها اسطورة تحكى عن زمن واقامة اكثر كمالاً
وجملاً . لقد تتبعت « ملتون » في اوصافه الجميلة التي وصف بها
موطن اجدادنا الاولين المسحور . غير ان الطبيعة هنا ، كما هي في
جميع الاشياء ، اسمى من الخيال . ان الله لم يمن على المرء ان يحلم
بكل ما خلق من جمال . لقد حلمت بعدن ، لا بل اقول اني قد
رأيتها . »

انه لمن المؤلم ان يشرف مثل هذا المكان على بلاد ينشر فيها
الفساد كل يوم فواجعه .
ان بساتين بيروت مليئة بالحنات وأشباه الفساق التي تجري
فيها مسارمات رخيصة يندى لها وجه الاخلاق .

الفصل السادس

حاصلات البلاد . الدخل العام . اسعار الحبوب .

ان رحالة لا يكتب لفئة خاصة ، او طبقة معينة من القراء ، يجب عليه ان يتناول جميع النقاط التي تقع عليها عيناه . ولكي ارضي هواة تقويم امكانيات البلاد ، ها انني اقدم بياناً صغيراً ومقتضياً جداً عن حاصلات بيوت ودخلها ، نظراً لضوئتها وطريقة حكم هذه البلاد التي لا تشجع الانتاج ، بل تعرض القسم الاكبر للتهديب ، وتجعله في متناول السلطات ومأموري الخزينة ، فيستطيع الحاكم ان يجني منه نفعاً كبيراً .

واني اقول دائماً الى الذين احسنوا الظن بسكان سوريا ، او الذين يحسبون ان المدنية قد وصلت اليهم ، ان هذا العلم - علم الاحصاء - غريب تماماً عن هؤلاء . انهم لم يجاولوا الاحصاء مطلقاً ، فالاحوال الشخصية غريبة عنهم ، والدولة لا تعرف عن واردات البلاد سوى ارقام غير صحيحة ، لانها تؤجر كلها .

ان الشعب التركي هو اكثر الشعوب لامبالاةً ، وهو يرى ان جميع المعلومات التي وصلنا اليها تافهة . وعلينا ان نعلمه نحن بدورنا ان الطلاسم والعلوم والتاريخ هي بالحقيقة محاولة شرب البحر^١ .

وساعد في فصل مقبل الى الاخلاق التركية ، فاتكلم عليها .
 ان محصول بيروت المهم هو الحرير ، ويمكننا الجزم بانه يبلغ
 في السنة العادية الاربعماية والخمسين قنطاراً ، اي ١٠١٢٥٠
 كيلوغراماً . ان هذه الكمية قد عرف وزنها بصورة رسمية ،
 لانها تصدر بعد ان تحول الى الف وثمانماية بالة .

- ٨٠٠ بالة الى مصر عن طريق البر .
- ١٢٠ بالة الى مصر عن طريق البحر .
- ١٣٠ بالة الى افريقيا الشمالية .
- ٣٥٠ بالة الى مرسيليا .
- ١٠٠ بالة الى دمشق .
- ١٠٠ بالة الى حلب .
- ٢٠٠ بالة للاستهلاك .

وهاكم الآن ، فيما عدا ذلك ، بياناً مقتضباً عن حرير سوريا :

استهلاك		انتاج	
٥٠٠ قنطار	دمشق	٤٥٠ قنطاراً	بيروت
٣٢٠ قنطاراً	حلب	٢٠٠ قنطار	دير القمر
٥٠ قنطاراً	طرابلس	٢٠٠ قنطار	الزوق
٨٠ قنطاراً	دير القمر	١٥٠ قنطاراً	طرابلس
٣٠ قنطاراً	الزوق	١٠٠ قنطار	صيدا
٢٠٠ قنطار	بيروت والجبل	٣٠ قنطاراً	اللاذقية
١٠٠ قنطار	صيدا	٥٠٠ قنطار	انطاكية وسائر الشمال

الداخلية حما وحمص ١٠٠ قنطار	حما وحمص وسواها ٢٠ قنطاراً
دمشق وملحقاتها والجنوب	الصادرات ٥٠٠
٧٠ قنطاراً	
<u>المجموع</u> ١٨٠٠ قنطار	<u>المجموع</u> ١٨٠٠ قنطار

فالقناطير الخمسية المصدرة الى الخارج ، والمحوالة الى الفي بالة ، تصبح عنصراً هاماً للتصدير . الا انه يجب الاعتقاد هنا بان الكميات التي وزعت في البلدان المتقدم ذكرها لا تُستخدم جميعها في مصانعها ، فقد تبين من التدهور الذي صارت اليه ان القسم الاكبر منها كان يصدر الى اسوق اوروبا .

وقد تأكدت ان صناعة دمشق قصرت استهلاكها على ماثني وخمسين قنطاراً ، وصناعة حلب انقصت الكمية التي كانت تستهلكها حتى الثلثين ، فاكثر الاقشمة كان يُنسج من القطن الخالص . ان منتوجات بيروت ودخلها ارتفعت على التوالي الى مبلغ ٨٠٠،٠٠٠ فرنك .

وهاكم بياناً عن اربع سنوات :

بيان بالمكوس والضرائب الملتزمة (المضمّنة) في بيروت :

١٨٤٢	١٨٣٥	١٨٣٣	١٨٣٠	
٠٠٠٠٠	٢٠٥٠٠	١٣٥٠٠	٥٠٠٠	أصباغ
٧٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	٣٦٥٠٠	٩٠٠٠	دباغة ومسالخ
١٠٥٠٠	٥٠٠٠٠	٣٨٠٠٠	٢٠٠٠٠	كميالة
٨٨٥٠				
٢٥٥٠				

٤٥٠٠٠	٣٢٠٠٠	٣٤٧٠٠	٩٥٠٠	ساحة السمك
٥٠٠٠				
٥٦٠٠٠	١٦٠٠٠	١٤٦٠٠	١٠٠٠٠	حمامات
٠٠٠٠٠	٢٧٥٠٠	٢٠٥٠٠	٧٠٠٠	دخولية
٠٠٠٠٠	٣٢٥٠	٢١٠٠	٠٠٠٠	رسم الخضار
				العقارات والمسقفات
٥٨٤٤٨	٣٢٥٠٠	٣١٤٥٠	٩٠٠٠	والبساتين
٦٨٠٠٠	٦١٧٠٠	٤١٧٠٠	٤٤٥٠٠	بن (المبيعات العامة)
١٧٢٥٠	٠٠٠٠	٠٠٠٠	٠٠٠٠	جمالة
٤٠٥٠	٧٠٠٠	٥٢٥٠	٣٥٠٠	فحم
٠٠٠٠	٦٣٠٠	٦٦٠٠	٥٠٠٠	الحياكة
٠٦٥٠	٢٠٥٠	٢٠٥٠	١٥٠٠	خزفيات
٩٦٠٠	١٤٥٠	١٤٥٠	٢٠٠٠	خان الامير يوسف
٦٥٠	٣٠٠٠	١٢٣٠٠	٠٠٠٠	الوقود
٠٠٠٠٠	٠٠٠٠	٢٩٥٠٠	١٤٥٠٠	مسالخ
٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	١٩٠٠٠	١٠٠٠٠	تبغ وتبناك
٠٠٠٠	٠٠٠٠	٨٨٠٠	٧٥٠٠	اتونات
٠٠٠٠	١٠٥٠٠	١٦٠٠٠	٠٠٠٠	حانات
٣٠٠	٣٥٠	٢٥٠	٠٠٠٠	ارض الصيد
٣١٨٥٠٠٠	٧٦٠٠٠٠	٥٣٥٥٠٠	٤٥٠٠٠	المكس
٠٠٠٠٠	٣٢٥٠٠٠	٢٥٠٠٠٠	١٢٠٠٠٠	حرير
١٨٣٣٣٣	١٢٠٠٠٠	٦٥٠٠٠	١٧٥٠٠	ملح
٠٠٠٠	٠٠٠٠٠	٠٠٠٠	٣٠٠٠	قفف

١٤٣١٧	٢٠٠٠٠	١٢٠٠٠	١٥٠٠٠	الجماعة
١١١٣٩٠	١٧٠٠٠٠	الفردة المصرية
	١٨٠٠٠٠	المسيحيون
	١٢٠٠٠٠	المسلمون
.....	٩٢٠٠٠	٩٢٠٠٠	٢٥٠٠٠٠	مال اميري
.....	رسوم على الجبوب
٣٩٣٠٨٨٨	١٨٨٢١٠٠	١٥٨٨٧٥٠	١٠١٣٥٠٠	المجموع

ان حاصلات بيروت ولبنان المشتركة يبلغ حدها الاعلى حتى

١١٤٩٠٨٤٨٠٠ قرش ، وهي تنحصر في :

٩٠٠٠٠٠٠	الحرير	٤٥٠ قنطاراً
١٦٠٠٠٠٠	الزيت	٢٠٠٠ قنطار
٣٠٠٠٠٠٠	الجمور	١٠٠٠ قنطار
٣٠٠٠٠٠٠	التبغ	٢٠٠ قنطار
.....	الفحم الحجري (الذي لم يعد يستخرج اليوم)	
٣٠٠٠٠٠٠	الثمار المجففة : تين ، عنب ، جوز ، النخ ...	
	الحديد الذي يستعمل في لبنان لنعال	
٨٨٠٠	الحيل (تقريباً)	٢٢٠٠
٢٠٠٠٠٠٠	خشب البناء	
٢٠٠٠٠٠٠	القمح وسائر الجبوب	

اسعار الحاجيات المختلفة في بيروت :

١٨٤٢

١٨٣٤

سانتيم قرش^٢

٠ ٤٠-٣٠	الخبز ، الاقة ^٣
٢ ٢٠	لحم البقر
٧	لحم الغنم
٠ ٣٠	عشر بيضات
٢ ١٠	فروج
٥	دجاجة
٤	سمك طازج
٤	سمك مقدّد
٠ ٢٤	حليب
٧	زبدة
٦	شحم الخنزير
٣ ٢٠	زيت
١	خمر
٠ ٤٠	فريك (الكيلو)
٠ ٢٠	الشعير (الكيلو)
٠ ٠٤	ملح (الكيلو)

٢ كان القرش يساوي عام ١٨٣٤ خمسة وعشرين سنتيماً، ثم تدهور عام ١٨٤٢ الى عشرين سنتيماً .

٣ ان الاقة توازي كيلو غراماً واحداً و ٢٤ غراماً .

٨	تبغ للتدخين
٣٤	سعوط
٧	شموع
٤ ٢٠	صابون
١٨	شمع عسلي
٢	حديد
٣٦	نحاس مصنوع
٤٠-١٢	فحم الحشب
٧	سكر
٩ ٢٠	بن
٠ ٨٠	نيل
١٤٠	قرمز
٦ ٢٠	بهار
٨	كتان
٥	صوف غير منظف
٧	صوف مغسول
١٢٥	حرير
٢ ٢٠	ارز
١٠٠	خنزير واحد (خنوص)
٥٠٠	حصان عادي (مسمار خيل)
٨٠٠	زوج بقر
٣٠٠	بقرة
٢٥	عزة

تفسير	١٠٠	١	١	١	خروف
البيان	٨٠	١	١	١	جلد بقرة
البيان	٣	٢٠	١	١	جلد خروف
البيان	٤	٢٠	١	١	جلد عنزة
البيان	٢	٢	١	١	جلد قرقور
البيان	٧	٧	١	١	قطن صوفي
البيان	٧٩				
البيان	٧١-٧٢				
البيان	٧				
البيان	٢				
البيان	٢				
البيان	٣١				
البيان	٢				
البيان	٨				
البيان	٥				
البيان	٧				
البيان	٥٧١				
البيان	٢				
البيان (البيان)	١٠١				
البيان (البيان)	١٠٥				
البيان	١٠٦				
البيان	١٠٧				

الفصل السابع

اخلاق السكان وعاداتهم .

تحدث قبلي كثيرون عن مدينة الاتراك ، فاذا لم يتفق ما سأدونه وما كتبوه عنها فذلك لاننا نشق ثقة عمياء بصحة اقوال الكتّاب المفرضين^١ او الذين لم يتمكنوا من الحكم على الاتراك كما هم لانهم لم يخاطبوا بل مروا في ديارهم مرآ .
اني اعرف سوريا منذ سنة ١٨٠٣ ، فاقمت فيها عدة مرات ، واطول اقامة كانت مدتها عشر سنوات . وبناء على ذلك يمكنني التأكيد بان سكانها لا يزالون في مختلف شؤونهم واحوالهم على ما كانوا عليه قديماً ، لم يغيروا شيئاً من عاداتهم وتصرفاتهم

١ لحسن الحظ ، تسنى لبعضهم ان يحسنوا الحكم على رجال الشرق ، ومن بين هؤلاء السيد ميشو الذي يقول : « حملت على الاعتقاد بان اعمال الاصلاح التي اثاروا حولها ضجة كبيرة ما هي الا مشهد يتلونه امام الرأي العام الاوروبي . اني لارتاب جداً بمحمد علي ومحمود اللذين يتلان رواية المدينة ليستميلا عطف الشعوب المسيحية وينالا اعجابها . فاشا مصر ، على الاخص ، متيقن ان الطريقة الصحيحة الواجب عليه اتباعها ليكثر مشايعوه عبر البحار انما تكون في ان يحتل مكاناً بين حكام الجيل الحاضر ، وان يظهر للناس مقته القوي للهجبة القديمة ، ويدلل على انه صديق المعارف والعلوم والاراء الجديدة الغيور . لقد خدع كثير من الناس ، ومن هنا بالطبع نتجت هذه الخرافات التي تناقلوها عندنا حول مدينة هبطت ، كما يظهر ، منذ فترة ، من المساء على ضفاف النيل . »
(رسائل شرقية ، الجزء السادس ، ص ٣١٣) .

واخلاقهم . وكيف كان يمكنهم ان يتغيروا ؟
انهم لا يستطيعون ، كما يريد « لامارتين » لمواطنينا في فرنسا ،
ان يفهموا معنى الحياة ويتحركوا للاعمال التي يأتي بها العلم كل
يوم . فالثقافة صعب تعميمها بينهم وجعلها في متناول جميع الناس .
فالبلدان هنا محرومة من الجرائد لا يذاع ولا ينشر فيها شيء .
لا تجد شخصاً واحداً يتعاطى الكتابة ، ولو على سبيل التسلية ،
والقصصون الذين يتولون ، كل مساء ، خلال ساعة ، تسلية عاطلي
المقاهي ، يستقون معلوماتهم القصصية من مخطوطات بالية مبتذلة .
فاذا كان لا بد للشرقي من ان يفكر فاما يكون تفكيره
في مشاغله البنينة او التجارية ، ولا يشغله شيء آخر في هذا العالم
غير هذه . ان تسليمه لمشيئة القضاء والقدر يعيده بسرعة ، في كل
الاحوال ، الى هدوئه المعتاد الذي هو مزيته الغالبة على طبعه .
اعرف تركياً كان يكنّ لي كثيراً من الثقة ، ويستشيرني في
الاعمال التي تهمة . وفي ذات يوم اضطرته مصالحه التجارية الى
ايفاد ابنه الوحيد الى قبرص ، فسألني ان احمله وصاة الى احد
اصدقائي فيها ليعنى بامره . وما مضى يوم على سفر ابنه حتى
جاءني مستظلاً انباء هذا الولد الذي كان متزوجاً وأباً لاولاد .
ولسوء طالعه كان هواء لارناكا الموبوء شؤماً عليه ، فجاءنا ،

٢ ان الاتراك الذين لا يتغيرون في عرفهم وعاداتهم لم يتعلموا ولم يتجددوا ولم يتقدموا
في اي مضار . ان كل شيء عندهم يحول دون تقدم المعارف والعلوم . ان توهماتهم تجعل
من جهالتهم مبدأ مقدساً . فهم سذج وذوو اعتقادات باطلة الى مدى بعيد ، واعتقادهم
بالقدر يحدّهم ويجعلهم لا يبالون بأي شيء . (ديجون ، اراء في السلطنة العثمانية ،
ص ٦٢) .

ويا للأسف ، خبر وفاته . ارتبكتُ جداً ولم ادر كيف اواجه صديقي بهذا النبا الاليم خوفاً من تفجعه العظيم . واخيراً ، نزلت على اقتراح احد تراجمتي ، فتوجه اليه واعرب له عن مشاركتي اياه ألم هذا المصاب ، ودعاه الى احتماله بجلد . إلا انه عندما رأى موفدي تقدم منه وقال : لقد آلم صديقي القنصل هذا الحادث المفجع الذي حل بي ، أوليس كذلك؟ هذا مؤكد عندي . اننا لله واننا اليه راجعون . أبلغوه تمنياتي القلبية ، لا ابتلاه الله بمثل هذا المكروه . قولوا له ان يتعزى لمصيبتي .

وهكذا استغنى الترجمان عما اعدت من الجمل الطنانة ، وأضطر الى الانسحاب دون ان ينبس ببنت شفة ، لان موقف هذا الشخص الهادىء المستسلم قد وضعه تماماً .

قلتُ سابقاً انه لم يكن عند المسلمين مجتمعات حقيقية ، فالاشخاص الاشد حباً للاجتماعات والمجالس ينسحبون الى منازلهم عند غروب الشمس ليتعشوا فيها ، ثم لا يبرحونها . قلما يسمحون لانفسهم بالقيام بنزهة صغيرة على الاقدام ، وان فعلوا فتلك النزهة لا تتعدى المدافن او احدى الروابي غير البعيدة عن المدينة . انهم كانوا يخشون ، اذا ابتعدوا ، ان يقلقوا بال الحكومة لان السلطة كانت حذرة جداً^٣ . اما خروجهم الى المتنزهات راكبين خيولهم فهو نادر . فالاتراك يعدوننا مجانين حين يرون ما نبديه من

٣ كتب هذا الفصل يوم كانت الفوضى حالة البلاد الطبيعية . اما اليوم ، وقد ظهر بعض النظام في تصرفات الدولة ، فانه لم يبق ينطبق على الحقيقة بالقدر نفسه . ولكن لما كانت الحالة لم تستقر بصورة نهائية فالعادات لم تلغ ، بل يحافظ عليها .

الحركة النشيطة الفرحة عندما نفتش عن أسباب اللهو ، فهم لا يدركون اننا ننشد المسرة في المشقة التي نعانيها . اما هم فيؤثرون المسرات التي هيأتها لهم متاعب غيرهم ٤ .

اما المتعبدون منهم فيفضلون الذهاب الى الجامع في مواقيت صلوات الليل بدلاً من ان يصلّوا في منازلهم ، وقد تحظر عليهم الصلاة بالمنزل في بعض الحالات ، لان الضوء الجزئي الذي تؤمنه الدار غير كاف . فيذهبون الى الجامع فور خروجهم من الحمام . ومع ذلك فهناك بعض اشخاص يرون ان من اسباب الراحة ان يستطيعوا القيام بالتطهر الكامل في دورهم .

اما المسيحيون فباقتباسهم بعض العادات الاروبية قد تذوقوا لذة الاجتماعات الليلية ، وقد سهلت لهم سبلها وحشة الشوارع . فبعد هبوط الليل بساعتين ، تمتنع ملاحظة ذهابهم وايابهم ، ناهيك بان السلطة لم تكن ترتاب فيهم لتبث عليهم العيون والارصاد . في هذه السهرات الشرقية يصطخب بحث قضايا الساعة ، ولكن ضمن اطار محدود وضيق في النظر تبعاً لثقافة المجتمعين السطحية . فالقضايا السياسية التي تشغل بالهم هي قضايا تركيا ، وليتك تدري كيف يحكمون عليها !

وعلى كل ما في اراءهم من ضعف فاننا نراها دائماً اكثر صواباً من اراء سواهم .

فالسultan هو دائماً في نظر الاتراك موزع العروش . واذا لم يكن للاميركيين ملك (الولايات المتحدة) فذلك لان جلالته لم يشأ

٤ ساي ، بحث في علم الاقتصاد العام ، الجزء الاول ، ص ١٢٦ ، الحاشية .

ان يعترف باستقلالهم ° .
أكد احدهم ، في جدال وقع بينه وبين احد الاوروبيين ، ان
الافرنسيين لن يتمكنوا ابداً من اخضاع بلادهم . اما الاوروبي
فكان يحاول اقناعه بان اترك اليوم ليسوا اولئك العثمانيين القدماء
الذين يفتخر بهم .
فأجاب التركي : انني اسلمت بهذا ، ولكن السلطان العظيم أسد
مخيف .

فقال له الاوروبي : نعم ، انه كما يبدو لك مروع جداً ،
ولكن تصور كلين قوين يتنازعا اذنيه ، وكل منهما يشد صوب
صدره ، ثم قل لي بعدئذ ما يصيب اسدكم ؟ وهكذا أضطر التركي
المشده الى التسليم بصواب رأي مجادله . ان نفسه لم تحدثه بهذا
المؤتمر الكلابي .

فبمثل هذه التشابه يمكننا حمل الاتراك على الاقتناع ، لان
تعصبهم الاعمى وجهالتهم يجعلان منهم انساناً لا يستطيع اقناعهم إلا
بهذه الصورة .

وعندما نذكر لهم تفوق عدد الافرنسيين يجيبون بان مؤمناً
حقيقياً يمكنه ، بضربة سيف واحدة ، إسقاط ١٢،٠٠٠ كافر . اما
فيما يختص بالاعمال الحربية وخطتها فقد اصبحوا أنداداً لنا منذ
غيروا طريقتهم . أو لم يجهز كل شيء عندهم مثلنا ؟

° فهمت من جواله انكليزي لطيف في تصرفاته ومتفوق بثقافته (السيد بلاتون)
نه على اثر اهداء السلطان امير بلاد الغال ، سيفاً مرصعاً بالماس ، قالت له احدي
الشخصيات في دمشق ان ذلك كان اعترافاً له بحق وراثته .

ان السوريين يبالفون جداً بالامتداح ، وهم جد اسخياء بالهبات
والعطايا الممتعة التي يجوزونها الى حد ان تراودنا فكرة الاعتقاد
بانهم صادقون اوفياء .

ان المسلم ، اذا لم يكن له اولاد ذكور ، يأكل منفرداً في
خدره . اما النساء والبنات فيجب ان ينتظرن ريثا ينتهي
سدهن . وبعض الاحيان تكتفي الحريم بأكل ما هيأته من
مأكولات للعامه .

ومن تقاليدهم وعاداتهم ان يأكل الزوج وحده الثمار عند اول
نضجها او عندما تكون مرتفعة الثمن .

ان روح الألفة في العائلات الشرقية مفقودة تماماً ، ذلك لانه
يتوجب على الرجال ان يظلوا متجهمين دائماً في خدورهم ليحافظوا
على هيبتهم ويوحوا الى النساء والاطفال شعور الامثال الذي
يكفل لهم سيادتهم .

ان الشرقيين يُشغلون بسهولة ، وعندما يعجز تدخين الغليون
عن اغفائهم من الكلام ، فأتفه حادث يصلح موضوعاً لقضاء
السهرة التي لا تتجاوز حداً معقولاً . والمسيحيون ، بصورة خاصة ،
لا يتأدون في اطالة سهراتهم اذ ان الحكمة ، التي تتوج جميع
تصرفاتهم ، تقضي عليهم بان لا يظهروا على الطرقات العامة في
ساعة لا يجيز القانون التجول فيها .

ان سكينه الليل لا يقلقها سوى صراخ بائعي التمرية ، ملذة
الذين يُضطرم تعطشهم الشديد للمال او حاجتهم الحقيقية الى ان
يعملوا قسماً كبيراً من الليل . واذا حكمتنا بالاستناد الى قطع

الحلوى التي تباع كل مساء ، يمكننا الاستنتاج ان في بيروت
عدداً كبيراً من الاشخاص العاملين الذين لا يرغبون في النوم
فارغي الامعاء .

ان المسلم ، في حياته الخاصة ، صالح وخير وامين (إلا تجاه
امراته) . انه يأخذ حذره حينما يغادر منزله ويصبح رجلاً
مشككاً .

وسكان بيروت مشهورون ببخلهم ، فالأكثرون حديثو النعمة ،
ولذلك يرجعون الى طبيعتهم الاولى كلما هموا بالتنعم بالاموال
التي وفرتها لهم ثروتهم . انهم يعتبرون ثروتهم وديعة بين ايديهم .
هذا شيء فلسفي . إلا انه ناتج حقيقةً عن تقديرهم الذي طبعوا
عليه . فهم لا يفقهون معنى الترف سواء أكان في لباسهم او على
موائدهم ، او في مفروشاتهم التي تكلمت عنها آنفاً .

يرتدي السوريّ الميسور ، عادةً ، اكثر ما تحتويه خزانته ،
وعليه ان يتحلى دائماً بكل ما يملك من اشياء ثمينة ليظهر للناس
غناه .

اننا نعجب اذ نرى الفنون الجميلة حديثة الميلاد في الشرق .
ولكن اية حاجة لهم بها ؟ فالعرب يعيشون غير محتاجين الى
شيء ، وكل صناعة في بلادهم تكون معرضة للموت .

وماذا نرى في اسواقهم غير منسوجات الصوف ، والحرائر ،
والقطن ، والطرابيش ، والبوابيج ، والغلايين ، وبعض الزجاج
الغليظ ، واخيراً الجبوب التي تأتيهم من المستعمرات . وماذا عند
صيادلتهم غير المواد الطبية البسيطة ، وبعض خلاصات كيمياوية
يعرفها الجميع ويطلبونها لصبغ الاقمشة .

حاول بعض الاوروبيين ان يمدّونا ، بعد ان فتشوا في فهارسنا ، بما نحن في حاجة اليه . وهب انهم باعوا بعض المواد من غير الفرنسيين ، فتشتري على سبيل الفضول ، وليس لانهم محتاجون اليها . ان طريقة استعمالها لا تزال مجهولة عندهم .

ان مسامي مدن سوريا الداخلية هم دائماً ثائرون مهتاجون ، واقل بادرة تمس دياناتهم تحملهم على انفعال متجاوز الحد . ان علاقاتهم الحسنة مع التجار الغربيين قد درّت عليهم كثيراً ، إلا انها لم تعمل ، ولو قليلاً ، في تحوير عاداتهم .

ومع ذلك فلبعض منهم علاقات وثيقة مستمرة بالمسيحيين ، وخصوصاً اذا كانوا ممن يحبون الشرب ... ان للاتراك ميلاً خاصاً لتقليد الافرنسيين في تذوقهم المشروبات . واذا كان الشرب يسمّى مدنية فاني استطيع التأكيد بانهم جروا شوطاً بعيداً في هذا المضمار . ذلك لان رؤية اشخاص يطوفون الشوارع بين خمرتين في تركيا ليست نادرة . فالكحول تباع فيها اليوم جهراً لان السلطة اقتنعت بانها تجني ربحاً باهظاً من سماحها بما ليس في الامكان تحريمه . ان الحمارات قد اُكثرت كلها .

وفي زمن كانت الحجرة فيه محرّمة حظر احد الباشوات ، الذي شاء ان يكون متنطساً ، يبيع المشروبات المسكرة من المؤمنين . إلا ان احدهم لم يكن يستطيع الاستغناء عنها فاتفق له ، وهو ميلاً زجاجته ، ان مرّ الحاكم الذي كان يقوم بدورته التفتيشية ليتأكد من تنفيذ اوامره . فخبياً المولع بالعصير الالهي يديه الثنتين وزجاجته وراء ظهره ، ثم انتصب مستنداً الى الحائط ليقوم بمراسم

الاحترام والاجلال . وكان الباشا ليبيبا من الاشارة يفهم ، فراه وجود الرجل في هذا المكان ، فسأله ، بعد ان سلم عليه ، عن سبب اخفاء يديه ، فأراه الرجل يده اليمنى . فقال الباشا : واليسرى ؟ فأراه اياها ايضاً بعد ان امسك الزجاجاة باليمنى . إلا ان ذلك أكد له ان في القضية سرّاً . فطلب اليه ان يريه كلتا يديه معاً ، ففعل الرجل بعد ان حصر الزجاجاة بين ظهره والحوائط . إلا ان الباشا صرخ قائلاً بعد ان نفذ صبره : تقدم اليّ ! وعندما وجد صديق الحجرة لم يعد بإمكانه التستر ، تناول الزجاجاة وقدمها وهو يقول : انها مملوءة زيتاً . فصاح الباشا : زيت !! وهذا اللون ؟

فأجاب الرجل الظريف : لقد أحمر خجلًا من دولتكم . ان المؤمنين لم يجمعوا عن تعاطي المشروبات بعد التطور الذي حدث في تركيا ، فهم لم يتقيدوا بتحريم النبي للمشروبات المسكرة ، ولكنهم يشربون بتحفظ واحتشام . والسكر آفة قديمة عند العرب . وقد انبأنا احد الكتاب ، وهو مطلع على تاريخهم : « انهم على الرغم من زهدهم في اسباب ترف المعيشة كانوا مولعين بالحجرة والسكر ، وكثيرون منهم ذهبوا ضحية باخوس كالزبير مثلاً . وروي ايضاً ان احدهم تنازل ، لقاء حصوله على زقٍ من الحمر ، عن مقاليد مهمته المرموقة في حراسة

٦ ان هذا العرف يرجع اصله الى الوصية التي أوصاها محمد لعائلته المجتمعمة حوله في مرضه الاخير : اني امنحك السلام ، يا من انتم حاضرون هنا ، واكلفكم ان تمنحوه ياسي الى الغائبين ، واشهدكم اني سامنحه انا ايضاً للذين يأتون بعدي على ممر العصور . (رينو ، مشاهد شرقية ، الجزء الاول ، ص ٢٦٨) .

الكعبة في العهد القريشي . »

وبعد ، فلم اجد في القرآن إلا آيات قليلة أتى فيها على ذكر
الحجرة . وهذه الآيات ، كما يلاحظ القارىء ، لم تحرمها تحريمًا
مطلقاً ، وساورها طبقاً لترجمة السيد بيربستان كاسميرسكي
البارعة :

« يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع
للناس واثمهما اكبر من نفعهما . - سورة البقرة ، ٢١٨ . »
« ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا
حسنًا ، ان في ذلك لآية لقوم يعقلون . - سورة النحل ، ٦٧ . »
« يسقون من رحيق مختوم . - سورة المطففين ، ٢٥ . »

« يا ايها الذين آمنوا ، انما الخمر والميسر والانصاب والازلام
رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . - المائدة ،
٩٠ . »

وهناك اعتقاد خاطيء آخر انتشر بين الاوروبيين ، فهم
يحسبون ان محمداً حرم على النساء الجنة . ولهذا ادونُ هنا الآيات
التي تدل على ان النبي لم يهمل مصيرهن ، وقد اراد لهن النعيم
كالرجال انفسهم :

« ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن
فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً . - سورة النساء ،
١٢٤ . »

« وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار
خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ، ورضوانٌ من الله
اكبر ، ذلك هو الفوز العظيم . - التوبة ، ٧٣ . »

« جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آباءهم وأزواجهم
وذرياتهم، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. - الرعد،

٢٥ . »

« ليُدخل المؤمنون والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار
خالدين فيها ويكفّر عنهم سيئاتهم، وكان ذلك عند الله فوزاً
عظيماً. - سورة الفتح، ٥ . »

الفصل الثامن

اخلاق المسلمات وعاداتهن .

انصف النبي محمد النساء اكثر مما انصفهن الرجال الذين اتبعوا شريعته . فلسن في نظر هؤلاء اكثر قيمة من متاع نافع . واذا شئت ان اوضح بجلاء فكرة ازواج الشرق ، وجب علي ان اقول انهم ينظرون اليهن نظرة الاطفال الى الدمى . وهل ان هنالك ظروفاً اكثر ايلاماً من الظروف التي ترافق دخولهن الى هذا العالم ؟ « واذا بشر احدكم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أمسكه على هون أم يدسه في التراب . - سورة النحل ، ٥٨ - ٥٩ . »

وفي ايامنا هذه يفهم الناس في الشرق من الضجيج او السكون الذي يجيم على غرفة النساء ، اذا كان المولود الجديد صبياً او بنتاً .

فاذا كان انثى خيم الدعر على البيت ومن فيه . ان القابلة هي التي تحمل النبا . وشعور البهجة الذي يثيره فيها ميلاد الصبي ينقل بسرعة الكهرباء . فما ان تسري البشرية في الداخل حتى تعلن في الخارج بالزغردات : لو ، لو ، لو ، تقذفها افواه النساء

١ بما ان النساء يفضلن دائماً وابدأ عن مجتمعات الرجال ، فلم يبق لهن في الاعياد

في المنزل أكثر من مائة مرة ، وعندئذ ينشئ الجميع الاب ،
وتكون سعادة العائلة على اتمها .

ان الفتاة لا تحظى عندهم الا بالثقافة المنزلية . فهي تكس
عندما تستطيع حمل المكنسة التي لا تتجاوز طولاً نصف متر .
واذ يشتد ساعدها ، تستخدم في الغسل والطهي واشغال البيت الاخرى ،
فالولائم العربية تستدعي عدة تجهيزات ، سواء أكان ذلك لدق اللحم في
جرن لتحويله الى معجون ناعم (الكبة) او لقطع اللحم يُمزج
بالارز ، ويحشى به ورق العنب ، والملفوف ، والكوسا ، والبادنجان .
ان ما كلهم الطيبة تقتضيهن وقتاً كثيراً ومجهوداً كبيراً .

اما الشؤون الاخرى فلا تتعلم الفتيات التركيات منها إلا
قليلاً من الحياطة والتطريز على الطراز الشرقي الغليظ . هذه هي
الاعمال التي يشغلون البنت بها . اظن انه لا يوجد بين نساء
المسلمين من يعرفن القراءة . ويزعم الرجال انهم يقللون بذلك من
خبثهن ومكرهن .

ان العادات الشرقية تشجب المخالطات الاجنبية حتى بين النساء .
والمسلمات لا يبحن لانفسهن سوى التمتع بالمسرات التي يمكن منها
المنزل الذي لا يخرجن منه إلا لزيارة نسيباتهن القريبات .
ومع ذلك فعندهن الاستحمام ، فاذا ما فقدنه فقدن اهم اسباب

سوى مهمة تصعيد هذه الاصوات الحادة (الزغردات) من وراء الحجاب الذي يغطيهن .
(رحلة علي بك ، الجزء الاول ، ص ٣٧) . ولما كانت هذه الاصوات المخيفة نوعاً من
الفن والمقدرة عند النساء ، كن ينتهزن الفرص ليقذفنها في الهواء ويتبارزن فيما بينهن سواء
أكان ذلك بجدة الصوت ام بطول النفس . انهن يرسلن هذه الزغردة في مناسبات الولادة
ودخول الحكام الى المدينة .

ملذاتهن . ان ازواجهن لا يمنعهن منه ، لانهم على يقين انه المكان الوحيد الذي لا يتعرض فيه شرفهم لأيّ خطر .
والنساء يذهبن الى الحمامات عملاً بتعاليم ديانتهن التي تقضي عليهن بالوضوء الكامل .

انهن يهينن ، يوم ذهابهن الى الحمام ، كل حوائجهن منذ الصباح الباكر . فيجعلن من المناديل رزماً مختلفة تصلح لعدة شؤون . انها متعددة جداً ، فمنها ما يكون من الحرير او القطن ، ومنها ما يكون مربع الحجم ذا لون ابيض . ان النساء يتلشن باربعة مناديل في وقت واحد : على اكتافهن وعلى رؤوسهن . واذا شئن ان يكنن ظريفات ، ولو قليلاً ، فعليهن تبديلها مرة ومرتين بعد مغادرتهن المنزل .

والوقت الذي يقضيه في الحمام لا يمكن ان ينقص عن ثلاث ساعات او اربع . وهن يأكلن ويشربن في اثناء ذلك حتى ان تدخين الغليون والنارجيلة يملأ فراغاً كبيراً من فترات الاستراحة . ان مشاغل النساء في الحمام عديدة ، فهناك يجتمعن لينظفن اجسادهن بكيس من الشعر الناعم ، ويضعن على رؤوسهن الحناء لتصبح شعورهن ملساء . ثم يدلكن اجسادهن بمادة لزجة مزوجة بماء الورد . واخيراً يتمشطن ويصففن شعورهن ذوائب ذوائب . ولما كن يعتبرن انفسهن عائلة واحدة ، على الرغم من تعدد الاشخاص ، فان هذه العمليات ، لكلٍ منهن على حدة ، تستغرق الوقت الطويل .

وفي الحمام يشتد هذر النساء ولغوهن ، فهناك يلقن بعضهن بعضاً ما حفظنه من حاضناتهن اللواتي كن يدلكن اجسادهن ويغسلنها .

تتألف حمامات الشرق من ردهات واسعة معقودة بالحجر ،
تعلوها قباب تطل منها كوى صغيرة مدورة ، لتستقبل ضوء النهار .
ان هذه الحمامات لا تعرف الهواء مطلقاً لان كل نافذة منها مجهزة
بعدسة من الزجاج .

ومن نزه النساء ايضاً زيارة المدافن ، فهي موضوع تسليتهن ،
بل الطريقة الوحيدة التي تسهل لهن مغادرة المدينة واستنشاق هواء
الجبيل . وهن لا يجمن عن استغلال هذا الظرف جهدن ، عندما
تسمح لهن الحال بذلك . يجتمعن حلقات حلقات حول اضرحة
عائلاتهن يتحدثن او يصلين ، بينما يقوم أحد الشيوخ ، وهو عادة
اعمى ، بتلاوة آيات القرآن عن نفس المرحوم .

يؤكد البعض ان النساء يقمن في اثناء هذا الطواف بين
القبور بالتقاءات لا تكون في اكثر الاحيان بريئة . واذا لم يجدن
الاشخاص الذين يرغبن في رؤيتهم او لم يتمكن من مخاطبتهم ،
فانهن يعبرن عن عواطفهن وافكارهن بتوك باقة زهر ذات رمز
على ضريح الراحل العزيز .

ان طريقة التفاهم بالحركات تؤدي الى خلق مثل هذه البدعة ،
وهي ضرورية نظراً للافتقار الى معرفة الكتابة . فيها استطاع
التعبير عن كل قصد ورغبة في اصغر حجم ممكن . ان الازهار
والثار هي دعامة هذا التفاهم بلا كلام .

يقول السيد روبنسون : ان الحب عند الشعب الاسلامي هو
شعور مجهول^٢ تقريباً ، لان الجنسين لا يختلطان ابداً .

٢ رحلة ، النخ ... الجزء الثاني ، ص ٤٣ .

ان السائحين القدماء لا يؤيدون هذا الزعم الذي يشاركونهم فيه السياح المحدثون ، نظراً لفساد وانحطاط العادات والعرف الناتجين عن ضعف الحكم العثماني الظالم .

ولقد نقل مسرح تركيا افصوصة يصح القول عنها انها مستقاة من تاريخنا الاوروبي . وهذه هي :

« أحبّ شاب تركي ، مرموق النسب ، وافر الثراء ، فتاة عربية بأثثة جميلة العينين على الرغم من استمرار لونها . وبذل اهله كل ما في وسعهم ليحولوا دون هذا الزواج الخزي لعائلتهم ، الشائن لاسرتهم ، فلم يفلحوا . وبقدر ما كانوا يغالون في تصوير انحطاط اصل الفتاة وضعفها وفقرها ، كان فتاهم يزداد لها اشتعلاً بدلاً من ان يخمد . واصروا واصروا ، وهددوا اخيراً بالانتحار اذا لم يوافقوا على هذا الزواج . كان يقول انه لا يستطيع الحياة إلا في قرب هذه الفتاة التي توحى الخوف والكراهية لاهله وذويه . صحيح انه حب بشع ، ولكن هذا الحب كان أعمى . فاضطروا أخيراً ، تداركاً للكارثة المنتظرة ، الى النزول على مشيئته ٣ . »

يقول السيد دي بايسونيل في رسالة حول مذكرات السيد دي توت :

« يزعمون ان الخادمت المستعبدات هن اللواتي يهدن الطرق لمكائد سيداتهن ، مع ان هؤلاء لا يستطعن اكثر من العمل على اخفائها . ان مثل هذه الاعمال غالباً ما تقوم بها بائعات مواد

الزينة التركيات ، او المسيحيات ، او اليهوديات المفتوحة بوجههن
ابواب الحریم ، وهن في كثير من الاحيان يعملن بيوتهن ملتقى
للعشاق لقاء أجر ما . »

والرجل المثري التركي تعرفه من سمته . لقد وجدتُ هنالك
شباباً واسانذة صغاراً ، وضرباً من الناس يسمونهم بالتركية
« زنبر سلبی » . ان في حوزة هؤلاء لائحة باسماء النساء الجميلات
اللواتي يتمتعن ببعض الشهرة ، فهم يفتشون بلا ملل عن طرق
التعرف اليهن وتذوق حبهن وامتصاص ثروتهم وما يملكه .
وكثيراً ما يتباهون بظفرهم بهن ، مع ان شيئاً من هذا لم
يحدث .

« ان مصارحات الحب المتبادلة تم عادة بـ « المعاني » . وهذه
الكلمة المأخوذة من العربية تعني التأويل ، المجاز . وهي تطلق في
لغة العشاق والمتظرفين على الاشياء التي تعني لفظتها رمزاً اتفق
عليه المحبون . »

وفوق ذلك ، أوهل يُظن ان النساء يتعبن او يملن من انزوائهن
المتواصل ؟ لقد جعلتهن العادة الطويلة الامد صالحات لهذه الحياة
حتى بتن لا يرغبن في استبدالها . ان ثقافتهن لا تجعلهن صالحات
لاي عمل آخر .

وعندما تُطلب فتاة ما للزواج ، تكون عادة في عمر الاربع
عشرة سنة او الخمس عشرة . والأب لا يستشير امرأته ولا ابنته ،
بل يكتفي باعلامها انه قال كلمته (وعد) ، وان حفلة العرس

ستكون في اليوم الذي عينه .
ان العروس تجهل غالباً اسم خطيبها . واذا ارادت ان تراه
فلا يكون ذلك إلا من ثقب النافذة ، او خصاص الباب ، او
بصورة خفية في الشارع ، من خلال منديلها الشاشي الذي تضعه
النساء على وجوههن ، والملاءة التي تغطي القسم الباقي من جسدهن
عندما يخرجن .

وفي عشية الزفاف ينقل الجهاز الذي يهبه الاب لابنته في
موكب فخم . يكثر هذا الجهاز او يقل بالنظر لثروة الاشخاص .
وهو يتألف من الملابس وادوات الطبخ ومتاع البيت كالمسرجة
والمقعد ، وحزمة فرائل ، والاشياء الاخرى التافهة الثمن . إن
كل قطعة من هذه الامتعة تُحمل على حدة ليقال ان جهاز بنت
فلان قد نقله كذا وكذا من الرجال .

ولدى وصول هذا الجهاز تستسلم قريبات العريس الى ذوقهن
وتتعالى الزغرودة : لو ، لو ، لو . ويتنعمن بذلك الصباح ساعاتٍ
طوالاً . ان هذا الصراخ ، كما سبق لي ان قلت ، هو ملذة توحى
حب المنافسة عند النساء ، وهذا ما يحملهن على اغتنام كل مناسبة
يظهرن فيها هذه البراعة والتفوق .

اما عقد الزواج فينظمه القاضي بناءً على شهادة انساب
العريسين^٥ . وهو ، اذا ما استثنينا هذه النقطة ، لا يقوم باية مهمة
في النكاح المنوي عقده ، اي لا يكسبه أية صيغة رسمية ، لان

٥ ان الشريعة الاسلامية توجب رضى العروس . ولما كانت رؤيتها مستحيلة وجب
ان يكون الشهود من الذين يعرفونها من صوتها . ولذلك يقفون وراء ستار او حائط
لتقول لهم الفتاة ان ابها هو وكيلها في كل شيء .

الزواج عند المسلمين مدني بحت . وافتقاره لشكل ديني ما لا يفقده الطابع المقدس الذي تغدقه عليه الطقوس الدينية عند غير المسلمين .

والعروس لا ترى عريسها إلا يوم زفافها ، وفي البرهات التي تتمكن فيها من اختلاس النظر اليه . فكل فتاة تحترم نفسها مضطرة الى اغماض عينها خلال سبعة ايام كاملة . ففي هذا الوقت « تصمد » على وسادة بعد ان تقلد كل حلاها ، وتخضع للزينة الخاصة بالمتزوجات الفتيات . وهذا التبرج يؤدي الى مسخ الوجه ، فيصبح كأنه وجه مستعار حقاً ، ثم تدهن اليدان والرجلان العارية دائماً .

ومن يمكنه عند ذاك معرفة وجه انساني من خلال الصفائح المذهبة ، وشتى ضروب الالوان الحمراء ، والزرقاء ، والبيضاء ، والبراقع المتعددة ، وتكحيل الجفون ، وتزجيج الحواجب التي تقوس بتأن ، ثم يعني بان تتلاقى عند اول الانف !.. وهنا يجب ان نعترف ان العلم لم يساهم في اصلاح مقابح العصر ، ولكنه ساعد في انماء مفاعيلها وتقويتها ٦ .

٦ انا نغفر لاكليريكي قام برحلة في القرن السادس عشر شططه وخطأه عندما قال ان حفلات الزواج الاسلامية تجري كما يأتي: عندما يتم الاتفاق بين الفريقين توضع الزوجة في غرفة مع نساء من قرياتها ونسياتها . والعريس الذي يرافقه عدة رجال يذهب اليها ، ويقرع الباب فتصرخ النساء : من تطلب ؟ يجب : اطلب فلانة لتكون زوجة لي . فيجبن : ماذا تقدم لها ؟ فيقول : وما تبغني هي ؟ فيقلن : انها تريد غلامين يقومان على خدمتها ، وكذا كذا مهرآ . وعندما يتفقان على ذلك يفتح الباب فتخرج النساء من الغرفة تاركات العروس وحدها . اما الرجال فيرافقون العريس الذي يدخل الغرفة ويقيم مع عروسه . هذه هي الرتبة كلها . (الاب دنديني ، رحلة الى لبنان ، ص ٦٢) .

ان ذوق هؤلاء الناس غريب جداً الى حد انهم كانوا
يعتقدون ان العروس التي تظهر بمظهر الفتوة الجذابة ولباس
بسيط يخشى ان تُنبذ .

الفصل التاسع

عادات اسلامية . شعر . موسيقى . علوم .

توجب الحشمة على الشرقيين ان لا يتحدثوا مطلقاً عن نساءهم . وعندما يُضطرون الى الاتيان على ذكرهن ، وذلك يكون في ظروف نادرة جداً ، يتوجب عليهم ان يطلقوا عليهن اللقب المصطلح عليه في المنزل . والذين يعتقدون انهم ممن اقرانك وامثالك ، يسمون زوجتهم شقيقتك عند اقتضاء ذكرها ، واذا كانوا اقل طبقة فهي عبدتك ، او أمّ علي مثلاً ، اذا كان هذا اسم ابنها البكر . ان النساء لا يكتنن ابدأً باسما بناتهن . واسماء النساء لا تحذف من لغة المتخاطب فحسب ، بل لا تذكر ابدأً في الشعر العربي . فاذا اراد عاشق ان يتغنى بحبيبه فعليه ان يطلق عليها اسماً غير اسمها ، وان يشبهها بما أعتيد التشبيه به من الكائنات التي ترمز الى الرشاقة او النعومة او المرونة او اللطف .

وفي الاغاني العامية ، نفهم عند سماعنا هذه الكلمات : سمراء ، عيون سود ، قامة هيفاء ، ان المعنى بهذه الالفاظ هو امرأة . فهذه التعابير التي تردد غالباً يقصدون بها في الوقت نفسه رشا من الغزلان او غير ذلك .

ان اجمل مقاطع الشعر هي تلك التي تجيش فيها العاطفة

بجرارة وتسمى « نبوية » ، وان كانت غزلاً ، لانها موجهة الى النبي محمد ، الخليق وحده بهذا البيان الشعري الذي لا يستحقه أي هوى آخر .

وهناك اولاد الفن في سوريا الذين يساون الجماهير باقاصيصهم التي تدخر منها ذاكرتهم الشيء الكثير فتشيع ، حين تروى انشاداً ، لذة عنيفة في القلوب . فهؤلاء المهرجون يغنون أحياناً اذا كانوا من ذوي الصوت الرخيم . ومن ميزة عبقرتهم الخاصة استنباط العبر حتى انهم يقومون بشبه محاوررة لا يستعملون فيها إلا الامثال والحكم .

وعندما يضيق ذرع اولاد الفن ، تعرض العاب الصغار فيشترك فيها الحاضرون جميعهم دون ما تمييز بين العمر وانقام . وهذه هي صورة استطيع ان أويد فيها الفكرة التي سأتناولها فيما بعد عن اخلاق الاتراك المتناقضة ، لانهم ينتقلون بسرعة فائقة من وقارهم الطبيعي الى الالاعيب الصبانية ...

الموسيقيون نادرون جداً في بيروت ، ومن وقت الى آخر نرى بعضهم يقومون بجولة في الجبل ليمتعوا الاهالي بفنهم . اني لا استطيع ان اشبع منهم القارىء حين اتحدث اليه عن حالة الموسيقى في هذا البلد إلا اذا نقلت له ما كتبه رحالة مثقف توافرت لديه عدة عناصر مكنته من اصدار حكم صحيح عليها . فكلامه ، في اعتقادي ، وبدون اي مبالغة ، يصورها لنا تصويراً صادقاً . فالموسيقى في الشرق مرت في اطوار تختلف كل الاختلاف عن احوالها في ايامنا هذه . فعلينا اذن ان نعتمد ان هذا الفن قد عانى من البلايا ما عانته جميع الفنون الاخرى ، فقوضت

اسمها ومسخت انواعها ، قال :

« ان الموسيقى التركية ، على الرغم من انها شبيهة بالموسيقى العربية ، لمي احسن تنسيقاً منها ، لاننا نجد فيها على الاقل بعض الايقاعات الموفقة الحتام . فأحد الباشاوات ، وهو قائد عثماني مركزه الاسكندرية ، كان يتكرم عليّ بايفاد جوقته الموسيقية كل ستة ايام او ثمانية ، وهذا ما يمكنني من الحكم على الموسيقى عندهم لانني عرفتها بنفسني .

« ان جوقة صاحب الدولة تتألف من خمسة موسيقيين ومدير يرافقها دائماً . اما آلات العزف فأربع فقط ، وهي : السنطير الذي يُنقف ويضرب بقضبان صغيرة ، وقد نظمت أوتاره الوسطى بطريقة تؤدي بها اوتار الجهة الشمالية النغم الثامن موافقة لما تخرجه الجهة اليمنى .

« والكمنجة ، وهي مجهزة بستة اوتار تؤدي اربع درجات من السلم الموسيقي المعروف عندنا . ثم نوع من المزمار ذو نغم حلو يشبه البوق الانكليزي . واخيراً دفّان صغيران يخرجان ، كما هي الحالة في اوروبا ، النغم الخامس عوضاً عن النغم الرابع ، وهما يُنقران برفق باطراف الاصابع . اما الموسيقي الخامس فانه يعني فقط ولا ينقر أية آلة ١ .

« كلما اتتني هذه الفرقة كان يبدأ مديرها بعبارات المجاملات

١ من ضروريات الموسيقى العربية ان يرافق الدف المغني . وازيد على ذلك ان كاتب هذا المقال اخطأ حين قال : ان الدف كان ينقر بالاصابع . انهم يستخدمون لهذه الغاية عيداناً دقيقة . - المغرب : وازيد انا ايضاً ان كليهما قد اصاب ، فالدف ينقر بالاصابع وغيرها ، فكل من الرحلتين قد وصف ما شاهد .

من قبل مولاة . اما الموسيقيون فكانوا يجلسون بشكل نصف دائرة على الارض وعلى رأسهم المدير .

« ان آلات الطرب كانت مصلحة من قبل . ولدى اشارتي كانوا يبدأون بعزف مقطوعة متزنة الايقاع ، فتتبع احدى آلاتهم اللحن المطوب . اما الاثنتان الاخرتان فكانتا في هبوط متواصل ، تعزفان لحناً آخر . اما الدفان فكانا يتوقفان . واذا اغتفرنا لهم بعض الخلل ، قلنا ان عزفهم كان جميلاً في بعض اقسامه . وبعد ذلك كانوا يبدأون بعزف لحن آخر فيشترك فيه الدفان الصغيران . وهنا كانت الاصوات وانغام الآلات الموسيقية تقوم بجهود خائبة المسعى ، فلا يطابق بعضها بعضاً ، فتدفع اذ ذلك اذناي المسكينتان اللتان تعودتا سماع موسيقى صحيحة ، ثم المسرات التي تنعمت بها في اوروبا . وبعد مرور ربع ساعة على هذه الضوضاء المشوشة كان يتوقف الغناء وتظل الآلات تصدح . ثم يتوقف الدفان ليعودا الى نغم مماثل للاول . وعند انتهاء هذه المعزوفة كان الموسيقيون يؤدون لي تحيتهم ، وهكذا ينتهي المشهد الاول ٢ .»

عند حدوث بعض الظواهر الجوية ترى الشعب بأسره يضج ويصخب ، فاذا ما خسف القمر او كسفت الشمس ترى سكان البلاد جميعاً يصعدون الى سطوح منازلهم يقرعون أو انبهم النحاسية ، ويدقون الاجراس ، ويطلقون عياراتهم النارية ليفزعوا الحوت الذي يهدد الكوكب بالابتلاع .

ان الموسيقى الاكثر انتشاراً والاشد صخباً هي الموسيقى

المؤلفة من مزامير وطبول ضخمة . فهذه تُسمع في الافراح العامة ،
والاعراس ، ومولد الصبيان ، وفي كل مناسبة يراد فيها اظهار
الفرح . اشار احد السائحين الى ان المسلمين لا يلجأون الى مثل
هذه الموسيقى الصاخبة في جوامعهم ، ثم علق على ذلك بقوله : لعلمهم
كانوا يخافون ازعاج الاب الازلي ^٣ .

والفنون الجميلة ، ولا سيما الشعر ، لم تُعر اهتماماً اكثر مما أُعير
الجنس اللطيف في هذه البلاد . فهناك بعض نظامين يعملون
من وقت الى آخر قطعاً من الشعر يصفق لها الجبهة لان قوافيها
واتساقها تستفزهم . وقد علمت ان هذه القصائد الاكثر تداولاً
هي في الغالب ركيكة العبارة ، غير معربة ، لا تستطيع ترجمتها .
مع ان اللغة العربية لغة شعرية يُستطاع النظم فيها بأسلوب يسحر
الالباب نظراً لفخامة تعابيرها وموسيقى الفاظها .
ان « المواويل » التي تُغنى تجري جميعها على سياق واحد ،
وكل مقطع منها يشبه الاغاني التي يرجع فيها الى اللزمة . وهي
مفككة المعاني ولا ارتباط بينها .

قد نجد بعض الكتب العربية القديمة عند العلماء المعاصرين ،
ولكنهم لم يقتنوها إلا ليتمتعوا بمظاهر العلم ليس اكثر . واعتقد
اننا لا نجد في بيروت اكثر من شخصين يتمتعان بذوق علمي ،
او كفاءة ثقافية ، ومن هنا نشأ جهل الحوادث التاريخية الاكثر
تداولاً وبساطة .

ان الشيء الاكثر غرابةً وطرافةً هو الحدث الغريب في نظر

٣ علي بك ، رحلة ، الجزء الاول ، ص ٤٧ .

الرجل العادي ، ولهذا تراهم لا يدونون ، اذ يؤرخون ، إلا
الحوادث التي رافقتها بعض الحوارق ، فهي ، وحدها ، تستحق ان
تخلد للاجيال الآتية . ولذلك لا يجوز في نظر السوريين الحصفاء
ان يكون الحادث البسيط، الذي لا يوحى شيئاً غريباً ، موضوعاً
لمباحث الحاضرة والمقبلة .

الفصل العاشر

اخلاق المسلمين . معجزات الروم . قدر . تعاليم دينية . تسول .

كتب قنصل فرنسي ١ في مؤلف غفّل : ان الاتراك شعب يجتمع فيه النقيضان . وصوّرهم ترجمان ٢ احترف مهنتنا تصويراً لم يترك مجالاً للرغبة في الاستزادة ، قال :

« ان اخلاق الاتراك في تناقض مستمر . انهم كلفون باللذات ، ومظهرهم عسكري فظ . قساة على انفسهم ، جفاة ، يعيشون عيشة رخوة ترفة . يرتجفون لافل بادرة مشؤومة ، ويستصغرون الطواريء الجلّسى التي قد تحدث في الحياة . شجعان حتى التهور ، وجبناء حتى الضعف ، فخررون بانفسهم ومتغطرسون يزدرون كل شيء ، ووضعاء وسفلة اذلاء . بجلاء ومسرفون في وقت معاً ، رحماء وطغاة ، غالباً ما يزدرون حياة الانسان ، ثم يرون في اغائة ابشع الحيوانات فضيلة دينية ٣ . »

اجل ، اننا لا نزال نرى ، كما كانت الامر في زمن كاتب هذا المقال ، بعض المتعبدّين الذين يوزعون الحُبز والاكباد على الكلاب والهررة .

١ دي باسونيل .

٢ ش . ديجون ، وقد توفي في قبرص .

٣ اراء تاريخية في السلطنة العثمانية ، ص ٧٠ .

ويعزو ألبوس عباسي Elios Abesci^٤ كراهية بعض المسلمين
لمبدأ افناء الحيوانات الى فلسفة فيثاغور، مع ان ذلك هو احد
تعالم القرآن .

اننا نجد عند شعوب الشرق عدداً كبيراً من المناقضات
الاخرى نلمسها عندما نقابل بين عرفنا وعاداتنا ، وعرفهم
وعاداتهم .

على ان القارئ لا يلاحظ منها إلا ما تلفت غرابته النظر .
ولكن، فليعلم ان هذه القاعدة يمكن تطبيقها بصورة عامة . وسأقدم
عدداً لا يحصى من الأدلة في سياق مشاهدي ، واليك منها الآن
ما يتعلق بالرسميات .

عندما يريد شخص منهم ذو مكانة مرموقة ، القيام بزيارة ،
عليه ان يتناول جبهته ، التي يحملها خادمه تحت إبطه ، ليتسربل
بها فوق ملابسه حين يدخل فيبدو اكثر ضخامة وتسترأ ، بينما
نحن نضع ، في مثل هذا المقام ، الرداء او البودوسه في
الايوان .

انه يقوم ، عند دخوله ، بتحريك رجله ليخلع حذاءه ويتركه
على الباب . اما نحن فنستعين بيدنا لنرفع قبعتنا ، ونحني رأسنا
علامة الاحترام .

والشرقيون يستعملون عند الالتقاء الاول عبارات تبجيل
وتعظيم مبتدلة لا طعم لها ، ثم لا يأتي ذكر الغرض من الزيارة
إلا بعد القهوة . اما عند الاوروبيين فانه يبدأ تواءم بموضوع

الزيارة . والاستعلامات الخاصة او العائلية لا تكون إلا بالنسبة
للعلاقات القائمة بين الزائر والمزور .

لا يوقع الاتراك رسائلهم وسنداتهم وان كانوا يحسنون الكتابة .
فالاسم يطبع على الرقعة ، وذلك شأنهم في الالتساب اذا توافرت
لديهم . اما ما يثبت^٥ صحة وثائقهم فهو الخاتم^٦ . والسلطات
هي التي تستعمل الخاتم بوجه خاص ، وبه تكتسب كتاباتها الصفة
الرسمية . ان بعض الخاصة من الاتراك يكتبون بوضع اسمائهم
واسماء عائلتهم ، اذ يرون في استعمال الخاتم مظهراً من مظاهر
الادعاء .

وبما ان الشرق لا يحسن إلا قليلاً استعمال اسماء العلم ، فقد
نتجت عن ذلك عدة اخطاء واختلاطات . فالاسماء المتشابهة كثيرة
جداً . وهذا ما حملهم على استعمال اسماء عديدة تكاد تكون اسماء
ذرية بكاملها .

يتميز الكثير من الشرقيين باسماء مهنتهم . وكثيراً ما تكون
تلك الاسماء سمجة . لا يستقبح في الشرق ، مثلاً ، ان ينتسب
احدهم الى اعور او كسيح او احدب او مقطوع اليد . وفي
اكثر الاحيان ، يضيفون اسم الاب الى اسمهم الخاص ، وهذا ما
يطبق في كثير من البلدان حتى الاوروبية منها ، وعندئذ يكون

٥ ان الخاتم والكتابة لا يكسبان التعمدات صفة قانونية ، ولكنها شهادة الملمين
هي التي تجعل للعقد صفته الرسمية الشرعية .

٦ ان طفرات العرب هي بالحقيقة ما نسميه نحن اختاماً ، وهي تثبت صحة
الامضاءات ، وتستخدم ايضاً عند جهل الكتابة . ويعزى اختراعها الى أهالي سبارطة
(دائرة العلوم والمعارف ، الجزء الاول ، ص ١٨٥) .

علي هو ابن حسن ...
أو هَلْ يُقال ان الشعب المتأخر هو وحده ذو الاعتقادات
الباطلة؟ ان الرجال الذين حرموا الثقافة لا همّ لهم إلا اقتفاء
آثار غيرهم . فليس الذنب ، إذن ، ذنب هؤلاء ، ولكن المسؤولين
عنهم ، اي كبارهم ، هم المذنبون ، فهم الذين يرسّخون في أذهانهم
هذه الاوهام والنقائص .

ترى ، هل الشعب الساذج هو الذي يؤلف تلك الحلقات التي
يردد فيها الرجال ، وهم وقوف بشكل دائرة ، كلمة : الله ! الله !
ويظنون يفعلون ذلك حتى تتلاشى قواهم وتختنق أصواتهم ، ثم
يستأنفون العمل بانغام موقعة على انحناءات الجسم ، ذات اليمين
و ذات الشمال ، والحلف والامام ، مرددين غناء الشيخ الواقف
خارج الحلقة ؟ وعندما يغادر المدينة درويش ، اشتهر بالتقوى ،
ليقوم بزيارة احد المزارات في الضواحي - وعند المسلمين اماكن
عبادة في اكثر النواحي - نرى الشعب يسارع الى لقباه ليرتمي
تحت نعال فرسه حائلاً بينه وبين وطء الارض ، فيمر على اجساد
هؤلاء المؤمنين الذين يتقبلون البركة من اطراف قوائم الحيوان
الاربع .

ان اشراف المسلمين يدعون ايضاً صغارهم للتهافت على هؤلاء
الشيوخ لانهم يرغبون هم ايضاً في الاستفادة من المناسبات المؤاتية .
اني لم احاول معرفة المقدار الذي تحتله السعادة في هذه
الانواع من المعجزات . ولكن يجب ألا نعزو كل شيء الى التعصب .
ومع ذلك فلم تكن تهمني معرفة الاساليب التي تتبع في تمثيل
هذه المهزلة .

رغبتُ في ان اشاهد معجزة كانت تحدث كل عام في دير
للروم قرب طرابلس . إلا اني عندما علمت انها ناتجة عن تفاعل
اشعة الشمس ، التي كانت تنفذ من ثقب طاقة مغلقة الى الكنيسة
الشديدة الظلام ، احببت ان ابين ذلك للذين كانوا يعتقدون بانني
سأرجع عن ضلالي واهتدي الى دينهم القويم فور رؤيتها . إلا ان
ذلك كله لم يجديني نفعاً ، فكل ما قلته لهم قد جعلني في اعينهم
اشد الحاداً وكفراً .

ان القسم النفساني في الديانة المحمدية المتعلق بالرضوخ لاحكام
العناية هو جدير حقاً باعجاب الفيلسوف . فتسليمهم لمشيئة الله
يبدو بوجه خاص في أجلى مظاهره حين انتشار وباء الطاعون ،
فهم لا يتزحزون ، بل يثبتون في وجه الخطر الذي يهددهم مهما
يكن عدد ضحايا هذه الكارثة .

أنبأني مسلم اعرفه ان عائلته كلها اصببت بهذا الوباء . وعندما
طلبتُ اليه ان يخطا للامر ، أجاب : لن يصيبنا إلا ما كتب الله
لنا . ثم عاد الى منزله ولم يبرحه بعد ذلك ، كأنّ هذا الانقطاع
هو اتقاء الخطر .

أوليس بإمكاننا ان نعزو هذا الانقياد الاعمى او هذه اللامبالاة
الى الجهل اكثر منها للتقوى ؟ انه يجب علينا ايضاً ان نتهم
الحيلة التي تعمل عملها الخطير في هذا المضمار ، فاننا لا نخشى خطراً
نجهله .

ان الشواهد المتعددة على الاشخاص الذين ينجون من الطاعون
رغم توافر عناصر العدوى التي تعرضهم له ، والشواهد الاخرى على
عدد كبير من الرجال لم يموتوا بعد ان اصابوا به ، هي التي

مكنت في محيلتهم الاعتقاد بالقدر ، هذا الاعتقاد الذي جعل الجهل جذوره راسخةً في النفوس ، ثم عمل باستمرار في تقويتها . ولا ننسَ ما في طبيعة الرجل العامي من الميل الى تجسيم ما يكون صغيراً بجد ذاته وتكبيره .

قال دوسون : « ان فكرة القدر تركز عند المسلمين على ثلاث دعائم : ١ - ان الاصطفاء لا يتناول إلا الحالة الروحية ، ٢ - انه لا ينطبق على جميع الجنس البشري ، بل على فئة خاصة من القانتين المصطفين ، حتى من قبل ولادتهم ، ليكونوا في طبقة المختارين او المرذولين ، ٣ - انه لا علاقة له بالطبقة الاخلاقية والمدنية والسياسية ، فالرجل ، وفقاً لمبادئ هذه الديانة ، لا يجرم ، في اي تصرف من تصرفاته ، من ارادته المطلقة ^٧ . »

ليس مسلمو سوريا ملحدين كالأتراك ، فهؤلاء لم تتوافر لهم اساليب التنوير نفسها لان جميع المؤلفات الدينية مكتوبة بالعربية . ومن الجائز ان يكون الأتراك مفكرين الى قوة الارادة ايضاً . فعدم مبالاة الأتراك باعتقاد عرفوه مستحيلاً ، واعتناقهم مذهباً لم تتضح فيه الاعتقادات الباطلة جعلهم يشتمون أولى خطواتهم نحو الحضارة . لم يبالوا بتحريم الخمر فشربوها واكثروا من شربها . وها هم يفرقون بين الشرب على الطريقة التركية والطريقة الفرنسية المعتدلة .

حكى عن شخصين كانا يتحدثان في مقهى عن تفوق الاوروبيين على الشرقيين . ولما كانا يحاولان اكتشاف ذلك ، قال احدهم

٧ مشهد عام عن السلطنة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٦٧ .

لآخر : أرتعلم كيف يتلقن الفرنسيون العلم ؟ .. باث يشربوا كثيراً .

فأجاب الثاني : ها ، ها ! اذن ما علينا إلا ان نقتفي آثارهم .
اشرب . ثكلتك امك ! لنكن علماء .

وحاول شريفٌ نيل قسط وافر من الثقافة ، فشرب حتى سكر . ولما رآه احد اصدقائه على تلك الحال ، قال له : انه لمن قلة الادب والحشمة ان تظهر بهذا المظهر بين الناس .

— اني اسير على الطريقة الافرنسية ! نعم ، الطريقة الافرنسية !
وليس لاحد ان يقول لي شيئاً .

ان اوهاماً كثيرة عند العرب قد خلقتها عقلية الشيوخ المحشوة بالمعالطات . ومن هذه الاوهام الزعم بتأدية الحساب في الآخرة . وقد فتشت عن اساس لها في الدين ، فلم اجد . قال لي مسلم غني انه يرجو خيراً كثيراً في العالم الآخر ، لانه لاقى كثيراً من الاذى في هذا العالم . ولذلك يترجى ان يعتاض عنها بميزات سماوية في العالم الثاني .

وبناء على هذا المعتقد ، لا يتردد المسلمون في خدع ادارات الحكومة التي يعتبرون انها أسست بصورة غير شرعية ، كما انهم يرون دواوين الجمارك ، على الاخص ، مؤسسة بربرية . فكأنهم يتفوقون في هذا مع بعض مؤلفي علم الاخلاق والاقتصاد ، في اوربا المتنورة ، الذين لا يشجبون اعمال التهريب وحسب ، بل يرون في المهربين اشخاصاً يعملون للعمران العام^٨ ، ولا يرون

٨ ساي ، بحث في علم الاقتصاد العام ، الطبعة الثانية ، ج ١ ، ص ٢١٣ .

معاقتهم عدلاً لانهم يعملون عملاً بريئاً بجد ذاته .
وعلى رغم المشقات التي يكابدها السوريون للحصول على القوت
الضروري ، فانهم يعدّون العدة لصوم رمضان ، والقيام بالحج ،
ناهيك بالصلاة التي يقومون بها على أكمل وجه .
صحيح ان ذوي الغنى واليسار يوزعون صدقات جمّة خلال
هذا الشهر الذي يتقشفون فيه . إلا انه يجب ان أعيد القول ان
أعطيات سكان بيروت ، المفرطين في التقدير ، لا تتناسب والحاجة
التي يشعر بها الناس في هذا الشهر المكرم .

اما فيما يتعلق بالحج الى مكة فالذين لا يمكنهم الحج ركوباً
يحتجّون مشياً على الاقدام . انهم لا يجرمون وسيلة لتأدية هذا
الفرض ، فاما ان يعملوا في تمهيد الطرقات ، او في سياسة مطايا
الحجاج وخبولهم ، او في نوع آخر من العمل كخدمة الحجاج
مثلاً .

والسوريون ، نظراً لجهالتهم وقصر نظرهم ، يقومون بالحج دون
اي هاجس او صعوبة ، حتى اذا لم يحل حادث بينهم وبين العودة ،
وهذا قليلاً ما يحدث ، فانه يخيل اليهم انهم رجعوا من بلد غير بعيد .
وهذا كل شيء .

وعلى الرغم من ان كتاب « جيل بلاس » لم يترجم الى العربية
فان متسوّلي هذه البلدان يحسنون كل ضروب حيل التسوّل * .
فهؤلاء الشياطين المساكين يتكفون غالباً بعد موتهم اكثر ممّا

* يظهر ان المؤلف لم يسمع بما كتبه الجاحظ عن حيل هؤلاء قبل « لوساج »
في « جيل بلاس » وغيره . - العرب .

يتركه بعض الاشخاص الذين يعدون من طبقة الاغنياء . اما
كيفية ظهور هؤلاء الشحاذين فهي فن قائم برأسه .
حكى عن احد هؤلاء المتسولين ، وقد كان ضريباً تدل
مظاهرة على فقر مدقع ، انه حفظ طائفة من العبارات المؤثرة ،
فكان يلقيها دائماً في آذان المارة لتروق قلوبهم ويتحننوا عليه .
كان يقف للناس في اماكن معلومة ، في احسن مواقع
المدينة ، حتى اذا ما هدأت الرجل أخذ يتمشى في الشوارع وفي
يده سبجته . وحامت حوله الشكوك فبُحث عنه ، فعلم عنه انه
في غنى عن التسول ، ولكن هي العادة تحتمل عند مثل هؤلاء
مكانة كبيرة فيجعلون منها طبيعة خامسة . وهم يشبهون الشحاذة
بالكيميااء^٩ .

وكان هنالك شخص ، يراقب هذا الشحاذ الطاعن في السن ،
فعرف انه يضع كنزه في عمامته ، فتحين فرصة يكون فيها وحده
في منعطف الشارع لينتزع عن رأسه تلك العمامة . ولم كانت
دهشته عظيمة عندما وجد فيها زهاء خمسة آلاف قرش .
بكى الشحاذ الضريب وظل يعوي حتى يس من معرفة مغتصبه ،
لان احداً لم يره . ورأى السارق تفجع المتسول ، بعد مضي وقت
قليل ، فرقّ حالته ، واشترى له قطعاً من الحلوى الرخيصة ، وقدمها
اليه قائلاً له : كل ، يا صاحبي ، فانها تعينك وتقويك .
وادرك الضريب من الرائحة التي تصاعدت الى منخريره أن هنالك
اكلاً شهياً ، فذاب شكراً وامتناناً لمن أحسن اليه .

٩ مثل عربي : ان الكيمياء هي عند العرب اسمى العلوم .

وشرع يأكل . ولكنه انتفض بعد مضغاته قليلة ، وامسك
بالرجل صارخاً : « الى السارق ! ليوقف السارق ! هذا هو الذي
سلبني مقتناي . »

فترا كضت الجماهير على الصراخ ، وسألوا الضير كيف عرف
هذا الشخص ، فأجابهم : لم يخامرني أقلّ ريب في انه هو الذي
سرقني ، لاني وجدت صعوبة في ابتلاع هذه الحلوى التي اشتريت
بمالي ...

يحتج المسلمون للبخل والبخلاء بالكلمة القائلة : ان النعمة التي
يمنّ الله بها عليهم ليست لهم ، فما هم سوى مؤتمنين عليها .

الفصل الحادى عشر

عادات المسيحيين.

قلت في الفصل السابع ان المسيحيين اتبعوا عادة الاوربيين في احياء السهرات ، كما اقتبسوا منهم عادة القيام بالزيارات دون ان تشرك النساء بهذه الاعمال المؤنسة الا اذا كنّ من اقارب الزائرين او بين ازواجهن إلفة شديدة . ان هذه الضروب من اللياقة تتركز على المبادلة فحسب .

اما المسلمون فيخبتون نساءهم لان القرآن جعل لهم من ذلك سنة . والمسيحيون قد يأتون ذلك تقليداً لهم ، لان عاداتهم هي بالواقع شبيهة بعادات المسلمين . ان للنصارى اوهامهم وتعصبهم ، وان كانوا ذوي كفاءة في العلوم التي يظهرون فيها تفوقاً . وقد لمست هذا التفوق في الاعمال الفكرية ، ولاسيما الحسابية منها ، بوجه خاص . ويظهر لي ان المسلمين لم يخلقوا لهذه العلوم . ولهذا نرى المسيحيين يشغلون مراكز امناء السر ، والمفوضين ، وامناء الصناديق .

ان الاسرائيليين دللوا على الاسبقية في علم الاقتصاد ، وقليل هم الباشوات الذين لم ينتقوا صيارفتهم من الطائفة الموسوية . وعلى الرغم من ان الكتب هي نادرة الوجود في الشرق ، فالمسيحيون يملكون الكثير منها ، فيتعلمون دروساً نافعة ، فتمسوا

اخلاقهم .

والمسيحيون مدينون بثقافتهم الى مخالطة الاوروبيين ، ولا سيما المرسلين الذين يقيمون بينهم ، ويزورونهم بصورة منظمة .
وتواريخ سوريا تنبئنا ان مسيحيين كثيرين مثلوا دوراً هاماً في الحقل السياسي . وهذا يجب ان لا يُدهش في بلاد كل شيء فيها متأثر بالرشوة . ولكن التاريخ يعلمنا ايضاً ان هؤلاء الرجال لم يكن لهم من العمر الا ما يكون للشباب ، تاركين لعائلاتهم الذكريات المؤلمة .

ان موقف المسيحيين هو من اتعس المواقف في تركيا على الرغم من التحسينات التي شعروا بها بعد اعمال الاصلاح التي قام بها السلطان محمود ، والتي اكملها السلطان الحالي ، وذلك لانهم يفتقرون الى زعيم يلجأون اليه ويحتمون به .

ان افتقار الناس الى ظهير ونصير في هذه البلاد قد حملهم على السعي احدث وراء نيل الحماية الاوروبية . وهكذا ، فان اجمل حلم يمكن ان يتصوره عربي هو الاحتماء في ظل احد القناصل . ولكن قليلون هم من يرغبون في ذلك ، رغم الرغبة المتبادلة التي تظهر عند ملتصبي الحماية والسلطات الحامية الراغبة في تنمية عدد هؤلاء . فالسلطة التركية ، التي لا تتنازل الا مكرهة عما لها من حقوق على رعاياها ، تخلق ما تستطيع من العراقيل لتحول دون منح الحماية الاجنبية .

فاول امتياز يحصل عليه الجباة المشمولون بالحماية هو ان يُعفوا من دفع الضرائب ، مع انه يجب ألا يستفيدوا الا من الاجراءات التي تكفل لهم حرمتهم دون ان تلحق ضرراً بالحزينة . ان الحماية لازمة اذا

كان القصد منها دفع الظلم والجور .
اننا لا نفهم الدافع الذي حمل على اعتبار من هم في خدمة القناصل
والتجار الاوروبيين غير خاضعين لمحاكم سلطتهم ، ما لم نعرف اولاً هذه
البلاد معرفة دقيقة . كان ينبغي تجريد هذه السلطة من كل حق في
ملاحقة من تعودت ان تعاملهم بقسوة بربرية . وهذه الامور كان يمكن
تغييرها لو عدلت الدول عن الامتيازات المكتسبة بقوة المعاهدات
والعرف ، واعلنت وجوب تمتع تركيا بالحقوق التي تتمتع بها بقية
الشعوب في البلدان الاخرى . ولكن هذا يؤدي الى تقويض التجارة
الاوروبية في سوريا ، فهي لا يسعها الاستغناء عن العمال المسيحيين ،
ابناء البلاد ، كما انها لا تجني منهم نفعاً مجدياً اذا لم ينعموا بالعصمة
القديمة نفسها . وهكذا يصح قول المثل : السلطة تصيب التاجر اذا
ما ضربت السمسار .

الفصل الثاني عشر

عادات المسيحيين ايضاً . انها تختلف قليلاً عن
عادات المسلمين . ملابس النساء . اتباع العادات
الشرقية . اوهام . تقشير . حيل اثناء الاكل .
غنى عام . الولوج بالبناء . الاعراس .

يدهش الاجنبي الذي يزور سوريا اشد الدهشة عندما يلاحظ
ان المسيحيين (الرجال منهم) لا يختلفون عن الاتراك الا
بملابسهم الاشد سواداً من ملابس اولئك . ذلك بان النساء عند
كلا الجانبين يرتدين ثياباً لا اثر للتأنيق فيها او الهندام . ان
جسدهن يلفه نوع من الملاءة ، ووجهن يغطيه منديل عملاً بالاية :
« يا ايها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن
من جلابيبهن ذلك أدنى ان يعرفن فلا يؤذين . - سورة الاحزاب ،
آية ٥٩ . »

ثم ان الكشف عن قدم جميلة محرمٌ على نساء الشرق . فعليهن
ان ينتعلن جزمات عريضة او بوابيج مستديرة الشكل . وهذا ما
يُضطرهن الى الاستعانة بحرق عتيقة يلفقنها حول القدم ليستطعن
بها سد فم اللستيك (خف بدون نعل) واحكام البوابيج (سندال)
في اقدامهن .

ويلاحظ ان النساء يتجهزن بما هنن في حاجة اليه دون ان
يلجأن الى الاسكافي ليأخذ القياسات المختصة بارجلهن . واطن ان

الاتساعات المختلفة التي تفرضها مراحل العمر، في اطواره المتعددة ،
غير موجودة ايضاً . انها بعد ان تنمو نمواً كاملاً ، تخضع للقياس
عينه ، سواء أكانت سمينة ام رقيقة ، طويلة ام قصيرة . ان الدين
الاسلامي يعفيهن ، كما نرى ، من سجن احذية الاسكافي .
اما المسيحيون ، فيبدو انهم اقتبسوا عاداتهم عن كتبنا المقدسة
ايضاً ، وهي العادات التي ترجع عندنا وعند المسلمين الى اصل
عبراني : حجر النساء ، فصلهن عن الرجال في المعابد ، اجبارهن
على البقاء محجبات .

اصبحت هذه العادات فرضاً على جميع النساء اللواتي يسكنن
هذا البلد ، حتى ان الافرنسيات اللواتي ولدن في سوريا ، وكن
مجهرات على التقيد بهذا العرف ، اضطرن الى اتباعه ، ولكن
ضمن نطاق محدود ، وفي علاقاتهن مع ابنا هذه البلاد الذين يعدون
كل مخالفة لعاداتهم خزيماً وعاراً . فكل من يظهر امامهم بغير
المظهر الذي اوجبه عاداتهم يرتكب جريمة بخروجه على قواعد
الآداب واللياقة .

أفلا نشمئز نحن في اوروبا ممن يخرج على دائرة تقاليدنا ؟ اننا
نترك هذا الاثر نفسه في نفوس المسلمين ، بل اشد منه كثيراً ، لان
الشريعة الدينية هي التي نظمت كل شيء عندهم ، فكل اذاة تلحق
باحد احكامها تصبح جرماً فظيماً ومدنساً لِقُدسيّاتها .

وبناء على هذا ، اراني لا استنكر ابداً اعمال نساينا اللواتي
يجدن انه من اللياقة ان يرتدين ملابسهن على الطريقة الشرقية ،
او يتبعن بعض العادات المحلية ، ولكنني لا ارتضي ابداً ان تتشرب
نساؤنا المتمشقات هذه الاوهام التي لا تحصى ، اذ يستحيل عليهن

ان يحافظن ، بعد ذلك ، على تقاليد حضارتنا الاوروبية .
ان الاوهام كثيرة الانتشار في سوريا . وبما ان البيروتيين
ليسوا بالشعب الاشد ذكاء من غيره في هذه الولاية ، فقد تأصلت
هذه الاوهام في عقولهم بسهولة فائقة . فمن اوهامهم وخرافاتهم
مثلاً : اذا اردنا ان تصل رسائنا الى اصحابها يجب علينا ان
نرميها على الارض ، لا ان نسلمها يداً بيد الى ساعي البريد او
الرسول . واذا قطعنا جزءاً من طرف ورقة السند فهذا يعني اننا
ننوي الايفاء كاملاً . واذا شئنا ان نسر شخصاً بان نهدي اليه
منديلاً فلا بد من ان نغزق ، ولو قليلاً جداً ، احد اطرافه .
ولكن هذه الخرافة لفظت انفاسها الاخيرة لما صار تطريز حواشي
المنديل علامة التكريم والترف .

اما اذا اراد شخص ان يكتب اليك وينسبك بخرج موقفه ،
او الخطر الذي يحدق به ، فانه يحرق احد اطراف الرسالة قبل
ارسالها .

والبيروتيون يحتلون المكانة الاولى بالتقدير على انفسهم في
جميع ضروب المعيشة . إلا اني بعد ان تعرفت باهالي حلب اقول ،
اعترافاً بالحقيقة ، ان سكان بيروت يتخلون لهؤلاء عن الاولوية ...
ان سكان بيروت يضيفون ، بصورة متصلة ، ابناء الجبل
ورجال الاساكل الذين تجتذبهم اعمالهم التجارية الى مدينتهم ،
لان الاهلين في الشرق هم الذين يهتمون بايواء من يأتي راكباً او
على الاقدام بناءً على كتاب توصية يقدمه . وهذا ما يتعب
ويدعو الى النفقات مهما تكن منزلة الشخص . وهكذا نجد في
كل بيت تقريباً عدة أسرة معدة للنزلاء .

اما ما يلام عليه البيروتيون فهو انهم يحاولون ان يجعلوا من
البخل فضيلة . فأطيب الاحاديث على موائدهم هو التحدث عن
منافع الافلال في الاكل . وهم ينتهزون فرصة الجلوس حول
المائدة ليفيضوا في التكلم عنها مع ضيوفهم ، حتى اذا كان هؤلاء
من ذوي القابلية العنيفة يشعرون في الحال ان الافلال من الطعام
واجب ونافع . وقد يتحدث صاحب الدار عن الضائقة الآخذة
بالخناق ، ويأخذ بالتشكي والتأوه ، ثم يباليغ في شكواه ليدل
على قيمة كل لون من الوان الطعام ، لا بل على ثمن كل لقمة ،
وكانه يقول لمؤاكلة : « ان اللقمة التي تضعها في فمك تعود عليّ
بكذا بارات ! »

وعندما لا تسفر هذه الطرق عن النتائج الطيبة فصاحب الدار ،
الذي يمكنه ان يعتمد اساليب اخرى ، يسأل ضيفه عن نوع العلة
التي مات بها ابوه او امه . انه يعلم ان الذكرى المؤلمة ،
والانقباض الذي يشعر به وهو يروي الحوادث التي استبقت هذه
الحسارة القاسية ، يحدثان غالباً من نشاط قابليته اذا كان نهماً .
وقد احس احد الظرفاء بهذه الشراك المنصوبة له فأجاب بسرعة :
« بالموت الفجائي ! »

ويروي ان احد هؤلاء البخلاء الفطاحل دعا سائحاً اجنبياً الى
تناول الغداء على مائدته . وبمجة تأخر اعداد المائدة لسبب طارئ
غير منتظر ، سأله الخروج الى الحديقة حيث يستنشق الهواء النقي .
وهناك أغراه منظر الثمر على الشجر ، فدعاه الى اكل التين
الاخضر الشهي .

وبسرعة الشهب استيقظت قابلية الضيف الذي كان لا يزال

صائماً على الرغم من انها الساعة الثانية بعد الظهر ، فلبى الدعوة فوراً . ولما كان همه يتطلب إشباعاً سريعاً فقد ابتداءً يستثمر شجرة التين دون ان تستوقفه قشور ثمارها ، غير مميز بين الناضج والفج . وكان ذاك البخيل يلاحظ ذلك متهللاً ، شاعراً بسرور عظيم ، وهو يفكر بكمية الطعام التي يوفرها . ومع ذلك فانه لم يشأ ان يستعجل الامور ، فتترك الرجل على هواه ، وغمز ابنه ليلظل مرافقاً له ، ولا يدعوه الى المائدة إلا عندما يبسداً بتقشير الاثمار ، لانه يكون قد شبع ، فتأمن السفرة شره ...

لست ادري اذا كان مسيحيو بيروت يميلون الى الاعتقاد القائل بوجود «تعويض» في العالم الآخر . الا اني اعرف رأي الكثيرين منهم في ضروب المكر والغش والحداع ، وهم يسمون هذا دهاء ولباقة .

والعرب يرون ان المامهم من كل فن بطرف يدل على وفرة معارفهم وسعة اطلاعهم . اما ما عرفوه حقاً ونبغوا فيه فهو انصرافهم الى صيانة ثرواتهم التي لم تتعرض لخطر ما ، منذ عشرات السنين . فمدينة بيروت كانت مسرحاً لبعض الحوادث التي احدثت ضرراً كبيراً بالاهالي . بيد انها ادت خدمات جللى الى التجار الذين احسنوا الاستفادة من الظروف في الامكنة التي يبيعون فيها ويشترون .

واستطيع القول ، بعد ان رأيت ما رأيت من السعة التي ظهرت في اسكلة بيروت ، عندما ازدهرت فيها الاعمال التجارية ، انها ، بوجه نسبي ، اكثر ثراء من دمشق وحلب . اننا لا نجد اليوم شخصاً بيروتياً مرموقاً لا يملك ، على الاقل ، بيتاً في الجبل .

وفي هذه الابنية التي تعمرها غالباً روح الفخفخة اكثر من الذوق
السليم ، تدفن معظم الثروات . ان حب البناء هو بصورة عامة
داء معد عند الشرقيين . انهم يجرمون بذلك انفسهم من رأس مال
يدر عليهم ارباحاً وافرة لو بقي في صناديقهم ، ويساعدهم على
توسيع دائرة اعمالهم دون ان يضطروا في الساعات الحرجة ، وهم
معرضون لذلك كثيراً ، الى الاستدانة المهلكة بفائدة اربعة او
خمسة بالمائة عن كل شهر .

ان البيروتيين شعب مسالم هاديء ، ومع ذلك لا يستنكرون
الاعتياب والنميمة . واذا حصلت منازعات ما بسبب هذه الوشايات
فان الاصدقاء المخلصين او انكهنه يتدخلون حالاً . وهكذا يسود
الامن وتعود السلامة الى مستقرها . والعرب في كل حال ليسوا
بمقودين . واننا نستطيع القول ان اخلاقهم لا تزال تحافظ على شيء
من بساطتهم وطهارتهم الفطرية .

ان حفلات الزواج المسيحية تختلف في بعض الامور عن
الاحتفال به عند المسلمين . فعند تحرك الموكب الذي جاء لاختد
العروس ، تأخذ هذه تظهر الاحجام عن الذهاب ، ويأخذون هم
في استعطافها لتمشي وتسرع ، اما هي فتصر على الابطاء ، فيتدخل
الاقارب والاصدقاء ، والاشبين والاشيينة (شاهداء الزواج) بنوع
خاص ، فتستجيب لطلباتهم الملحة ، وتتقدم خطوات ، ولكن لتعود

١ يؤتى بالعروس ، وهي في ثوبها الاكثر بساطة بعد ان يفتش عنها
في احدى زوايا البيت . واذا لم تتصرف هكذا قيل انها مسرورة لفراق
اهلها . ان الزخرف الوحيد الذي يضاف الى بذلتها المهمة هو مندبل احمر
مزين بخيوط القصب الذهبية . وهذا لا بد منه في هذا المقام .

الى ذلك بعد هنيئة . وهكذا تتجدد وتتكرر هذه الخطة الحربية مراراً ... ومتى بلغت بيت العريس وأدخلت اليه ، تجلس على منصة - صندوق او ما يوازيه علواً - غاضة طرفها . انها تجمد كالصنم لا تتحرك ، وعلى الزوج ان يطعمها ، فيملاً المعلقة ويقدمها لها . اما هي فلا تفتح فيها إلا بعد الف رجاء . ان التوسلات الحادة تتصاعد من افواه جميع الحاضرين . ولما كان لا يليق بالعروس ان تتكلم ، فانها تقابل هذه الاحاديث اللطيفة التي تدور حولها بصمت ثابت الجأش . واذا اضطرت للجواب فانها تميل برأسها الى الورا لتقول لا ، وترجعه الى الامام لتقول نعم .

ان مشغلة الزوجة العظمى هي ان تقبل ايدي جميع الذين يدخلون البيت الذي تكون فيه مع المدعويين . واذا خرج احد هؤلاء وعاد بعد قليل فتقبيل يده واجب ايضاً . اما اذا كانت الداخل زوجها فان القبلات تكون اوسع نطاقاً .

اما عند الارمن فالزوج عندما يقدم الى امراته ، بعد ان يقبل بركة الزواج ، فانه يرفع الحجاب الاحمر الذي يغطيها بحد السيف الذي يسلمه اياه الكاهن ، بعد ان يكون قد وضعه بين العروسين خلال الاحتفال الديني لمباركة عقد زواجهما .

ان العروس لا تلبس ثيابها ولا تتزين إلا في بيت عريسها ، وذلك قبل ان تتقدم الى الكاهن . وقد نسيت ان اقول : انه من الشائن ان يحضر الشاب العريس الاستعدادات التي يقام بها حفلة عرسه ، بل عليه ان يختبئ برصانة ودهاء فلا يعثر عليه إلا بعد مشقة وعناء .

الفصل الثالث عشر

السلطات التركيبية . مبادئها وانظمة العدالة . مساوية الادارة .

ان قوام سلطات بيروت المتسلم ، والقاضي ، والمفتي ، هذا اذا لم تُدغم هاتان الوظيفتان الاخيرتان ، ثم مأمور جمارك ، وهو غالباً مسيحي ومن العوام . اما الرسوم المترتبة على دخول البضائع وخروجها ، وعائدات الدولة الاخرى ، فتضمن كلها كما سبق القول عنها في الفصل السادس .

وهناك ايضاً ادارة صحية يرأسها مدير مسلم . ان كل هذه المؤسسات العامة التي يديرها مأمورو الحكومة او الخاصة من الناس تتبع في منهاج اعمالها مبدأ واحداً . انها تتبع الطريقة القديمة التي حوّرت بعض وجوهها ، ولكنها لا تزال تطبق ولو بصورة خفية على الاقل ، فالرشوة والظلم هما دائماً دعامتها . واذا كانوا لا يحاولون الا مراعاة الظواهر فلأن السلطات العليا تبدي رغبتها في التمسك بالاصلاحيات التي اقترتها البلاد . ان الباشوات هم ايضاً محافظون من الطراز الاول ، فلا يأبهون للشريعة ، بل يتجاوزون حدودها على اوسع نطاق ممكن .

انه يصح القول هنا ان مصير اهالي سوريا قد تحسن قليلاً في بعض الاماكن وعند بعض الاشخاص . لقد كان ذلك المصير مشؤوماً في ظل النظام القديم ، ثم اصبح اشدّ شؤوماً ايام

المصريين . إلا ان عودة العثمانيين خففت قليلاً من حدته .
وفي الزمن الذي كان يُحكّم فيه باسم محمد علي ، كان يصح
الاستشهاد بهذا المقطع من « الاطلاع » الذي يصور ذلك العصر :
« لقد نهب الآغا الفلاح ، وهكذا تضاءلت المزروعات . ان
الزارع لم يستطع ان يلقي البذار لانه حرم التسليف . داهمته
الضريبة ولم يتمكن من دفعها ، فاستدان لانه هُدد بالعصا . والمال
كان مخفياً نظراً لفقد الثقة . كانت الفائدة فاحشة ، وهكذا زادت
مراباة الاغنياء في بؤس العامل .

« تضاف الى ذلك تقلبات الفصول والجفاف البسّال الحد ،
فحالت دون نضوج الاغلال . ان الحكومة لم تمتح اية مهلة لدفع
الضريبة او الاعفاء منها . وهكذا فان قسماً من الاهلين فروا
الى المدن عندما اناخت الفاقة على القرية . فالتكاليف التي أُلقيت
على عاتق الذين لا يزالون يقطنونها زادت في طينة بؤسهم بلة ،
فاقفرّت البلاد .

« وحدث ان تأمرت القرى عندما أشبعت ظمأً وهو اناءً . فسر
الباشا بذلك ، فحاربهم : هاجم منازلهم ونهب منقولاتهم ومواسيهم ،
اما الارض فظلت مقفرة . فأتى باناس يفلحونها على حسابه الخاص
لانه لا يشاء مغادرة سوريا . »

لقد عرف السيد ميشو ، عندما زار مصر ، حقوق التملك في
هذه البلاد معرفة صحيحة ، فكان يقول :
« ما قيمة الملكية العقارية في ظل الحكومات المستبدة التي

تستطيع ، عندما تشاء وكيفما تشاء ، ان تعتصب الاراضي . ان
الارض هي ملك من يستطيع ان يسألها عما تنتج ، واكثر
بما تنتج ٢ .

قيل ان المصريين قاموا كثيراً بجراثة الاراضي البور
وغرسها في سوريا ، ولكن لحسابهم الخاص ، بعد ان انتزعوها من
مالكها الحقيقيين . كانوا يدمرون القرى الخاصة لبنوا اخرى
تكون بكاملها لهم . فطريقة تعديهم المتجاوزة الحد كانت ترمي الى
ان تجعل من سوريا مصر ثانية لها ، ولا يمكن تأويل تلك القساوة
وهذه الاساليب التي أتبعت إلا بالرغبة في الوصول حالاً الى
هذه النتيجة : امتلاك سوريا امتلاكاً تاماً .

والذين كانوا يقطنون سوريا ، يوم كانت تُحكّم بصورة تعارض
مصالح محمد علي ورغباته وامانيه ، يعلمون ان هذا الكلام غير
مبالغ فيه . ويمكننا هنا ان نضيف بعض خطوط تزيد هذا
المشهد تعاسة . فقد كلفوا المقيمين ان يدفعوا ضرائب المهاجرين ،
فأخرجوا موقف الكثيرين من الفلاحين المسلمين والنصيريين ،
فأضطروا اخيراً الى بيع بناتهم ليخرجوا من هذا المأزق الحرج .
وقام المصريون بهذه الاعمال وفقاً للمبدأ السياسي التركي القائل
بوجود ارهاق الشعب لانهم على يقين بانه لن يجرؤ على الاستغاثة
بصوت عال ، او على الاقل لانه من الصعب او من المستحيل
ان تبلغ صرخاته آذان السلطان ٣ .

كانت الحكومة تلاحق بشدة وعنف مبذري اموالها الخاصة ،

٢ رسائل شرقية ، الجزء السابع ، ص ٦٦ .

٣ ديجون ، اراء في السلطنة العثمانية ، ص ١٤٩ .

اما المختلسون فكانت تحيلهم الى الديوان ٤ . وهذا الديوان كان يعبر
طريقته اذا ما رأى نفسه تجاه قضية واقعة بين الموظفين الرسميين
والشعب . فالشعب دائماً هو المذنب ، وخلاف ذلك لا يكون ابداً .
وهذه القاعدة كان يعرفها السواد الاعظم من الناس ، حتى ان
اصحاب الدعاوى او الذين يحق لهم ان يرفعوا صوتهم بوجه
الظالمين القساة كانوا يجزمون عن ادعاءاتهم لانهم على يقين تام بان
التجاءم الى المحاكم لا يعود عليهم إلا بروية اشباح ممثلي الحقيقة ،
وانه يمكنهم عند التلفظ بالحكم ان يقدروا المحابة .

لم تكن السلطات تعطي الحق صاحبه إلا اذا كانت « واسطته »
قوية ، او تعضده احدى القنصليات . والالتجاء الى البرطيل يزيد
الخير خيراً . انه مركبة لا يستغنى عنها ، وهي ، بصورة خاصة ،
ضرورية « للرؤساء » الذين لا يتمتعون بحماية ما ، ولا يستطيعون ،
نظراً لضعف نفوذهم ، ان يديروا دفعة هذه الدسائس لتجري الرياح
بما يشتهون . وان لم يفعلوا فقضاياهم لا تنتهي ، واذا انتهت فانما
يكون ذلك ببطء ، فيصح حينذاك تطبيق المثل الشرقي : يُصطاد
الارنب من اعالي المركبة .

انه لا يستطيع في البلدان التي يسود فيها الظلم ان يطرق
الموضوع بصراحة دون ان يفسد كل شيء ... ومن هنا جاء تحفظ
القناصل ، الشاق بجد نفسه ، وان اكسبهم مظهر اللباقة والكياسة ،
مع انهم لم يفطروا عليهما .

٤ : نوع من المجلس البلدي ، ولكنه اوسع صلاحية .

ان الاصلاحات^ه ، كما سبق لي فقلت ، كانت تلمس في سير
اعمال المؤسسات الحكومية ، ولكن طرق العدالة الحقيقية ظلت
على ما كانت عليه في الماضي ملطخة ببعض المساويء ، حتى انه
لا يمكن الحصول على الحق إلا باللجوء الى اساليب كثيرة اللف
والدوران تسهل المماحكات والنتائج للذين يستفيدون منها .
وهناك ظاهرة اخرى يجب ان تضاف الى سابقاتها ، تأييداً
للفكرة القائلة : ان الاتراك هم شعب مناقضات ، تلك هي وساوس
الحكمين والقضاة والائمة . انهم ، بعد ان يساوموك في حل قضية ،
او استيداع ملف ، يرفضون قبض المبلغ مباشرة ، بل يطلبون
منك ان تضعه على الارض ليستطيعوا الحلف ، فيما بعد ، انهم لم
يقبضوا شيئاً : لقد وجدوا المال المذكور على الارض فالتقطوه .
وهذا لا يمت الى الاثم بصلة ما .

وبعد ، فأظن ان هذه التدابير والاحتياطات الغريبة لا تؤخذ
إلا تجاهنا ، وفي نية خداعنا ، لان شعار هذه المحاكم هو ان من
يدفع اكثر من سواه يربح قضيته الى حين ، وان الدعاوى لا
نهاية لها .

ه ان الذين تفضلوا واطلقوا عليها هذا الاسم لم ينصفوا ، اذ ليس لها
منه الا الظاهر ... وهذا ما يذكرني بالحقائق التي ابدتها لامرتين على اثر
عودته من تركيا :

« انهم في اوروبا يجولون تماماً سياسة الشرق . يظنون الشرق ذا مطامح
واهداف ومستقبل ، مع انه ليس له سوى أهوائه وشهواته ويومه والغد .
انا لا نرى في وثبة محمد علي الا نتيجة مطامح طويلة متسلسلة عزم على القيام
بها . فالثروة المغربية هي التي تقوده من خطوة الى اخرى ، فيسير بلا ارادة ،
حتى الى زعزعة عرش سيده . (رحلة ، الجزء الثاني ، ص ٢٩٥) .

لا ندري كيف نفسر امتداح لافونتين لهذه المبادئ عندما يقول : « عسى ان يبت بجميع الدعاوى على الطريقة التي يتبعها الاتراك . ان الشعور العام البسيط يكون عند ذلك شريعتنا . » صحيح ان مونتسكيو قال بعد ذلك : « لو كان الحكم المستبد عادلاً لكان احسن الاحكام . »

والسيد « توت » كان يعني ، ولا شك ، احد تلك الاراء في هذا المقطع من مذكراته :

« وانت يا من تأملت بحق من كثرة هيئاتنا القضائية ومضارها ، وتجرات على القول ، دون ان تتأكد ، ان العدالة عند الاتراك هي افضل من عدالتنا ، تفحص بانتباه هذا المشهد الذي سأقدمه لك ، واذا كنت لبيباً فصف لنا بعض الادوية اللازمة لهذا الفيضان الذي يضر بنا . اصلح عدم اعتدالنا ، ولكن لا تنسب اليينا الضعف والعوز . »

أريت قاضياً ، قام بزيارتي ، غرف مسكني التي تختلف اختلافاً تاماً عن غرفه ، فوجد سكيناً على مكتبي كثيرة الشفار . وعندما لاحظت انها اعجبته قدمتها اليه . إلا انه اجابني انه لا يستطيع قبولها دون ان يدفع ثمنها . فاعتقدت ان ذلك ناشئ عن مقت هؤلاء الاشخاص للهدايا . غير ان تمنعه كان يتركز على سبب لا يقل عن ذلك دقة . فمن تقاليدهم ان لا يتهادى الاصدقاء اشياء جارحة . فقبلت عند ذلك واخذت ثمن سكينني اصغر قطعة من النقود التي شاء ان يعطيني اياها : عشرة سنتيمات .

ان مثل هذا الوهم هو عام عند كل السوريين . فالنساء لا
يناول بعضهن بعضاً الابر ، او الدبابيس ، او المقصات .

ان شيوع الرشوة عند السلطات التركية ، في بلاد يثير فيها
التعصب ضروباً من المشاكل بصورة مطردة ، لأمرٍ يمكن الاعتماد
عليه . ولقد حُملتُ على الاقتناع بان ذلك تدبير إلهي ، وهو نافع
في الغالب للمغلوبين على امرهم . انها انبوب يقي من التسمم .
فبدون هذه الطريقة التي هي خشبة النجاة لا يستطيع مسيحي ان
يعيش في ظل السلطنة العثمانية .

لنتصور الحظوظ التي قد نمر بها في بلاد لا قيمة فيها
للمستندات والتواقيع والاختام ، ان مصير كل شيء فيها منوط
بالشهود المسلمين .

وقع خلاف بين مسيحي وتريكي فصفعه المسيحي على خده عندما
استفزه بسبابه وشتائه ، فرفع التريكي دعواه الى القاضي ، فاستدعى
الى حضرته الاشخاص الذين حضروا المناوشة ليعاقب الوقح . ولو
لم يبادر اقرباء المسيحي المهان ، ويراجعوا القاضي ، لحكم عليه .
فقد اقنعتهم حججهم الصفراء والبيضاء ، فأجّل احضار المدعي الى
الغد ، حتى اذا حضر اليه المدعي ثانية أوفد من يفتش عن المتهم ،
ولكنهم لم يعثروا عليه لانه كان قد هرب ... فاعتنم القاضي هذه
الفرصة ليهدىء من هياج المدعي ، فقال له : ان الجزاء الحق من
جنس العمل ، وهو ينحصر في رد الصفة لفاعلها . ولذلك يقتضي
احضار المسيحي الى المحكمة .

ولما ادرك المدعي تحيز القاضي تقدم منه ولطمه بعنف على خده
قائلاً له : ان اشغالي لا تسمح لي بالتأخر . ارجوكم ، عندما يأتي

المدعى عليه ، ان تحولوا له هذه الصفة .
ان شريعة العين بالعين والسن بالسن تطبق دونما تمييز بين
الاشخاص . إلا ان القضاة يصدرن احكامهم تبعاً لمذهب المذنب ...
فلو لم يرش القاضي لما حكم إلا بالسجن الطويل الامد عقوبة لهذه
الجريمة . ولا تكون القضية على هذه الحظورة لو ان تركيباً لطم
مسيحياً .

انهم يحكمون بناء على ادعاء شفوي . يحضر القاضي المتهم
حالاً ، فيحاول هذا الاخير تبرئة نفسه جهده عندما يُبلِّغ الجرم
المنسوب اليه . وعلى الفريق الذي يريد اثبات مدعاه ان يسمي
عند ذلك شهوده . وبعد استماع اقوال الشهود يلفظ القاضي الحكم
فيكون مبرماً . والذي يحكم عليه يدفع النفقات .
ان الذين عرفوا اساليب المحاكمة في افريقيا يسهل عليهم ان
يتخلوها في سوريا :

« يستمع القايد الى اقوال الفريقين الجالسين القرفصاء قرب
باب القاعة ، بينما يكون هو ممدداً على سجادة وبضع وسائد . ثم
يحمي وطيس النقاش . وفي بعض الاحيان يتكلم القائد والمتداعون
معاً . ويتعالى الكلام ، وعلى الاصح الصراخ ، دون ان يسمع
احدهما الآخر ، فينهال الجنود على المتداعين بضرب قاس ليلزما
الحشمة والادب . وعند ذلك يلفظ القائد حكمه ، فيخرج المتداعيان
تحت ضرب الجنود ورفسهم لينفذ الحكم بلا هوادة^٧ . »
ان الوساطات التي تستخدم للتأثير على السلطات هي بلا مرأ

٧ علي بك ، رحلة الخ... ، الجزء الاول ، ص ٢٧ .

تشجيع للاجرام ، فالحالات التي يعفى بها عن المجرم ، بعد الحكم عليه ، تخلق ، كما يستدل ، عدداً كبيراً من الجرائم .
ان القوانين رغم صراحتها لا تخيف في تركيا الا السارقين الضعفاء . اما الاقوياء منهم فانهم يحرقون حرمتها دائماً ولا يعاقبون في اكثر الاحيان .

ان التفكير بالمثل امام محكمة من هذا الطراز ، ولا سيما في بلاد لا محامين فيها ، والقضاء يقول كلمته دونما تنظيم محضر او تدوين كلمة ، لمروع رهيب . انني استطيع ان استشهد هنا باقوال عدة سائحين حول كيفية احقاق الحق في ظل السلطنة العثمانية . غير اني اكتفي الآن بما قاله احد هؤلاء وهو السيد ديجون بعد ان عرف الدولة العلية حق المعرفة ، وشغل فيها خلال ثلاثين سنة منصب ضابط ارتباط قبل نشر كتابه ، قال :

« تنظم الاحكام عادة بسرعة كلية فلا تعوق اعدادها صعوبة فهم النزاع . وهكذا فاذا كانت القضية تدرك بعض الشيء فمحاكم الاتراك اسرع الى حلها من محاكم جميع الشعوب . بيد ان الطريقة التي تتبع في احقاق الحق عاجلاً ، كثيراً ما تؤدي الى اخطاء مخيفة . فهناك اشخاص ، في القسطنطينية على الاخص ، وفي مدن تركيا الكبرى عموماً ، لا عمل لهم الا الشهادة بالزور ، وقد جمعوا من جراء هذا العمل الدنيء السافل ثروة لا يستهان بها . ان طالبي حلف اليمين ليسوا اكثر وساس منهم . وهكذا فان العدالة تسير مغمضة العينين ، ولا تنطق غالباً الا بالباطيل^٨ . »

والعثمانيون لديهم مجموعات من القوانين ألّفها مشرعوهم
الشهيرون ، وهي مستقاة من قوانين يوستينيانوس . الا انهم لا
يرجعون اليها الا ليسبقوا صباغ الحق على حكم حماهم الشفاعة
والوساطات على النطق به .

الفصل الرابع عشر

لغة وآداب عربية .

يزعمون ان مصير لغة الامة مرتبط بجمالة البلد الذي يتكلمها،
وانها تخضع لما يحدث فيه من انقلابات وتقلبات . وعليه فاذا
كانت لغة العرب قد فقدت روعتها بسبب الاضطرابات حتى اصبح
شأن من ينطق بها شأن رعايا دولة اجنبية ، فان مدينة بيروت ،
التي هجرت مدة طويلة لانها اقطاعة من الجبل ، ولان الحكومة
كانت تحاول توجيه اعمال التجارة الى صيدا ، قد شعرت بابتعاد
الاشخاص الذين كان يمكنهم ان يحافظوا على اللغة . ان الاحتكاك
بالرجال المثقفين ومذاكرتهم ، في هذا البلد ، هما السبيل الوحيد
الذي يؤدي الى معرفة صحة الالفاظ او خطأها ، لان المعاجم
نادرة جداً ، وطريقة التفتيش فيها عن الالفاظ شاقة وصعبة جداً .
فالثقافة في الشرق تؤخذ من افواه الرجال لا من بطون
الكتب . فبقليل من هذه المعلومات السماعية السطحية التي يقتبسها
وجهاء الرجال يتوصلون ، اذا ما استعانوا بدراهمهم ومفعول الحماية ،
الى اشغال المراكز الهامة .

ان السلطات هنا تهتم بتنسيق اعمال دوائرها محاولة ان يصلح
موظفوها لغايتين : تطلب من واحد ان يعرف جغرافية تركيا ،
ومن الثاني ان يعرف تاريخ البلاد ، ومن الثالث ان يفصل في

الدعوى، ومن الرابع ان يكون قد درس اصول الحكم، ومن الخامس ان يلم، ولو قليلاً، ببعض المعلومات الاوروبية.

ومتى وجدت هذه المكتبة الحية يعتقد باشاواتنا ان مواقفهم لن تخرج ابدآ. فاذا دعت الحاجة الى حل قضية عرضت في مباحثة ولم يوضحها المحدثون، فعوضاً من ان يفتش عن حل لها في هذا المؤلف الخاص مثلاً، او ذلك المعجم، فانهم يدعون تلك المكتبة الحية فتجيب حالآ. وهكذا تنتهي المشكلة.

فهمت من قنصل عام ان محمد علي كان يلجأ الى هذه الطريقة حين يُضطر الى الاستيضاح عن معلومات يجيئها. وكان يزعم، كما احتاج الى رجل يستشير، ان ذلك الرجل كان في خدمته منذ سنوات عديدة، وهو يعرف صحراء سوريا ادق معرفة، في حين انه لم يعرف الرجل الا منذ اشهر. وهذا ما يدل على ان نائب السلطان وهب ذاكرة وقادة، وبهذه الميزة السامية يتحلى ولده ابراهيم باشا.

ان فولني الذي اقام مدة طويلة في سوريا، ودرس اللغة العربية، قد تحقق ان لهجة سكان بيروت تعد بحق اسوأ اللهجات، اجتمعت فيها وحدها عيوب البيان الاثنا عشر التي ذكرها النحاة العرب^١.

ويصف عثماني نطق اهالي حلب بالميوعة والرخاوة، ونطق الدروز بالقساوة والفجاجة، ويقول ان نطق اهل الشام قوي متساوٍ واضح، وان نطق الموارنة مضموم، وان نطق سكان

١ رحلة الى سوريا، الطبعة الخامسة، الجزء الثاني، ص ٧٦.

القدس وطبريا والقرى المجاورة مفتوح .
ان الانشاء - اسلوب الكتابة - هو رمزي دائماً في سوريا ،
حتى ان لغتها العامية حافلة بالتشابه والاستعارات والمجاز .
وفي المراسلات ، بوجه خاص ، يدفع هذا الفن الى اعلى قممه ،
اذ يصعب هنا ان يرسل الكلام عفو الطبع . فالاشخاص تشبه
بكائنات خيالية او وهمية ، وقد تمسخ لان الصور التي تشبه بها لا
تنطبق عليها ، وكثيراً ما يأخذون تشابيههم من اشياء لا تألفها
عامة البشر ، فيعبرون عن افكارهم بالعطور ، والازهار ، والصبأ ،
والدرر والاشياء الاخرى من نسيج وغيره .
ان عبارات الجمالة التي قولها موليو لكلايات كانت مستوحاة
من عادات الاتراك ، واحدى هذه المجاملات كانت ترمز الى الآية :
كونوا حكماء كالحيات ، وودعاء كالحمم ٢ .

ويجب ان نعترف مع ذلك بان ابرز خاصيات اللغة العربية
تنحصر بموافقها التامة للخيال ، وان تبني هذه اللغة الاسلوب
الرمزي هو نتيجة حب الناطقين بها للاستعارات .
كتب السيد ف . ج . ماريال العالم الشهير باللغات الشرقية :
« ان لغة المديح نشأت عند الدول الشرقية . ففي هذه البلدان ،
حيث يعتاد الامراء منذ طفولتهم الاطراء السمج ، لم يرتقوا عروشهم
إلا ليارسوا اعمال الظلم المستبد . لم يكن يجرؤ اي امرى ان
يسدي نصائحه بلا تزلف ومحابة ، فسيف الامير كان مصلتاً فوق
الرؤوس بلا تمييز ، وهو يستطيع في كل ساعة ان يقتل مستشاره

اللبق اذا جرحت اراؤه كبرياء مولاه .
« فهذه الحشية هي التي اضطرت حكماء الشرق وفلاسفته الى
لفّ امثالهم بستار مسن الرموز ، وهي التي حدت بهم الى خلق
الاساطير والحرافات . »

وهنا يصدق قول بيفون : ان الاسلوب هو الشخص نفسه .
فموقف العربي يقضي عليه ان يكون دقيقاً ، متحفظاً ، لبقاً . ومن
هنا جاءت طريقتة المتبعة في الافصاح عن افكاره .

اما اليوم فالادب لا يزال حيث تركه الكتّاب السابقون .
واذا عدّ هنا وهناك بعض مفكرين ، فان هؤلاء جميعهم من
الشعراء الصغار . اننا نجد من هؤلاء مسيحيين في الجبل ، هما
ناصر اليازجي وبطرس كرامه . وفي حمص الشيخ حسين الجندي
الذي لاقت ازجاله واناشيده رواجاً كبيراً * .

سأل السيد ميشو احد اصحاب المكتبات في القاهرة عما اذا
كانت ظهرت مؤلفات جديدة ، فأجابته : « ظهرت بعض الكتب
المتجمة عن اللغات الاوروبية . ولا شيء غير ذلك . » ثم قال لي
السيد ميشو : « وسألته عما اذا كان هناك اليوم شعراء في عاصمة
مصر ، فأجابني : ليس في مصر اليوم غير ناظمي الاغاني الذين
ينظمون مواويلهم للمناسبات ^٣ وبلغت العوام . »

واذا كانت مصر التي تنعم بحكومة منظمة ترأف بشعبها كما
يقولون ، لا تمد الكتاب والشعراء ، فلا يمكن ان يطلب ذلك بحق
من سوريا .

* سماه المؤلف حسيناً وهو امين الجندي ، احد شعراء بلاط الامير بشير . - المغرب .
٣ رسائل شرقية ، الجزء السادس ، ص ٣٠١ .

وقال السيد ميشو ، في احدى رسائله ، عندما درى ان الطباعة المصرية لم تهتم إلا باعادة طبع المؤلفات التي نشرت سابقاً في باريس : « ان الشرق يتلقى كل شيء من وراء البحار حتى التأليف التي صنفها اسلافه ، وهذه الخاصة من مميزاتة . انه لفي اشد الحاجة الى هذه المؤلفات التي تأتيه من الغرب ، فهي التي تشحذ مطالعتها قرائح شعرائه . »

اما في حقل الادب فالعرب لا يكتبون في ايامنا هذه إلا اناشيد خفيفة ، وما اقل ما يكتب منها باسلوب رفيع ! حاول صاحب مطبعة على الحجر ان يعيد طبع ديوان الفارض على نفقته ، فلم ينفق شيء من تلك الطبعة على الرغم من تدني اسعار النسخ .

وبعد ، فليست الكتب وحدها هي ما يفتقر اليه العرب ليوسعوا ثقافتهم . انهم مفتقرون ايضاً الى الذوق ، والهدوء ، والثقة . تعودوا ان يكونوا ابناء الساعة التي هم فيها ، وهذه العادة اصبحت فيهم سجيبة وخلقاً حتى صاروا لا ينجحون من جهالتهم . انهم يعرفون ما عرفه ابائهم ، وهم يعتقدون انه ليس من الضرورة ان يعرف ابناءؤهم اكثر مما يعرفون . فلا يجب ان نعزو عدم اطلاعهم على العلوم ، وابتعادهم عن المدارس التي يعتبرونها عديمة الفائدة ، الا الى افتقارهم للثقافة . كانوا يقولون اننا نحن - اي الاجانب - الذين نخلق المشاغل لانفسنا . ولما كان لا يعوزهم شيء فيجب ان نعيش مثلهم . لقد احسنوا صنعاً . ومن ذلك نستنتج انهم كانوا سعداء . ولئن حرم العرب الثقافة فانه لا ينقصهم ذكاء الفطرة الطبيعية . ولهذا نجد عند من يحسنون التفكير منهم خواطر

وامثلة ومنطقاً صحيحاً .

شغل التلاعب بالكلام والتعابير الرمزية علماء المشرق في كل عصر ، حتى لجأ الحكام والفلاسفة الى اسلوب الكهان ، فكانت اسلوبهم العادي .

ويروى انه ، في الازمنة التي كانت فيها بلاد المشرق مقسمة بين عدة ملوك ، تدخل بعض الحكماء في نزاع حصل بين ملكين منهم ليحققوا الدماء ويتجنبوا المتاعب التي تحدثها الحرب ، ولذلك اقترحوا ان يفرض الخلاف بحرب قلمية عوضاً من ان يفرض بالسلاح . ثم تقرر ان يوفد الى معسكر العدو رجل من اهل الادب والفكر ، فيطرح ثلاثة اسئلة تحل بالايام ، حتى اذا ما فهمت او حلت فللدولة الغالبة ان تملي شروطها ، واذا لم تهتد الى الحل فهي التي تخضع لما يبلي عليها من شروط .

ولدى وصول السفير حامل الاسئلة الثلاثة دعا الملك مجلس شورا الى الانعقاد . وبعد مناقشات طويلة احتكت فيها الاراء ، اقرروا بالاجماع شجب الاساليب البربرية التي يلجأ اليها الناس ليصونوا حقوقهم ويحافظوا عليها . ووافق المجلس على ان هذا الحل الادبي افضل جداً من الالتجاء الى النار والحديد . وكان قبول الاقتراح ، وكانت هدنة دعي على اثرها جميع العلماء الى القصر في اليوم الذي وصل فيه السفير .

وادرك الشعب خطورة القضية التي كان ينذر بها هذا الحادث الجلل ، فتصاعدت صلوات وابتهالات الرعية الى الله لينصر مليكها . اما البلاط فكان في قلق عنيف .

لم يكن المكان المعد لاستقبال السفير يمتاز بشيء من سواه ،

لان الشرق لم يكن يفقه اهمية المدرجات . كان ذلك المكان يحوي عرشاً للملك ، ودواوين يتربع عليها الوزراء ، وسجادات ينتصب فوقها العلماء . اما الاعيان والمدعوون فكانوا وقوفاً . وهناك مقعد وحيد وضع في الوسط خصيصاً لطرح الاسئلة . ولدى دخول الموفد المدينة ، أستقبل بتلك الجلبة التي تحدث عادة عندما ينتصب الشعب متوقفاً وصول شخص ما ، او على اثر وقوع حادث جلل .

ومثل الرجل امام الملك فعبّر عن تمنياته الخاصة ، ولكن دون ان ينبس ببنت شفة . وبعد الاحتفاء التأم المجلس الاعلى وشرع السفير يطرح اسئلته :

السؤال الاول : رفع يده اليمنى مطبقة الاصابع ما عدا المشير ، وقدمها وهو يرخي ذراعه كما لو كان يفعل عندما يريد الإشارة الى مكان ما .

السؤال الثاني : رفع يده اليمنى مفتوحة ، بصورة تدريجية حتى بلغت علو الرأس .

السؤال الثالث : انتزع الرسول بيضة من زناره واراها اياها . وبعد هنيهة اشار بجرمة ما معلناً انتهاء رسالته ، وانه مستعد ان يعيد طرح الاسئلة اذا أمر بذلك .

كانت دهشة المجلس على اشدها ، واعترفت الرؤوس الضخمة المجتمعة فيه ببعجزها عن فهم تلك الرموز ، اي فهم معناها الحقيقي الذي يعنيه السفير ، لاسيما بعد ان رفض عدة تأويلات وتفاسير . وهكذا انقضى اليوم الاول ولم ينجل الموقف الا عن محاولات عقيمة من قبل مجمع العلماء العربي . غير ان الملك شاء في اليوم

الثاني ان يدعو العلماء الباقين والاشخاص الحائزين على بعض الموهبة
او المقدره على البديهية في الجواب .

وكانت الجلسة التالية فازدحم الناس اكثر من ذي قبل ،
وتفتحت العيون ، واعاروا المشكلة انتباهاً دقيقاً ، وفكروا طويلاً ،
فاجمعوا اخيراً على انهم لم يجدوا في حركات الموفد معنى يدل على
فكرة متناسقة ، او موضوعاً يمكن ان يظن انه هو الذي انتقاه .
وذعر البلاط من النتيجة الثانية ، وانتشر هذا الشعور حالاً
بين جميع الشعب ، فضجت الرعية .

وبقي يوم واحد . نسيت ان اذكر ان الميثاق جعل المهلة
ثلاثة ايام فقط . ولكن بأي امل يمكن تعليل النفس بعد استشارة
العلماء والمتقنين ونخبة رجال الامة وعجزهم عن حل اللغز ؟
ومع ذلك ، فقد اراد الملك ان يفتح قصره في اليوم الاخير
للجميع . فنودي في الشوارع بان الاهلين جميعاً مدعوون ليحاولوا
حل هذا الطلسم ، وان جائزة ضخمة تمنح لمن يجيب على الاسئلة
الثلاثة الشهيرة .

وانتصب الرسول الذي لم يعد يحامره اي ريب في فوزه ،
واخذ يعيد ببشاشة كبيرة حركاته الاولى ، رغم حرج موقف
الذين حضروا ليجيبوا عليها . واستمرت الحالة هكذا حتى الظهر ،
واذا باحد كتاسي الشوارع يقف على باب السراي يتأمل الجماهير
التي تسده . سأل عن سبب هذا الاجتماع ، وما شأن هؤلاء
القادمين والذاهبين ، فقال له واحد : ألم تعلم بعد ؟ ان هنالك
رسولاً مكلفاً طرح بعض اسئلة صعبة الفهم ، وان الملك دعا
رعيته كلها . فعليك انت ان تستفيد من هذه الفرصة وتجرب .

فقال الكنتاس : وماذا يجدي عليّ ذلك ؟
- جائزة ضخمة مثلك . أدخل اذن .
ودخل الكنتاس . ولما صار امام الموفد وجهاً لوجه ، رأى
نفسه مجبراً على الجواب ، فقام بحركات ماثلة ، ولكن بلباقة
متناهية ونزق . ولو طال التمثيل قليلاً لكان انتهى الامر الى
المشاجرة .

في تلك الدقيقة نطق الموفد بعد صمته اياماً ، واعلن انهزامه .
وعند هذه البادرة غير المنتظرة ضجت القاعة ، وتجمهر الحاضرون
حول الكنتاس الفرع . ورأى الكنتاس نفسه بين عدة ضباط ،
وقد اذهلته الضوضاء والغضب الصاخب . وشاء الملك ان يرى هذا
الشخص الرث الثياب ، فأخذه الضباط ليصلحوا من هدامه .
وعندما استقروا في احدى الغرف واصبحوا على انفراد ، قال لهم
الكنتاس : هل رأيتم في حياتكم رجلاً وقحاً كهذا الرجل ؟
فأجابوه : عنن تتكلم ؟

قال : عن الشخص الذي طلب اليّ ان اذهب اليه ... فجالماً
وقفت قبالة لم يرد عليّ السلام ، بل هددني باقتلاع عيني ، فأجبتة
بدوري اني اقتلع له عينيه الثنتين . وتمادى في قبحته فقال لي : انه
يتشقني ، فأجبتة : وانا اقطع رأسك . واراد اخيراً ان يزيد في
تحقيري ، وكأنه ظنني جائعاً ، فأراني بيضة . ولكي اثبت له ،
والحمد لله ، شعبي ، أريته قطعة من الجبن ، وكسرة من الخبز بقيت
من فطوري * .
* تروى هذه الاسطورة عندنا بصور مختلفة ، ولكنها متفقة في الجوهر ، فشاء المسبوغين ،

وبينا كان الكناس يدي بهذا التفسير الغريب تناول الملك
حل السفير الذي هدمت قصور آماله بعدما كان قد ضمن الظفر ،
فاذا فيه :

يجاب على السؤال الاول بحركة الذراع نفسها فتروخى ويمر بها
امام الجسم بصورة افقية مع ابقاء السبابة والاصبع الوسطى
ممتدتين .

ويجاب عن الثاني باليد اليمنى المنبسطة تماماً ، مشاراً بها بحركة
قطرية افقية من اليمين الى اليسار .
ويجاب عن الثالث بتقديم قطعة من الجبن .

الذي سمها كما رواها ، ان يقيم منها دليلاً على حينا للالغاز والرموز . اما التاريخ فيروي
ان ملوك ذلك الزمان قد كانوا يتلهون بها ويتحدى بعضهم بعضاً .
جاء في تاريخ المير حيدر : وفي السنة ٤٣ هـ و ٦٦٣ م حكى المسعودي في كتابه
المكني بروج الذهب ان ملك الروم ارسل الى معاوية يسأله قائلاً : اخبرني عن شيء ولا
شيء . وعن كلمة لا يريد الله غيرها . وعن مفتاح الصلوة . وعن رجل لا اب له . وعن
امرأة ولدت من غير ام . وعن رجل لا قوم له . وعن قبر سار بصاحبه . وعن ارض
طلعت عليها الشمس مرة واحدة . وعن شجرة نبتت من غير اصل . وعن شيء تنفس
ولا روح له .

فها وصلت تلك الرسالة الى معاوية ، وكان عنده ابن عباس الاشعري ، فرد جواباً :
اما سؤالك عن شيء ولا شيء فان الله قال : وجعلنا من الماء كل شيء حي . واما
كلمة لا يريد الله غيرها فهي قوله : لا اله الا الله . واما مفتاح الصلوة فهو اسم الله . واما
الرجل الذي لا أب له فهو المسيح ابن مريم عليه السلام . واما المرأة التي ولدت من غير
ام فهي امنا حواء . واما الرجل الذي لا قوم له فهو ابونا آدم عليه السلام . واما قبر
سار بصاحبه فهو الحوت الذي ابتلع يونان وسار به . واما الارض التي طلعت عليها
الشمس مرة واحدة فهي ارض البحر الذي انشق قدام بني اسرائيل . واما الشجرة التي
نبتت من غير اصل فهي العمشقة التي نبتت على رأس يونان . واما الذي تنفس من
غير روح فهو الصبح . - المغرب .

ثم قال السفير : ان هذه الاسئلة المقررة مأخوذة عن الكتاب
الشريف :

السؤال الاول : لا إله إلا الله .
الجواب الاول : وقال الله لا تتخذوا إلهين انما هو إله
واحد فايبي فارهبون . - سورة النحل ، ٥١ .

السؤال الثاني : الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها .
الجواب الثاني : وهو الذي مدّ الارض ... - سورة الرعد ،

٣٠٢ .

السؤال الثالث : يخرج الحي من الميت .
الجواب الثالث : ويخرج الميت من الحي . - سورة الروم ، ١٩ .

ان للشرقيين ميلاً قوياً جداً الى ضروب الاحاجي ، وذلك ما
يلاحظ في اساليبهم . وربما كنا نحن الفرنج قد اقتبسناه منهم لانه
كان سائداً عندنا في القرون الوسطى . ان في مقامات الحريري
عدداً لا يحصى من الاحاجي والالغاز على اختلاف انواعها . وقد
أحب العرب كثيراً ان يفهمهم الناس بالتلميح ، فترام يستشهدون
بآيات من الشعر ، او مقتطفات من الكلام الجامع ، والاقوال
التي يجب ان يكون المخاطب ملمّاً بها فيدرك معناها مستعيناً
بذاكرته وسعة اطلاعه .

الفصل الخامس عشر

صناعة اهالي بيروت . غباوتهم . عدم تشجيعهم .
تربية التوت للحزير .

ان حالة الصناعة في بيروت تتلاءم وعقلية اهليها وحكامها .
ويمكنني القول ان الفنون فيها في غاية السذاجة . فالانوال
والدواليب والادوات الاخرى تُصنع جميعها في البلاد وبأسهج شكل
يمكن تصوره . ولما كان العرب يجهلون فن تقسية الحديد (سقايته)
فانهم يُضطرون الى الاستعانة بالمبارد الاوروبية عندما يريدون
الحصول على آلات حادة قاطعة .

انهم بوجه عام غير لبقين . واذا استخدموا المقاييس والزوايا
والزئبق فانما يكون ذلك الاستعمال سطحياً ، ولكي يظهروا للملأ
انهم يحسنون استعمالها . تدلنا على ذلك اعمالهم غير الدقيقة لانهم لم
يتوصلوا ، حتى الآن ، الى عمل زوايا مستقيمة ، وخطوط عمودية ،
وسطوح متساوية ، واتساعات متعادلة دقيقة الصنع . فقلما تجد في
بيروت باباً او نافذة يقومان قياماً مستقيماً على قاعدتهما .

وعندما يُلام العرب على تقصيرهم في اصول فنونهم يجيبون :
« وما تأثير ذلك ؟ انا لسنا مثلكم عبيد هذه الاعتبارات ، ولا
نعلق أي أهمية على هذا التناسب الهندسي . أفلا تكون النتيجة
هي اياها ، سواء أكان الشيء يميل الى الشمال اكثر منه الى اليمين ،

او انه اكثر علواً او اقل وطواً ؟
ان حفى الارجل ينفع العمال كثيراً ، ويساعدهم جداً ، فبالايمام
يوقفون خيوط الفتيلة (الشلة) التي يبرمونها ، وبها يستعينون
على حل الحرير ، ويلتقطون ما يسقط من ايديهم على الارض
دون ان ينحسوا . وطاولات التجارين ومقاعدهم هي اقدامهم وليس
غيرها .

وهنا بوجه خاص يصح قول مثلنا : يصير الرجل حداً بممارسة
الحدا ، لان الحرف تُتعلّم هنا بالتقليد والممارسة . فكل عامل
منهم لا يعرف اصولاً لعمله ، ولكنه تعلمها بصورة تقليدية ، وهو
يعلمها سواه بالصورة نفسها . فأصحاب المهن الذين نجدهم في هذه
البلاد قد خصوا بمواهب ممتازة لفتت انظار الافرنسيين ففضلوهم
على غيرهم واستخدموهم .

اننا نجد في المشرق عدداً من العمال الذين برزوا الى هذا
العالم حائزين على اهلية فريدة ، لا بل على عبقرية غريبة ، فبرزوا
في فن من الفنون كما يبرز ويتفوق رجال السياسة العظام في
اوروبا . الا انهم لا يخلقون أثراً بعدهم ، او يبنون شيئاً . وهكذا

اعتقد اني اخذت فكري هذه عن اراء لامرتين الصائبة حين قال : اتنا نخطيء
عندما نجعل المقارنة بين الشرق والغرب اساساً لتفكيرنا . فنندما يظهر رجل خطير في
الغرب ، يكون دائماً ، والى حد ما ، عنوان الامة التي يحكمها ، فهناك رابطة تقوم بينه
وبين عصره . فبقدر ما يقوى ينشئ ، وبقدر ما يخلق يوطد ، وبكلمة وجيزة انه
يعمل شيئاً يبقى بعده . اما في الشرق حيث لا ثقافات ، ولا علوم ، ولا انظمة سياسية ، بل
هنالك سيد وعبيد ، فالرجل الخطير ليس الا كائناتاً كبيراً ، او حادثاً او شهاباً يلحح هنية
في ظلمات بربرية مستقرة . يأتي اعمالاً كبيرة في هذه الآلاف من الاذرع التي يتصرف
بها ، ولكنه لا يرفع ايداً مستوى امته لتصل اليه ، ولا يبني شيئاً : لا دولة قوية ، ولا

يطويهم الموت ويطوي معهم التقدم الذي أحدثوه في مهتهم . ان ظهور هؤلاء العمال الموهوبين هو شبه بوميض البرق ، ووجودهم في الاساكل يُعدّ حدثاً خطيراً ، فيشعر الناس عند موتهم ان فراغاً حدث ، وهيئات ان يسدّ غيرهم ما سدّوا !

والبون الذي يُرى بين الرجال الذين وهبوا بعض النبوغ ، وبين زملائهم الآخرين في الفنون نفسها ، هو في الواقع شاسع جداً . إلا ان العلوم هنا نادرة الوجود وهي لا تُعصد ولا تُشجع . فالسلطات الاوروبية التي تشجع الاكتشافات وتحمي المخترعين لا تحرك ساكناً في هذه البلدان ، مع ان عمالاً اذكيا يدعون اشياء جديدة بالانتباه . انهم يكتفون باستخدامهم ، وفي اكثر الاحيان يسخرونهم ولا يدفعون لهم اجراً . والعامل الماهر المتفوق في سوريا نكرة فقير لا يترك شيئاً بعده .

نجد في بيروت عدداً وافراً من حاكة الزنانير الحيرية التي تلف حول الحصر او يعصب بها الرأس (يريد الكوفية) ، وعدداً آخر لا يقل عنه من صانعي الصناديق . ان صناديق هذه المدينة ذات اللون الاحمر والاخضر قد حازت شهرة واسعة في جميع انحاء سوريا ومصر حتى استوردت منها كميات ضخمة ، اذ لا بد لكل عروس في هذه الديار من ان تتزود بصندوق مرصع بمسامير مذهبة الرأس .

ثقافة ، ولا تشريعاً ، حتى انه يمكننا القول ، اذا لم نخش هنا استعمال تعبير شعري ، ان عبقرية تطوى بعده كما تطوى خيمته ، تاركاً المكان خالياً خاوياً مقفراً كما كان قبله . هذا هو فعلا الدليل الذي يثبتكم كيف ان الاساليب العربية في الحياة ليست سوى خرافة براءة تُخدع جميع مشايعها . (من خطبة أُلقيت على منبر مجلس النواب) .

وهناك صنف آخر ثمين تخرجه مصانع بيروت يسمى « الكلفا »
Kalva ، وهذا ايضاً يعد من الجهاز الذي تصطجبه العروس ، وهو
عبارة عن عجين يصنع من عصارة مسحوق جذور الكلفا (؟)
والحروب الممزوج بالسيرج .

انشىء في بيروت، يوم كنتُ فيها، فرع لمصانع مناديل حلب
التي اشتهرت بجودتها وجمالها في جميع انحاء سوريا . فكل ما كانت
تخرجه هذه المعامل لم يكن يوازي الكمية المستهلكة . والفضل
في هذا الاختراع المشهور يعود الى احد اولئك العباقرة الذين
يظهرون في الامة العربية من وقت الى آخر . لقد عرف الشرق
قديماً هذا الضرب من الصناعة . إلا انه جدد فيه بعد ان أدخل
عليه تحسينات ذات شأن . فهذه المناديل كانت تصنع فيما مضى
بانكثرة وحدها . وكانت من شاش غليظ جداً . اما علامتها الفارقة
اليوم فطابع مستدير ، احمر اللون ، يمثل كفّ اسد . وهذا الرمز
وحده يثير خيال العرب السريع الانفعال . ولهذا اقبل الناس
على هذه المناديل رجالاً ونساء . تصنع هذه الدفعة من الشمع ،
وبالطريقة نفسها تحول الى لون ازرق دون ان يفسد اللون الاصلي ،
ومن ثم يأتي الكشكش الغليظ ، وهو احمر ايضاً ، فيحيط بهذه
القطعة المربعة الحجم . في هذا وحده ينحصر فنّ هذه المناديل
(الحطّة) التي يفضها عرب الصحراء وابناء الجبل على كل
المنتوجات من بنات جنسها . انهم يريدون جميعاً التلثم بكف الاسد ،
فكانهم يتفاءلون بانها تولد فيهم بعض صفات الاسد الذي هو
كثر الحيوانات عنواً وشجاعة وقوة .
ومدينة بيروت مشهورة ايضاً بأباريقها . اما المنزلة الاولى في

عمل الاباريق فهي لبغداد ، ثم لمصر . ولكن لاباريق بيروت
المصنوعة من الفخار خاصة تبريد المياه لانها كثيرة المسام التي ينفذ
منها الهواء .

ان اهم عمل يتعاطاه اهالي بيروت ولبنان هو زراعة شجر
التوت الابيض الذي يُربى على ورقه دود الحرير . ان تربية دود
الحرير هي العمل الذي يتعاطاه جميع الاهالي لانها تهم بوقت
واحد الرأسماليين واصحاب الصناعة . فالذين لا يستعينون بغيرهم
على حراثة التوت وتربية دودة القز يتعهدونهما هم بانفسهم ، ولا
تقتضيانهم الانقطاع عن اعمالهم ومهنتهم الا شهرين ثلاثة .

يظهر ان تربة بيروت الرملية توافق شجر التوت . وهذا لا
يعني ان هذه الارض الاقل جفافاً تلائم هذه الاشجار لاننا نجدها
اكبر حجماً وانضراً ورقاً في الاماكن التي تسقى فيها .

ان العرب لم يستطيعوا حتى اليوم ، نظراً لافتقارهم الى
الادوات ، ان يخرعوا دواليب (فرّاش) تستطيع سحب المياه الى
علو مترين او خمسة امتار . ولذلك نراهم مضطرين دائماً الى غرس
هذه الاشجار في اماكن منحدره كي يحفظوا لها بعض المناعة ،
لان المنحدرات تكون دائماً اكثر طراوة ورطوبة . ان اغصان هذه
الاشجار تُجمّ في نهاية كل ربيع ، لتنبث من جديد . والدفعة الثانية
من اوراق التوت تنتزع في فصل الخريف فتكون علفاً للبقر
والمعزى ، ولاسيما الخروف صاحب الالية الضخمة (المور) الذي
تعلف كل عائلة رأساً منه ليكون مؤونتها في اثناء الشتاء ،
فيذوّب الشحم ثم يقلب به اللحم . وهكذا يحفظ عدة شهور .
وشجرة التوت تعيش اكثر من مائة عام اذا حرثت وسمّدت .

وإذا لم يعتنَ بها فان عمرها لا يتجاوز خمسة وعشرين عاماً . ان دودة بيضاء يبلغ طولها الستة او السبعة سنتيمترات مسلحة بثنيتين تفتك بأشجار التوت وتنخر جذوعها . ان الشجرة تهلك اذا لم تساعد على الافلات من عدوها . وبعد القضاء على هذه الدودة يجب ان تغطى جذور الشجر ببعر المعزى .

ان خشب التوت الذي تنتشر فيه عروق عريضة حلوة الاصفرار مرغوبٌ فيه من النجارين ، وكثيراً ما يلتصونه ليجعلوا منه مصنوعاتهم كاقفال الابواب والمسارج وقضبان النوافذ وغيرها . وطبعاً يبيع هذه الشجرة الكثير يقنلع الفلاح جميع الاشجار حتى المثمرة التي تنبت على مقربة منها ، اذ يخشى ان تقاسمها عصارة التربة المغذية ، فهو يريد ان تكون لها وحدها .

ان اوقية البز، وهي عبارة عن ثلاثة عشر درهماً ، تغلّ عادة اربع او خمس ربطات حرير يراوح وزنها بين عشرة كيلوغرامات واثني عشر كيلوغراماً . واستغلال مثل هذه الكمية يتطلب عمل شخصين واعتمائهما . وقد انتجت خمس اوقيات بز ، عام ١٨٢٨ ، ثلاثة وثلاثين ربطة ، اي اثنين وثمانين كيلوغراماً من الحرير . وهذا اقبال نادر .

ان اجمل الحرير الابيض هو حرير الضواحي التي تبعد فرسخين عن المدينة ، ويسمى بالحرير البلدي . وهذا يُصدّر كله الى الخارج . اما الحرير الاصفر الذي يعتبر من احسن الاجناس فهو حرير كسروان والدامور . وهذه الاخيرة تقع في منتصف الطريق بين بيروت وصيدا . يستعمل هذا الحرير في مصانع انسجة مدن سوريا التي توليه الاسبقية نظراً لجمال لونه . انه يكسب النسيج لمعاناً

وتموجات حين ينعكس عليه النور . وهذا ما يقدره ويرغب فيه
ذوو الذوق السليم .

وهناك اختلاف بعيد بين الطريقة السورية والطريقة الأوروبية
في استخراج الحرير . وهذا ما يحرم السوريين من المنفعة التي
كانوا يستطيعون اجتناءها .

ان الفيالج (الشرائق) تلقى بلا نظام في مرجل (خلقين) ،
اي انها لا تتقى قبل ذلك . والحيوط التي توضع بدون تمييز على
دواليب الحلالة ، تسحب بعد ان يقطعها ، على التوالي ، دولاب
تقارب دائرة إطاره ثلاثة امتار . وبعد ان يلقي الناظر قضيه
ثانية في الخلقين ، على اثر تحريكه الشرائق ، ينتزعه ، فاذا به قد
علق عليه مقدار كبير من القش جمعه يد القدر . وهذا ما يجعل
الحيوط ضخمة وغير متساوية الطول .

اتيحت لارباب هذه الصناعة عدة ظروف ادر كوا فيها انه
يمكنهم ان يحسنوا عملهم . رأوا باعينهم ، بايدي ذي بدء ، نماذج
من شرائقهم المحولة في فرنسا ، ثم أجريت هذه التجارب وأكملت
على مرأى منهم في مصنعين فرنسيين أسسا في بيروت والضواحي .
الا ان تأثير العادة كان مستحكماً في نفوس هذه الشعوب حتى
انها كانت تفضل مساويء ما اعتادته على اتباع طريقة
مضمون نجاحها . اما اسباب ذلك فتعود الى عدم مبالاتهم ،
وقلة تفكيرهم ، وكرههم للتجديد .

الفصل السادس عشر

- تجارة الفرنسيين الاولى في سوريا . تعيين القناصل .
- قناصل بيروت يحمون المصالح الوطنية من المصريين .
- الكراهية التي توحيا مهمة القناصل .

يُعتقد انه ، حوالى القرن الثامن ، كانت الجولة الاولى التي قام بها ابناء بروفانسيا ، ابطال فرنسا ، الى شاطئ سوريا ، حيث التقوا الفينيقين الذين تبين انهم تفوقوا في آسيا على جميع الشعوب التجارية الاوروبية . والحوادث التاريخية التي تناقلتها عدة كتب تنبئنا بان القناصل الأول الذين عرفوا في سوريا كانوا ايضاً فينيقيين .

ان اصحاب المراكب وربانيتها كانوا هم الذين ينتقون في البدء القناصل ، وكانوا يختارونهم ، دونما تمييز ، من بين التجار المنتشرين في كل مكان لتعاطي اعمالهم التجارية ، شرط ان يساعدهم بارشاداتهم ومكانتهم ، ويسهلوا لهم بيع بضائعهم ، وشراء ما هم بحاجة اليه عند عودتهم ، وان يحموهم على الاخص من المخاطر التي يتعرضون لها في البلاد ، وبكلمة ادق ان يقوموا بحمايتهم من كل تعدد صادر عن الاجانب او المواطنين . وذلك كله في مقابل جعل ما ١ .

وعندما تبين انهم كانوا يضررون اكثر مما ينفعون مواطنيهم
وتجارهم ، أصدرت عدة قوانين لم تمنح بموجبها المراكز الهامة
الا للاشخاص الذين هم من اصل شريف ، وعريقي النسب ، ومن
رعية الملك ، وذوي نفوذ واقتدار .

كانت زيارة الاماكن المقدسة ، باديء ذي بدء ، الباعث الذي
اجتذب الاوروبيين الى هذه البلاد . الا ان حافز الطمع أخذ يمثل
دوره فيما بعد ، فهب اسلافنا ، الذين لا يقلون مقدرة عن اهل
البلاد ، الى مزاحمتهم في التجارة التي تفردوا بها في ذلك الزمان .
« وحينذاك - وهذا ما نقله السيد دي بوكافيل - شوهد حشد
غفير من زائري الاماكن المقدسة ينزلون الى شواطئ فلسطين
وقد اتوا مدفوعين بحبهم للتجارة اكثر منهم بالتقوى ، لان
الفينيقيين وتجار فردان كانوا يتاجرون بالرقيق الابيض ، فيبيعون
مواطنيهم من المغاربة ليستخدموهم في حراسة حريمهم ٢ . »

ومهما تكن الاسباب والدواعي ، فان العلاقات التجارية لم
تستقر بصورة منظمة الا في اثناء الحروب الصليبية حينما انشئت
لها مؤسسات خاصة . عند ذلك تدخل الباباوات ليعاضدوا بسلطتهم
الحقوق الممنوحة للتجار . ويروي السيد دي بوكافيل ان
غريغوريوس التاسع ايد ببراءة الامتيازات التي منحها جيان دي
بلين لاهالي مرسيليا ، وكان يومذاك سيد بيروت ايضاً .

اننا لا نزال نجد اليوم في مجموعة نظم مدينة مرسيليا قانوناً
خاصاً يتعلق بالقناصل ، صدر عام ١٢٥٣ . وتشير احدي مواد هذا

القانون الى العهد الذي كان يقطعه القناصل على انفسهم ، حالفين
اليمن بانهم لا يصحبون معهم ولا يدخلون احدى بنات الهوى
الى البلاد الخاضعة لسلطانهم . وهذا ، طبعاً ، يمت بصلة الى الاتجار
بالرقيق الابيض الذي استمر بطريقة سرية .
وكان يلحق بالقناصل ، الذين كان يقتضي ابداهم كل سنة ،
كاتب رسمي يقوم بوظيفة محرر .

على ان مغادرة الصليبيين سوريا كانت ضربة قاضية على
المؤسسات التجارية التي لم يُفكر في انعاشها الا بعد انقضاء زمن
ما ، فكنا كأننا نبتديء من جديد . ويظهر انه ، بهذه المناسبة
نفسها ، قد تمكنا من تعاطي التجارة مجدداً في الشرق بواسطة
الفيينقيين ايضاً . وهكذا وجه الافرنسيون خطاهم الاولى نحو
مصر . وشعر لويس الحادي عشر بضرورة دعم هذه الاعمال
التجارية الحديثة العهد ، فمنع بضائع الشرق من دخول المملكة
الا اذا كانت محمولة على مراكب وطنية .

والمظنون ان تاريخ اعادة قنصليات فرنسا الى طرابلس وسوريا
وبيروت وقبرص يرقى الى مطلع القرن السادس عشر . قال
صاحب المذكرات التاريخية الديبلوماسية : « ان القناصل لم يكونوا
يُخرجون حتى الى ردة الزيارة الا تحت مظلات ترفع بالاجهة نفسها
التي نشاهدها في احتفالاتنا الدينية . وهذا التقليد ، الذي يبدو لنا اليوم
مستهجنأ ، كان يراعى يومذاك بدقة ، وقد يكون ذلك حقاً
لان الشرقيين عبيد يجب ان يبهروهم بهاء جهاز مهيب ٣ . »

وهذه العادة هي ، فيما عدا ذلك ، ذات صلة وثيقة بالزمان .
ان موظفي السلطات التركية كانوا انصاف الهمة . ولهذا وجب
ان يحاط القناصل بكل ما يستطيع من الاجلال .
تمتع الافرنسيون الذين اقاموا في سوريا بسلطان الامتيازات
التي اقرتها المعاهدات المختلفة المعقودة مع الباب العالي ، وانهم
مدينون بهذا لنشاط القناصل الذين حافظوا عليها ولقدرتهم ، فلم
تمس في اثناء الاحتلال المصري . اراد الذين كانوا يحكمون باسم
محمد علي ان يزعموا ان سوريا ستحكم طبقاً للشرائع المتبعة في
مصر ، وهي الشرائع التي تلغي الضرائب وغيرها من التقاليد
البالية . بيد انها لم تكن غير محاولات جربت فباءت اخيراً بالفشل .
ان هذه الاجراءات الهامة التي راوها في اوروبا ضرورية ،
وهي في الحقيقة نافعة ، لا تنتج الا المساوىء متى كانت في ايدي
سلطات تشبه السلطات السورية ، هذه السلطات التي يقف منها
الاوروبيون موقفاً شريفاً ، في حين ان السوريين لا يتعاطون
معهم الا بكرهية ظاهرة ناتجة عن قلة الثقة .
اما فيما يتعلق بالافرنسيين فان جميع المؤسسات يعهد بها ، في
الاساكن ، الى الضباط الذين يوفدهم الملك ليقوموا بادارتها ، وكان
السلطان قد منحهم السلطة المطلقة في تولى شؤون مواطنيهم ،
فكانوا يمارسونها بجرأ وبراً .
وهكذا نتج عن هذا القرار الملكي ان الفرنسيين امسوا
خاضعين لشرائعيها في تعاملهم مع بعضهم . وهذا القرار مبني

على المبدأ القائل بوجود اعتبار المواطنين الفرنسيين الذين يقيمون في الشرق كأنما هم في مستعمرة ، بقطع النظر عن شرائع البلد التي لم يشعرهم بها قنصلهم .

وقد اثبتت التجارب الطويلة ان الضمانة التي يستطيع افرنسيو اساكل المشرق الاعتماد عليها ، والمنافع التي يجنونها من اتجارهم فيها ، كانت تتركز على حماية نشيطة وسياسة موالية لمبادئ دولة السلطان ، والمعاهدة المعقودة مع هذه الدولة ، وعرف رعاياها وعاداتهم .

اما المؤسسات الافرنسية فهي ، بلا شك ، احسن تنظيماً في الشرق من مؤسسات الدول الاخرى . الا انه بعد الانقلابات التي حصلت في فرنسا لم تعد الانظمة المطبقة في مؤسساتنا تتناسب وانظمة وطننا الام . ومن هنا نشأ الميل الى العصيان ، فذهب بعض المواطنين الى انه لا يجب الخضوع لقوانين تقتضينا اكثر مما تنص عليه شرائعنا . وقد ساعد على ذلك تردد القناصل المتواصل في تطبيق القوانين التي اعتبروها تتجاوز حدود سلطتهم بعد وضع نظامنا الجديد .

ان مخالفة الانظمة تعود الى عامل سياسي هو الخطأ في الرأي ، فهو يلعب دوره في بعض الاحيان حتى في هذه البلدان البعيدة . لقد خلق لي موطني عدة متاعب . الا اني لم اشاهد بينهم دعاة سيئتي النية يبشرون بذهب التسامح السامي ، ثم يخوفون الموظف المتقلقل فيحجم عن استخدام مواهبه ونشاطه لخدمة الامة ، لانهم

مقدمة قانون ١٧٨١ .

يصورون له صفاته القيمة كأنها من الطبيعة الماكورة ، وواجباته
كأنها مشاكل معقدة . وهكذا تعجز السلطة ، التي تعاكس في
سيرها ، عن ممارسة حقوقها ، فتتجسر في نطاق ضيق ولا تعمل الا
عند الحاجة الملحة . وما هكذا يجب ان يخدم جلالته . ان اوامره
مهما تكن نافذة ، يجب ان تكون لها قوة القانون ، ولكي تحترم
يجب العمل بها وتنفيذها بلا هوادة .

كانت وزارة الخارجية قد باشرت تحويل انظمتنا عبر البحار
وتصحيحها . إلا انها توقفت عام ١٨٣٤ بعد ما نقحت بضعة فصول
من احكام قانون عام ١٧٨١ . ثم انها في سنة ١٨٣٦ نشرت القانون
الجديد المتعلق بجمع الجرائم وعقوبتها . وهذا العمل الاخير يرغب
فيه كثيراً من يميلون الى التقيد بنظام ، ويشعرون ان التقيد
بالانظمة المحكمة التنسيق تقيداً دقيقاً ، توطيداً لاتحاد الفرنسيين
القاطنين في الشرق . وهذا الاتحاد هو الزاوية التي يبنى عليها
كيانهم ، وفيه كل قوتهم . فالفوضى التي تسود اليوم اعمالنا في
تركيا انما هي دعوة الى نهج مثل ذلك النهج للتملص من عنف
قوانيننا . وبما انه لم ينظم شيء في هذه البلدان ، ولو بصورة تقريبية ،
فمن الضروري ، اذن ، ان يكون لعلاقات مواطنينا برؤسائهم
استقرار شرعي لا يمكن الانحراف عنه مطلقاً .

انني بناءً على هذا الاساس ارى مهمة القنصل توشي ارتياحاً
تاماً . انها عادة جازمة وصلبة . وهذا ما يجعلها مفيدة ومحترمة .

ان قانون عام ١٧٨١ والانظمة الملحقه به قد ادت الى احاطة
قناصل الملك بكثير من الاعتبار ، فاحتفظوا دائماً بحق التقدم على
جميع قناصل الدول . اما اليوم فأخذ وزراء السلطنة للعثمانية

يعاملونهم على قدم المساواة . ان عدم الاستقرار على حال ، في هذه البلاد ، يجعل المهمات القنصلية شاقة جداً . فتارة يتوجب على القناصل ان يقاوموا السلطة العليا للحصول على اوامر تعيد الينا ما أنتقص من معاهدتنا ، وطوراً يقتضي عليهم ان يدعوا المرؤوسين الذين يجرّفون مضمون هذه الاوامر . ان الاوامر الاكثر وضوحاً تُنسى في بحر شهر واحد في اغلب الاحوال ، وهنا الطامة الكبرى ، ولاسيما اذا استوجبت المطالبة بها مقاضاة الرئيس ٦ .

غير ان العمل في هذه البلدان لا يشبه العمل في اوروبا ، وهو ينقلب رأساً على عقب بين ساعة واخرى . ان الصداقات الخاصة تسهل العمل اكثر من الاوامر الصادرة عن العاصمة . ففي هذه الصداقات تميد عظيم لطرق القناصل ، ويمكنني ان اكرر هنا بان ارتشاء رجال السلطات او لين جانبهم امام الصداقات هو الذي يقينا شر تعصبهم وظلمهم . فالخدمات التي التمسها القناصل من ذوي السلطة قد حصلوا عليها في مناسبات شتى . ان رجال الدولة يحتاجون في حل مشاكلهم الى وسطاء غير قابلي الرشوة . ولما كانوا جد حذرين فانهم يتلمسونهم عندنا . ولهذا يتوسط الجهاز القنصلي ، في حالات الثورة على الحكام ، ليعيد الامن الى نصابه . كانوا يعتبرون القناصل ، فيما مضى ، رهائن في الاساكل ، بيد انهم رهائن لطيفة يجب ان تعامل بلين . فما من عمل أجدى من

٦ ان هذه الملاحظة ، التي كتبت على عهد محمد علي وكان يمثله في دمشق ضابط سوري ، لا تطبق اليوم الا بالنظر الى السلطة المحلية .

مطالبة الدولة بحماية التجارة ، والحفاظة على أمن صحيح في البلدان
الخاضعة لاعمال القناصل ، على ان تزورها غالباً سفن جلالة الملك ،
فيرى الناس بدهشة هيئتها الفخمة .

كنت على ظهر الباخرة « ايفجيني » التي تقل صاحب السمو
الامير ده جوانفيل ، فأعلنوا وصول حاكم بيروت . فتقدمت الى
جسر السفينة لاقوم بالترجمة ، فرأيت عليه الاستغراب الذي فوجيء
به عند وصوله الى الشاطئ . ومع انه شاهد منذ ايام قليلة اجمل
بارجة اميركية ، ومثل هذه البارجة لا تنزل الى البحار إلا بعد
ان تستكمل زينتها الخاصة ، قال لي : لا وجه للمقابلة ، فهنا الروعة
والاناقة بأسمى معانيهما .

ان اكبر مرارة يشعر بها القنصل ، في اثناء قيامه بمهمته ، هي ان
يرى نفسه مضطراً الى الابتعاد عن وطنه ، وان يعيش شبه منسي .
ففي فرنسا ، سواء أكان ذلك في الجيش او في البحرية ، تقدر
اعمال كل امرىء دون ان يكون للوساطة يد في الدلالة على
اعماله المشرفة : ان عدل الرؤساء يأبى ان يبقى واحد منهم منسياً ،
فالوزراء هم الذين يقترحون على الملك ترقية الموظفين ومكافأتهم ،
والحق يقضي ان يكافأ كل من احسن العمل . إلا انه في بعض
الامكنة التي تُتَاول فيها وظيفتنا القنصلية ، قد يبدي القنصل
المتفرد باستحقاقه دهاء عجبياً فلا يعود عليه ذلك بأقل شهرة .
لقد رموه في فم المهالك كخفيو نحاطر به ، ثم نسوه ، فامسى
ولا عزاء له سوى راحة ضميره وتهاني مواطنيه المحيطين به في
دار غربته . ان هذا كثير بلا ريب ، وهو كاف للفرنسي الذي
خلق اقل حياً للفخفة . اننا نود ان نُحِبَّ عندما نخدم . فكيف

الفصل السابع عشر

تفريق بين القناصل ونواب القناصل والوكلاء .
المساوىء التي نتجت في سوريا من جراء تعيين
بعض « الرؤساء » في هذه المراكز .

اعتاد الناس ألا يميزوا بين الدرجات القنصلية فيطلقون اسم
القنصل على نائبه وعلى وكيله . فالملاك القنصلي الفرنسي مؤلف من
درجتين ، اولى وثانية ، ومن نواب قناصل ووكلاء . وهؤلاء كلهم
يعيّنون من المواطنين ، ولا يكونون من « الرؤساء » الاجانب إلا عند
الافتقار الى فرنسيين ، ولدواع هامة . والملك هو الذي ينتقي جميع
قناصلنا ويصرف لهم رواتبهم . اما النواب والوكلاء فقد تُرك حق
اختيارهم للقناصل ليستطيعوا توجيههم في الطريق الامثل والاجدى
نفعاً ، ويكسبوا احترامهم . ولما كان هؤلاء القناصل يعرفون ما
عليهم وما لهم نحو رعايا الدولة التي يخدمونها ، والبلاد التي يقيمون
فيها ، فانه يسهل عليهم ان يسدوا الى نوابهم ووكلائهم النصائح
الملائمة عندما يتجاوزون حدود النظام ، او يخالفون التقاليد المتبعة
في البلاد .

ليس بين الدول الاجنبية دولة تعين حكومتها القناصل سوى
انكلترة وسردينيا . اما الدول الاخرى فتكل هذه المهمة الى
السفراء الذين قلما يجدون بين رعاياهم أكفاء لهذه المناصب .

ان انظمتنا تحظر على الافرنسيين قبول أية مهمة قنصلية من
حاكم اجنبي او من ممثليه . وهذا المنع هو في منتهى الحكمة ،
وبه يسود الامثال التام بين مواطنينا ، ولكن هذا المنع لا
يتعارض مع حماية رعايا الدول التي لا قنصل لها عند الضرورة .
ان نظامنا يوصي بهذه الحماية التي اشتهرت بها فرنسا ، وكان لها
دائماً فضل حماية الاشخاص الذين التجأوا الى موظفيها اينما وجدوا .
قد تكلف هذه الحماية كثيراً من يقوم بها ، وهي دائماً بلا عوض
بالنظر للمحمي . ولكنها مجد وطني لا يقدر شرفه إلا من يذهب
الى الشرق ويقف بنفسه تجاه الشدائد وجهياً لوجه . ولو كانت
الثقة متبادلة بين الدول لألغت عدداً ضخماً من المراكز القنصلية
التي تحط من كرامة دولة انشأتها لتعزيز مركزها ، وتضر بها اكثر
مما تنفعها . ان ذلك يكون متى ايدت جميع الدول طريقنا الحازمة
في تنظيم مهامها القنصلية .

وعندئذ لا نبقى في جميع الاسا كل إلا قناصل مواطنين .
وحيث لا يمكن ايفاد احد منهم ، فالذين يقيمون هناك يحصلون
على مساعدة التجار والربانة والسائحين الاجانب . وهكذا تصبح
الخدمات متبادلة . فبنسباً مثلاً يوكل امر الحماية الى قناصل فرنسا
والنمسا ، وهناك تتعهد قناصل انكلترا وروسيا وسردينيا وبروسيا
الخ ...

ان محمد علي ، بعد ان اجاز اسناد هذه المهمة الى « الرؤساء » ،
لم يعد يبرى شيء في الاسا كل اكثر ابتداءً من مراكز الوكلاء .
انه لم تبق اسكلة معروفة بعض الشيء ، لا تزيناها على الاقل
نصف دزينة من الصواري المرفوعة عليها الاعلام . وهكذا اكثر

عدد الذين لا يصلحون لهذه الوظيفة ، فأصبح بعض القناصل ينظرون الى ما تدرّ لهم الاجازات الممنوحة من ارباح ، اكثر مما ينظرون الى اهلية ملتسميها واخلاقهم .

ان اجمل احلام العربي هو ان يكون قنصلاً ، فليس غريباً ان نراه يحشد جميع ما يملك من قوى ووسائل للحصول على هذا المركز . ولذلك يُعذر المصريون على جعلهم « الرؤساء » قناصل . والسلطنة العثمانية التي ابت دائماً ان تعترف برعاياها المتخذين صفة اجنبية ، اخذت تميل الى التغاضي عن هذه البدعة لتثبت انها اصبحت تعطف على « الرؤساء » .

لا مشاحة في ان هنالك اناساً من العرب الالباء لم يندشوا في مراكز وكلاء القناصل الاملجاً منيعاً يحتمون به من تعسفات السلطات المحلية . الا ان كثيراً منهم ، ويا للأسف ، يعدون اجازتهم هذه براءة تقيهم العقوبة ، فلا يخشون شيئاً بعد ما يحصلون عليها . والقناصل الذين منحوهم هذه الوظيفة مرتشون يحمون ظهورهم حين يسيئون العمل . ان امثال هؤلاء يبصقون في حوض الجهاز القنصلي كلما لاحت لهم منفعة حقيقية او وهمية يجنونها عن طريق الوساطة او الرشوة . ومثل هذا الاتجار يؤدي الى اسوأ العواقب التي تحط من كرامتنا ومصالحنا العامة .

ويجدر بنا ان نقرر هنا بانه لا يليق بـ « الرئيس » مطلقاً ان يقف من السلطة التركية موقف اوروبي بسيط . فاذا كان امثال هؤلاء الموظفين المقتقرين الى مواهب لا يعني عنها النفوذ الشخصي ، لا يستطيعون اثبات وجودهم ، لانه ليس بامكانهم المحافظة على الكرامة او القيام بالتكاليف الثقيلة التي تتطلبها صفات القنصل

المنووحة لهم منعاً ، فكيف يمكنهم التوفيق بينها وبين انفسهم
في تجارتهم او تعاطيهم مهنة ليعيشوا منها ؟

ولسنا نزعهم فيما قلنا انهم لم يابهوا للصفة القنصلية التي
اكتسبوها ، فالحق يقال انهم افرطوا في تقدير قيمتها حتى تجاوزوا
حدود الخيلاء والعظمة ، واحبوا كثيراً الفخفة التي لا قيمة لها .
فالانانية المفرطة التي يتصف بها هؤلاء القناصل الذين عينهم
قناصل آخرون ، استمد الاكثرون منهم سلطتهم من سفراء
القسطنطينية ، تذكريني ، ولا شك ، بالفكرة التي ختمت بها فصلي
السابق . فبينما يجعل هؤلاء الموظفون اكبر اهمية لانفسهم نرى
انفسنا ، نحن الذين نمثل حكومتنا لا سفراءها ، خفراء دفع بهم
الى مكان قصي خطر ، ثم لا نستغرب هذا الضرب من النسيان
الذي تقابلنا به دولتنا .

فهل يُظن اني احقر مهنتي ولا اتعمد إلا المبالغات ؟ اني لم
اكتب سطرأ واحداً في هذا الكتاب إلا بعد ما اشبعت موضوعه
درسا ليكون صحيحاً كل الصحة .

لا انكر ان بين قناصلنا في تركيا رجالاً اكفاء يملأون
كراسيهم وينعمون باحترام فائق . وقد يكون مقام هؤلاء هو
الذي جعل السائحين الجدد منا يتخيلون قنصليات المشرق أسرة
حريو او مناصب كهنوتية .

فانا الذي يقلقني مصير ابناء وطني ارى لزماً عليّ ان اقول
للذين يفتشون عن مركز يشغلونه في تركيا ، على أمل ان ينعموا
بالمسرات التي وعدهم بها المؤلفون الذين قرأوهم ، ان لا يتسنبوا
مراكزهم إلا اذا كان لهم حام يستطيع دعمهم اذا ما تززع

منصبهم الصعب وظهر اخفاقهم .
ان الاكثار - دون اتباع قاعدة او اجتناء نفع ملموس -
من القناصل والموظفين الذين يلتصقون هذه المناصب طمعاً بالمنفعة
الخاصة ، كان السبب في وقوع مشاكل متواصلة ، ودعاوى مريبة ،
سببها الحسد وغيره بعضهم من بعض . وشد ما تضايق قناصل
فرنسا من هذه الحالة ، لان مفوضيهم انغمسوا بعض الاحيان في
هذه المشاكل ، فأضطروهم الى اتخاذ اقصى التدابير كيلا تسوء
سمعتهم ، اذ يصعب التوصل الى نيل حق من محاكم القناصل
الاجنبية .

وإذا كان لقب قنصل أسمى ما يطمح اليه الشرقيون في
الشهرة ، فكثيرون من الاوروبيين ينشدونه أملاً بالاستفادة
والمنفعة الخاصة . إلا ان هذه الوظيفة ليست عند الجميع ستاراً
للدسائس الذئبية والاتجار البشع . وقد عرفتُ عدداً كبيراً من
القناصل ووكلاء القناصل الافرنسيين جدّ شرفاء ، سواء أكان
ذلك بالنظر الى صفاتهم الشخصية ام بالنظر الى ممارستهم عملهم
الرسمي .

وهناك ايضاً فئة من الناس لم يطمحوا الى هذا المنصب الا
تهرباً من متاعب قنصلهم . واول فائدة يجنونها تكون في وضع
الوكيل تحت تصرفهم المطلق ، ومنحه صلاحية تسهيل اعمالهم
وقضاء حاجاتهم مع السلطات المحلية .

طلب مني ، في اثناء قيامي الطويل بالمهمة الموكولة الي في
الشرق ، قضاء حاجات من هذا النوع لقاء قبضي مبلغاً كبيراً
من المال ، بحجة ان وكالة احدي الدول الاكثر نفوذاً في هذا

البلد ، هي تقبض بدورها ايضاً . ولما كان التلميح من خصائصنا
فقد احببت ان اجيب ان قوانيننا تحظر علينا تعيين « الرؤساء »
وتحرم على الافرنسيين قبول مناصب اجنبية .
الا ان بعض الاجراءات المخالفة للانظمة شجع فريقاً من
المواطنين على تجديد محاولاتهم . ولما احببت ان اعرف لاي سبب
يحاولون اكتساب صفة تمنعها قوانيننا ، كما ان الدولة التي يراد
تمثيلها ليس لديها في الاسكولة المذكورة بيوت تجارية ولا ملاحه ،
أجبت اذ ذاك بانها مفخرة فقط ، فاكتفيت بالقول : « ان الصفة
الافرنسية هي مشرقة في نظري اكثر من جميع الالقب الاجنبية
التي يمكن منحها . واني لأحمرّ خجلاً اذا فكرت في تقيض ذلك . »

الفصل الثامن عشر

ترجمة . مستشارون (مهردار) . مساعدو الترجمة .
سماسة . موظفون آخرون .

في المشرق فئة اخرى من الموظفين ليست باقل نفعاً . ان الترجمة الذين يقومون بمهمة مستشارين ايضاً يجب ان يقسموا طبقتين ليس إلا . فليست آفتهم انهم لا يقومون بالخدمات المجدية وحسب ، بل انهم يسببون اضراراً . كانوا يطرون في عاصمة السلطنة العثمانية مواهب الترجمان الذي هو من الطراز الاول ، حتى قالوا : الدولة هي الترجمان . واذا استعملنا التعبير نفسه امكنا ان نقول : الترجمان ، في بعض الاماكن ، هو القنصل .

اما اليوم بعد ما أخذ السفراء يزورون السلطان ووزراء الدولة بدون وسيط فيتفاهمون ، وابتدأ القناصل يراجعون بانفسهم البلاشات في شؤونهم الهامة ، فان اهمية الترجمان ، وان لم تصبح عديمة الفائدة نظراً للمناسبات التي يعتاض فيها عن الحق بالخدمة ، قد فقدت كثيراً من اهميتها . بيد انه لا يمكن الاستغناء عنها لاضطرار القناصل الى اتباع اساليب غير شرعية لكيما يتغلبوا على المصاعب التي يلاقونها في الشريعة الاسلامية . ان تلك الاساليب تستغرق بحثاً طويلاً ، وهنا عمل الترجمان . ولكيلا يظن اننا تعلمنا ان نعوي مع الذئاب فاني اسأل القاريء : أيفضل ان يرجع

عن ادعائه بسند قديم مات الذين شهدوا بصحته ، ام ان يشترى
شهوداً جدداً يصرحون ، لدى مشولهم امام القاضي ، بانهم كانوا
حاضرين لدى توقيع العقد ، على الرغم من ان اسمهم لم يذكر
فيه ؟ واذا عولنا على شراء هؤلاء الشهود فلا بد لنا من تلقين
هؤلاء الاشخاص درساً كافياً ليحسنوا الاجابة عن الاسئلة التي
يمكن ان يطرحها القاضي عليهم . وهنا عمل الترجمان ومقدرته .
قتل خادمُ احد الافرنسيين شاباً . كانوا ثلاثة فتبان يقبلون
بندقية بعد ان افلتت منهم الطريدة ، فقتل الشاب قضاء وقدرأ .
غير ان العدالة لا تسلم مطلقاً بهذه الاسباب التخفيفية . فالقاتل
يجب ان يُعدم . اهتمت بتمهيد سبيل الفرار للخادم ، وسعيت لحل
عائلة القتل على القبول بالدية . إلا اني لم اوفق الى تهدئة روعها .
فصار حضور الافرنسي الشاب امام المحكمة المحمدية واجباً .
فعمدت الى القيام برشوة القاضي لاربح القضية . وكان لي ما اردت .
فبردت همّة القاضي ، مع ان اوامر الباشا لا تفسح في مجال التأجيل
والتأخير .

عرفتُ تراجمه لا يرون شيئاً مستحيلاً . ولما كانت الامور لا
تعالج كلها على نمط واحد ، لان الاساليب الاكثر لفاً ودوراناً هي
التي تؤدي ، بلا ريب ، الى النتائج الطيبة ، كان على التراجمة ، متى
كلفوا بحل قضية صعبة ، ان يقوموا بمجهود كبير ، ويدبروا حيلة
ناضجة ، ويبدلوا نشاطاً عظيماً . انها هنا تظهر مقدره الترجمان
والحاجة اليه .

كنت جد سعيد بمعاونتي في اثناء اقامتي الطويلة في بيروت ،
لاني بعد ان فقدت السيد فليكس دابون الذي لم يكن ينقصه

الا عدم معرفته التريكية ، حظيت بالسيد ف. جوريل المستشار
في الاسكندرية اليوم . اظهر هذا في مواقف كثيرة انه من خير
تراجمنا الألباء . واني اود ان احيي فيه ذكاه وعرفانه للجميل
واخلاقه الطيبة . وها انا اعدّ لهذا العمل السيد حبيب برباره
معاون ترجمان ، وهو على جانب كبير من الذكاء . كانت تعوزه
اولاً معرفة ان الحجة الصغيرة هي عادة اجدى نفعاً من الدسائس
والادلة التي ليس لها سوى الظاهر .

ان الشرقيين صحيحو التفكير على قلة محصولهم من الثقافة .
واذا خدعتهم البراهين فانهم لا يصرون على ما اعتقدوا صحته اذا
ما بدت لهم الحقيقة ولسوها .

ومنذ مدة ليست ببعيدة شرع التراجمة يزوون في دواوينهم
مستسلمين للكراهية التي يشعرون بها ، هذه الكراهية الناتجة عن
عدم استطاعتهم القيام بمهمتهم بصورة يحصلون فيها على تعويضات
كافية ، لان معرفة لغات الشرق لا تكفي ، فهناك عادات وطرق
واساليب تختلف كل الاختلاف عن عاداتنا وطرقنا واساليبنا .
ولهذا تكون الخدمة ناقصة اذا احسنا هذه ولم نعرف تلك معرفة
كافية . وهذا ما يولد المقت والكراه في نفوس تراجمنا ، فيهلعون
لدى مجيئهم فتيناً الى الاساكل ، اذ تتراءى لهم الصعوبات الواجب
تدليلها ليستطيعوا خدمة وطنهم . اما فيما عدا ذلك فالمناصب على
اختلاف درجاتها شريفة كلها ، يشعر المرء عند ممارستها بلذة لداء
الواجب واسداء المنفعة في كل المناسبات .

اجل ، ليس بإمكان هؤلاء ان يحتلوا جميعاً المقام الاول في
مختلف الحالات . بيد ان الكفاءة هي هي ، سواء أكان ذلك

عند القيام بأعباء المناصب الوضيعة ، او المناصب الأشد رفعة
وخطورة . كان التراجمة الأول من الارمن الشباب الذين أوفدوا
الى الاساكل ، وعلى الاخص الى القسطنطينية ، بعد ان تلقنوا
دروسهم في باريس . ومن هنا جاء اسم مدرسة الارمن .
امسى معاونو التراجمة حاجة لا يستغنى عنها ، بقطع النظر عما
ينتج عن تصرفاتهم من عواقب وخيمة ، نظراً لميل الشرقيين
القوي الى الاحتيال والفساد . ولهذا يتوجب السهر عليهم .
اننا نجد بينهم ، ولا شك ، موظفين يتمازون بصفاتهم الطيبة
ونبل اخلاقهم على الاخص . غير ان عدداً كبيراً منهم يرتكبون
اخطاء كبرى ، حتى انهم يحققون كلمة قالها احد سفرائنا المشهورين :
ان التراجمة هم طاعون ثان .

لا يعني سفيرنا بقوله هذا الا التراجمة الشرقيين الذين عرفهم
يومذاك ، ثم تراجمة بقية الدول بوجه عام . وانا استثني من
كلامي التراجمة الفرنسيين الذين احترمهم كثيراً . اني اقدر مساعداتهم
المجدية . وملاحظتي هذه لا تطبق على العرب الذين هم في خدمتنا
فحسب ، بل على تراجمة القنصليات الاخرى اذ ان لدى كل واحدة
منها ثلاثة منهم او اربعة .

ان مساوىء التراجمة ، ومساوىء التجار والساسة والكتابة
والمستخدمين الذين حماهم هؤلاء التراجمة ، قد سببت عدة شكاوى
وملاحظات امام السلطات . وهذا ما كان يرهق خزينة القناصل
ويلحق الضرر بوعاياهم ، حتى اذا ما مست الحاجة الى المال وجدوا

الحزينة فارغة نظراً للخسائر التي تحملها القناصل في المصالح الأجنبية ،
ان قانون ١٧٨١ المعتبر بحكمته شاء ان تكون الحصانة على
الوظائف وليس على الاشخاص . وطبقاً لهذا المبدأ فان قناصل
فرنسا ابوا دائماً ان يستعينوا برجال يرتشون .

ان الهدف الذي كان يرمي اليه الشريقيون ، اذ يرغبون في
حماية افرنسية ، لم يكن ينحصر فقط في التفتيش عن عضد يحميهم
من التعديات ، ولكنهم كانوا يرمون ايضاً الى التخلص من جميع
التكاليف ، لانهم اذا لم يعتبروا من رعايا الذات الشاهانية سقطت
عنهم الكلفة ، ونعموا بالامتيازات التي يظفر بها الاوروبي . ولهذا
كانت السلطنة تعارض الحماية وكل ما يشبهها بما يعصم من التكاليف ،
ولم تكن تسلم بها الا بشروط معينة . ولكن هنالك قناصل لم
يكونوا يقفون عند هذه التخوم ، فيتاجرون على حساب مكانتهم
بالسلطة الممنوحة لهم ، فيوزعون المناصب الوهمية .

ان المحيين ينغمسون ، كموظفي دور القنصليات ، في تعاطي
الاعمال الخطيرة دون ان يعوقهم عائق عن الحصول على المنافع
التي تكسبهم اياها الحماية التي نالوها .

اما اليوم فقد عدلت السلطنة العثمانية عن اعطاء الاجازات
التي كانت تجعل « الرؤساء » الموظفين في متاجرنا من ذوي
الامتيازات ، وحببتنا ان الظروف قد تغيرت ، وانهم اصبحوا في
مأمن من التعديات التي كانت تقع قديماً . اما ما ترمي اليه من
وراء هذه الحجة فهو الزام الموظفين الرؤساء بدفع الضرائب
المتروبة عليهم شخصياً . واذا رضخنا لما تدعيه السلطنة العثمانية
فسوف نندم ، لانه يستحيل علينا بعد ذلك ان نداعي بحقنا القديم .

الفصل التاسع عشر

تجارة بيروت . اهميتها . الاساليب التي يجب ان تتبعها فرنسا في سبيل ازدهارها .

تتمتع مدينة بيروت في الخارج بشهرة تجارية حازتها بحق . فهي اليوم اكثر المدن السورية إنتاجاً للمنتوجات الصالحة للاعمال التجارية . حبتها الطبيعة مرفأً اميناً ، فأصبحت ملتقى سفن اقطار العالم الاربعة . ورثت هذه المدينة الالهية التي ادركتها عكا ويافا وصيدا وطرابلس واللاذقية في مختلف العصور ، ولم تعقها عن ذلك معارضة الباب العالي الذي ناهض دائماً ، لا بل منع ازدهار التجارة عن طريق بيروت لانها كانت اقطاعاً من الجبل .

وعندما اصبحت هذه المدينة تحت حكم السلطان المباشر ، لم يجرؤ الاوروبيون قط على الاقامة فيها ، لانها كانت خاضعة للجزائر المشهور بكرهه للافرنسيين الذين اخرجهم من ولايته .

أنشئت أولى مؤسسات بيروت في اثناء الحرب البحرية ، على عهد سليمان باشا الذي انسى الناس ظلم سلفه ، واعاد الاطمئنان الى سوريا .

فأخلاق هذا الوزير المتناهية في الحلم والوداعة شجعت « الرؤساء » كثيراً ، فلم يجدوا اية صعوبة في الاستقرار بهذه المدينة ، اذ رأوا فيها حصناً اميناً نظراً لقربها من الجبل .

كان هذا الباشا يتعاطى التجارة ، وكان التجار يومذاك لا يستطيعون شراء جميع المتوجات التي كانت في حوزته نظراً لقلة رأس مالهم . ولهذا كانت تعقد صفقات مفاوضة بينه وبين شاحني المراكب الذين كانوا يترددون على سوريا في اثناء الحرب .

كنتُ في بيروت عام ١٨٠٩ عندما وصلت باخرة افرنسية « بطة جنوى » مدججة بالبضائع ، تنشد الثروة . وكان في ادارة الجمر ك مأمور مكلف ، من قبل سيده ، مفاوضة من ينزلون الى الشاطئ ، فأرسل يستقدم القبطان اليه . واذ كانا محتاجين الى ترجمان ، دعيتُ انا للاهتمام بقضية تخص سليمان باشا صديق الافرنسيين . فعقدت الصفقة على حمولة الباخرة كلها دون اقل عناء . وهذا ما يحدث حيث تكون الصراحة متوافرة والنية الحسنة . فمدير الجمر ك لا يستطيع ان يكون سمساراً لانه يمثل سليمان باشا ، والمثل في هذه البلاد يقول : الناس على دين ملوكهم .

وقبل ان انتقل من هذا الموضوع لا بد لي من ابداء شعور ازعجني ، شعور اوحته اليّ هذه الفكرة التي اوردها . لقد شيدوا ضريحاً فخماً للجزّار ، في حين ان ضريح سليمان باشا يكاد يكون مشاراً اليه فقط . وهذه بادرة اخرى يجب ان تدوّن هنا لتدل على اننا والشرقيين على طرفي نقيض في كل شيء .

ان رفات هذا الظالم ، احد اولئك الرجال الذين لم يرو لهم الشرق مثيلاً في تعطشهم الى الدماء ، يوضع في ضريح فخم ، اما اشلاء صديق الانسانية الذي كان يسميه المسلمون باباس باشا ، نظراً لتحليه بصفات الراعي الصالح ، او الكاهن الجليل ، حسب التعبير الديني ، فلا يكاد يعرف ابن هي . ان هذا يرجع الى عقلية

الشرقيين التي تعزو كل شيء الى مشيئة الله ، ولا تعرفه إلا حين
يغضب ويضرب ضرباته الخفيفة . فعندهم ان الجزار ، الرجل الفاني ،
لم يكن ليقدر ان يؤدّي رسالة هذا الظلم والجور لو لم يكن الله
قد اصطفاه لالقاء تلك الدروس القاسية على العالم . رويت فيما
سبق كيف يحترم المجازين عند هذا الشعب الكثير الاوهام
والتخيلات . ان لهذا الوهم عذراً واضحاً لان له على الاقل وجهته
الاخلاقية ، فالاهتمام بالشخص المهمل المعتوه يستحق فاعله أجراً
عليه ، اما الاهتمام بقبر طاغية كالجزار فعلام يؤجر بانيه ؟
قلت في فصولي الاولى ان العرب هم اول من انشأ المؤسسات
التجارية في بيروت . اما اكبر محل اوروبي يتعاطى التجارة مع
سوريا في حقلي التوريد والاستيراد فكان اذ ذاك في جزيرة
قبرص . فمن هنالك كان يتبضع تجار هذه البلاد مصطحبين الحاجيات
التي كانوا يتجرون بها . والذين لا يتمكنون من الذهاب الى
الجزيرة كانوا يطلبون كتابة الحاجيات التي يرغبون فيها . وبعد
هذه التجارب ، حوّل العرب وجوههم صوب ازمير واسطنبول ،
فاستوردوا منها بضائعهم لانهم كانوا يجنون من الاتجار بها منافع
ملموسة . واستمرت هذه الحال مدة الحرب . وعندما اعاد السلام
حرية التجارة البحرية اخذ التجار العرب ، مدفوعين بطمعهم
الفطري ، يقومون بشراء حاجاتهم رأساً من البلاد التي تنتجها .
وشاء البعض منهم ان يتعدوا تجشم اخطار الاسفار ، فانتقلوا الى
اوروبا حيث صادفوا نجاحاً وفلاحاً ، فلم يبارحوها .
وظلت الصلة قائمة بينهم وبين اصدقائهم السوريين الذين عهدوا
اليهم اذ ذاك بقضاء جميع حاجاتهم . فوجدوا على يدهم منافع لم

يبدوها على يد تجار أوروبا. كانوا يكتبون لهم بلغتهم الخاصة ،
وهم موقنون أنهم يفهمونهم نظراً لمعرفتهم بواردات البلاد
واحتياجاتهم . ثم جمعتهم المصلحة ووحدت بينهم ، فاحتكروا جميع
اعمال تجارة سوريا . فارتأت بيوت مرسيليا التجارية وجنوى
وليفورنا ، ان يكون لها عملاء من العرب ليتفاهموا والذين لا
يحسنون سوى هذه اللغة . ثم ان الاغريقين ما لبثوا ان تركزوا
في الاماكن الهامة ليتفاوضوا مع ابناء امتهم المنتشرين في جميع
انحاء الشرق ، لان اليونان هم بطبيعتهم بعيدو الهمة ، جسورون ،
والتجارة ثلاثم نشاطهم الطبيعي كل الملائمة .

ذلك كان سبب الانقلاب الذي شعرت به تجارة هذا البلد ،
وهو الانقلاب الذي تبين منه ، بادىء ذي بدء ، انه لم يكن له من
مفعول سوى نقل التجارة من اياد الى اخرى ، لان الذي كانت
تخرجه مصانع فرنسا لمؤسساتها الوطنية كانت تخرجه بمقدار واحد
للافرنسيين والشرقيين . بيد انه لما كانت اهمية الابتعاات تنشأ
عادة عن الذين يقومون بها ، فان التجار الشرقيين يعقدون صفقاتهم
بتردد وخشية . انهم يقومون دائماً بتجارب ويتقادون بسهولة لآراء
عمالئهم الذين يتملقونهم كثيراً ويزينون لهم اجتناء ارباح لا تكون
في الغالب الا وهمية . ولهذا انحصرت في موافى تويستا ، وجنوى ،
وليفورنا ، ومرسيليا ، وعلى الاخص موافى انكلترا التي بلغت
تجارتها مع سوريا ، بالنظر الى ازدهارها ، ما لم تبلغه في جميع
البلدان مجتمعة .

كانت محلات سوريا التجارية في الزمن القديم فروعاً من
محلات مرسيليا . والتجار الذين سبق لهم ان اقاموا في المشرق

كانوا يديرون مؤسساتهم بوجه يتفق مع حاجات المكان واذواق
اهاليه . اما الوكيل فلم يكن يهتم الا بتنسيق البضائع التي كان
يتسلمها ، واعداد شحنات العودة . كانت التجارة يومذاك على قدم
وساق . وكان يمارسها من يتعاطونها باستقامة عظيمة . فمن كان
يجرؤ ان يظهر سوء النية او اقل ميل الى الغش ؟
كان القنصل يدعو محكمته للالتزام لدى ظهور اي عمل شائن
ويحكم بججر المذنب الذي كان يسمونه « بطّال » .
هذا عُرِفَ حملتنا على اتباعه اتصالاتنا الطويلة بسوريا ، وهو
ذو اثر فعال يجعل « الرؤساء » وناقلي البضائع وجميع رعايا السلطان
الذين تربطهم علاقات بالاوروبيين حذرين في تصرفاتهم ، لانه اذا
ما قدر ولفظت هذه الكلمة المحترمة - بطّال - يصبح الشخص
غير اهل لخدمة الامة . وهذا العرف أدخل فيما بعد في قانون
قنصلية حلب الذي نقل منه السيد دي بوكافيل ، في مذكراته ،
مادته الرابعة .

١ عندما كان المغاربة والتجار الاتراك او المسيحيون من رعايا السلطان يجورون
او يظلمون او يوقعون ضرراً بالغاً بالتجار الفرنسيين ، اثناء ممارستهم اعمال التجارة ، كان
يستطيع هؤلاء ان يقاضوهم عند قنصلهم . واذا وجد القنصل ان التاجر الاجنبي مذنب ،
سواء احضر الفريقان ام لم يحضرا ، فانه كان يصدر عليه وعلى بضائعه حكماً يسمى
« التبطل » وهو حجر مدني . وبموجب هذا الحكم يحظر على جميع الافرنسيين والذين
يتعاطون التجارة معهم ان يكون لهم علاقة مباشرة او غير مباشرة مع المحجور عليه ،
ومن يخالف يعرم من ٢٠٠ قرش فصاعداً ، حسب اهمية القضية . ان هذا الحكم كان
يبلغ على اثر ذلك الى قناصل الدول الاخرى ، وكان هؤلاء يطلعون عليه رعاياهم ،
وهكذا كانت تمتنع كل علاقة مع هذا التاجر . اما بضائمه فكان يجزر عليها الى ان يرفع
الحجر بصورة قانونية . (المذكرات المذكورة آنفاً ، ص ٥) .

ان السوريين الذين يتعاطون اعمال تجارتهم مع اوروبا لم يوفقوا دائماً في صفقاتهم رغم التسهيلات الجملة التي توافرت لهم ، ورجحت كفتهم على التجار الفرنسيين ، فزاحمهم في الاساكل ، مما جعلهم يرجعون الى اسلوب تعودوه وفهموه ، وهو اكثر انطباقاً على عقليتهم وذهنهم .

وأرى انه لمن الاصح - وفي ذلك مصلحة متبادلة - ان يقوم الافرنسيون وحدهم بتجارة فرنسا ، وان تبقى التجارة المحلية او تجارة سوريا في يد العرب . ان هؤلاء هم الوسطاء الطبيعيون بين الفرنسيين الذين يبيعون جملة واصحاب الحوانيت الذين يبيعون تفاريق ، كما هي حالة هؤلاء الاخرين بين التجار الوطنيين والمستهلكين . وعندما تتبع هذه القاعدة في سير الاعمال يصبح كل شيء طبيعياً . اني لم اجد تاجراً فرنسياً او بائعاً عربياً لم يقر بان الاستمرار على الطرق القديمة هو افضل من اتباع الطرق الحديثة . انهم كانوا يرغبون جميعاً في هذا الانقلاب . ومع ذلك فان احداً منهم لم يكن يهتم بالمطالبة به . ان مثل هذا الانقلاب يجب ان تكون النكبات مركبته .

فالفرنسي يجيد معرفة انتاج بلده . ولما كان هذان البلدان مضطرين للمقايضة بمنتجاتهما ، فمعلومات هؤلاء التجار ، اذا ما اجتمعت ، تحملهم على توسيع نطاق اعمالهم وتجارة بلدهم ، فتتضاعف ارباحهم .

ان العرب ، وهم لا يميلون الى التجديد ، لا يمكنهم طلب اشياء مجهولون وجودها . فلو كان لدى المؤسسات الفرنسية في الاساكل ممثلون في مرسيليا لكان بإمكانها ان تفاوض مصانع

المملكة . وهكذا فانها تقوي نفوذها بفتحها منفذاً لاصحاب
المصانع الغاصة محلاتهم بالبضائع ، لانه لا يمكنهم توريدها على
حسابهم ، نظراً لعدم وجود ضمانه اخلاقية توجي الثقة .

ان مزاحمة الاوروبيين للعرب هي في غاية الصعوبة ، لاسيا
وان هؤلاء يتمتعون بامتيازات كبيرة لم تتوافر لاولئك : انهم
لا يدفعون اجور المحلات او المخازن او رواتب المستخدمين . وهم
بغنى عن المصارفات الاخرى التي تتطلبها التجارة ، ناهيك بانهم
يقومون بنوع من الاعمال لا يجارون فيه ألا وهو انهم يمدون
ويدينون ابناء الجبل من امراء ورجال دين ، وخواص وعوام ،
مالاً برى فاحش تسليفاً على موسم الحرير ، او يقدمون لهم
ملابس وحبوباً بثمان باهظ .

ان السوريين يحبون هذا النوع من الضروب التجارية لانه لا
يتطلب تداول جميع الاموال في وقت واحد ، وهو لا يمنع من
يقوم به من مزاوله اعمال تجارته الخاصة التي تدر عليه ، وينصرف
الى سائر اعماله بما تبقى له من رأس مال .

ان الاعتمادات التي يمكن تجارة اوروبا ان تمد بها هي التي
تشجع التاجر العربي . انه يعتبرها بمثابة بنك يمكنه ان يستدين
منه ما يعوزه من مال . ومن ثم فانه يمكننا ان نجعل مضرب
المثل قولنا : ان الاعتماد هو قلب التجارة عند شعوب هذه
البلدان هنا . ذلك لان العرب لا يتاجرون الا بالمبالغ التي
يقرضونهم اياها . ان المبالغ المسلفة التي يدينهم اياها تجار اوروبا
تكون بفائدة ستة بالمائة ، مع ان الفائدة التي يطلبها ابناء سوريا
هي عشرون بالمائة . اما الذين يقرضون بفائدة تراوح بين ٣٦ و ٤٠

بالمائة عن كل سنة ، فعددهم كبير جداً . فاذا اتخذت مثل هذه التدابير التي تلائم العرب فسوف لا يفكرون الا ببيع البضائع التي قدمها لهم عملاؤهم وترويجها وقبض ائمانها . ان العربي لدى تسلمه البضائع يفكر بما يحتاج اليه من المال في اعماله التجارية ، اكثر مما ينظر الى الظروف الملائمة للبيع . ان كل شيء هنا يُعمل حسب مقتضيات الحال . وعندما تبدو هذه الضرورة ، لا يتم تاجر هذا البلد بالحسارة التي ستلحق به . وهذا احد الاسباب الهامة التي تجعل مزاحمة العرب شؤماً على الاوروبيين .

ان هؤلاء يجدون رجحانهم في الواردات ، بينما ان ما يقدمونه للشرقيين هو الصادرات التي يستطيعون الحصول عليها بقيمة تنقص عن ٢٥ بالمائة عما يحصل به عليها الاجانب .

وهذه ليست سوى صورة مصغرة عن نتائج المزاحمة السيئة التي لاقتها تجارتنا وجعلت الكثيرين من تجارنا يملون ويقنطون . وقد اضطروا الى الاحجام عن دفع نفقات مؤسساتهم بعد ان خدعهم سماسرتهم ، وسرقهم مشترؤهم ، واستنلهم رجال الجرك ، شركاء التجار المواطنين .

والذين لم يتخلوا عن مركزهم استسلموا للتيار وماشوا الظروف ، وعرفوا ان يستعيدوا مكانتهم . ان هنالك قسماً قد آثر ان يتعاطى العمولة ، وآخر اكنفى بقبض جمالة زهيدة ٢ .

٢ انها وظيفة من نسميه نحن عميلاً . هؤلاء مكفون في بيروت تسلم البضائع التي تخص تجار دمشق ومدن الشاطيء الاخرى التي لا تدخلها السفن ، وتسفيرها .

اما المحلات التجارية الراسخة القدم فلم تحفظها المزاحمة وان ضايقتها كثيراً . حولت نظرها الى تعاطي التجارة المحلية فكفل لها تفوقها ، في العدة ، عجز العرب عن تقليدها . وهذا ما بحثه حين تكلمت عن طريقة حل الحرير الغليظة في هذه البلاد . ان المقدرة التي يتصف بها التاجر الاوروبي تساعده ولا شك في المهمة التي يتعاطاها . فعليه قبل مباشرة عمله ان يظفر بثلاثة اشياء : معرفة البلاد ، لغتها ، سمسار قدير . فلا بد اذن من معرفة بعض نقاط تصلح لان تكون قاعدة ومقياساً لاعمالنا ، وتمكننا من مفاوضة المشتريين مباشرة . إلا انه لا ينتظر ان نتفوق على رجل هو تاجر وسمسار في وقت معاً ، ولا سيما اذا كان يتحلى بشيء من المقدرة وبكثير من الثقة . انها قضية حياة او موت لكل مؤسسة تجارية . ولقد توافرت لذي عدة شواهد على هذه النقطة تمكنني من ابداء رأي هو غاية في المتانة : ان تاجراً عنده سمسار قدير ، يمكنه ان يجمع بين المقدرة الاوروبية والحيلة الشرقية . وقد ثبت ان مهمة السمسرة كانت جد مجدية وضرورية ، حتى ان الحكومات سعت لدى السلطات لتمتع هذه الطبقة من الموظفين بالامتيازات والحصانة الشخصية التي يتمتع بها التراجمة ، فمن فور دخولهم في خدمة التاجر تفارقهم رعوية جلالته ويصبحون من رعايا قنصل الدولة التي يخدمونها .

كثيراً ما كان التجار الاوروبيون ، قبل ان يمنحوا هذا الامتياز ، هدفاً للتعديات البالغة الحد ، لان السلطات التركية كانت تخرج الى ابعد مدى موقف « الرؤساء » الذين عرفت ان فرنسا تدعمهم مدفوعة بحبها للانسانية . انه ، والحقيقة تقال ، ما من تضحية

أسمى من التي يقوم بها تاجر بدافع الشفقة او المصلحة لانقاذ من هو موضع ثقته واعماله... وهكذا فإنه كان يبذل ماله لينجي عميله المعرض لسيف العدالة الغادرة في هذه البلاد .

لاقتُ بعض المشتقات عندما دعوت الى احترام مبدأ حماية السامرة في بيروت ، هذه الاسكلة الجديدة التي يجب ان نخلق فيها كل شيء . ولكم تأملت عندما رأيت هذا المبدأ ينهار لدى الذين اعتقدوا انه يجب عليهم ان يكونوا اقل تسامحاً بما هم عليه العثمانيون تجاهنا ، اذ لم يظنوا مطلقاً اننا نتطلب منهم اكثر مما تطلبنا من الاخرين^٣ .

فهمت بعد محادثة طويلة جرت بيني وبين ابراهيم باشا ان هنالك خطة مدبرة لكيفية معاملتنا في سوريا ، فهو يعتبر : « ان موقف الاوروبيين في مصر كان اقوى مما هو عليه في سوريا . الا ان موقف اهالي سوريا كان افضل من موقف شعوب البلد الآخر . » وهذا ما أكد لي ، وكثيراً ما دلت عليه تصرفات السلطة ، ان نائب السلطان كان ينوي التخفيف عن السوريين والانتقاص من امتيازات الاوروبيين الذين توسعوا كثيراً ، حسب رأيه ، في مصر بعد ان أثقل كثيراً عاتق المصريين التعساء . ان التداوير الخلية التي اختطها محمد علي لم تتبع في هذا الحقل كما اتبعت في كثير من الحقول الاخرى . فافضل وسيلة لترويج

٣ بينا كت اكتب ذلك (١٨٤٣) كانت هذه القضية مطروحة على بساط البحث . ورغم تمتعنا بالامتيازات زمناً طويلاً في سوريا ، رجعت الدولة العثمانية عن بعضها ، لاننا لم نكن قد تصرفنا بها بعد . جميل ان نجابهها بهذه الحجة : ان مجموعة الشواهد لها في تركيا مفعول القانون .

منتوجات مصانعنا تكون في انشاء مستودع ضخيم (غبر) يمكنه ان يقدم لتجار دمشق ، في الداخل والاسكلة ، الحاجيات اللازمة باسعار معتدلة ، وان يهتم بامر بضائع المقايضة التي يمكن هؤلاء التجار ان يقدموها ، بشرط ان يسترجعوا الحاجيات التي يتبين انها لا توافق بلداننا في المملكة العثمانية حيث تعود هؤلاء التجار ان يأتوا بانفسهم اليها . ووفقاً لهذه الطريقة يجب ان تورد المنتوجات الى فرنسا ، حتى اذا لم تتناسب وحاجيات البلاد أعيدت كتلك .

ان مؤسسة تجارية كهذه يجب ان تقوم بانشاء مدينة صناعية . وعندما يساهم فيها جميع اصحاب المعامل فسوف يقوونها وينشطونها لانها لن تفتقر الى بضائع اهتم اصحابها بترويجها عن هذه الطريقة . وهنالك قاعدة يجب ان يتبعها تجارنا : انها تنحصر في ان لا يقرضوا شيئاً السلطات المحلية والا يبيعوها شيئاً ، مهما تكن قيمته متدنية ، لقاء دفع مؤجل ، ما لم يقدم الشاري كفيلاً مالياً يقدم بدوره ضماناً وافية . ومن يعمل خلاف هذا ، في بلاد تكثر فيها ، ويا للأسف ، الحوادث الاستثنائية ، يعرض مصالح العملاء للخطر . وقد بحثت هذه الفكرة باسهاب في مذكرة هي بين يدي ، ، وهاكم ما جاء فيها :

« اتبعت هذه القاعدة اتباعاً دقيقاً في وقت ما . فتجارنا لم يكونوا يبيعون الا في محلاتهم ، كما انهم لم يوردوا قط على حسابهم الخاص . اما تجار دمشق والمحلات الاخرى في سوريا

٤ مذكرة السيد شابوسو الذي سنتكلم عنه فيما بعد .

فكانوا يهبطون الاسا كل ليقوموا بابتياعاتهم ، او انهم كانوا
يشترونها بواسطة اناس يتقاضون عليها عمولة . ولهذا لم يكن خطر
في الدفع ، ولا مشادات حول الاسعار ، ولا مخاطر في التوريد .
« الا ان كلب الجشع ، والمحسدة البغيضة ، والرغبة الملحة في
القبض سلفاً ، واخيراً الفوضى في النظام أنست ، لبضع سنوات
خلت ، هذه الطريقة الحكيمة . وهكذا سارع كل واحد ليقوم
بالعرض ، فالاغراء على القبول ، فالتوريد . اخذ الشرقي ، بايدي
ذي بدء ، وهو داهية دقيق متمسك بتجارته ، يحس باحتراس مثل
هذه العروض . واخيراً حملهم على ان يرجوه ، ثم انتهى بفرض
اسعار البضائع وشروط الدفع . فنتجت عن مثل هذه التصرفات
المغفلة خسائر جسيمة لحقت بالامة . كان من المتوقع على تجارنا
ان لا يخطئوا الاعتقاد بان منتوجاتهم ، وهي اهم ما يحتاج اليها هذا
البلد ، يمكن ان تطلب وتنفق دائماً . »

كان الاتجار مع انكلترا عن طريق ازمير وليفورنا . فكانت
العرب يستوردون منها المنسوجات والقطن المغزول الذي يحتاجون
اليه في قليل من الاعمال . غير ان تجارة هذا الصنف ازدادت
بمعدل ١/١٠ عندما خصها التجار الانكليزي عام ١٨٣١ بكل النشاط
الذي كانت تتطلبه . وهكذا بلغت قيمة القطن الانكليزي المغزول
المورد الى سوريا ، ابتداء من عام ١٨٣٣ ، مبلغاً ضخماً قدره
٦،٢٧٤،٧٠٠ فرنك .

• اتنا نلاحظ ان هذه المذكرة كتبت قبل ان زاحم العرب الفرنسيين في تجارة
اوروبا .

ان الانسجة البيضاء ، المصبوغة والموشاة ظلت تتمتع برواج عظيم . واظن ان السبب الاساسي في ذلك يعود الى البؤس العام وغلاء الحرير واليد العاملة . وهذه العوامل مجتمعة جعلت الانسجة الاجنبية في متناول جميع الطبقات غنية كانت او فقيرة . اذف الى ذلك الزيِّ (الموضة) ، فقد ساعد على رواج الاقمشة التي هي اكثر زرْكشة وألواناً لماعة مسن غيرها كالتي يجهبها الشرقيون .

هذا فيما يتعلق بالانسجة المنقشة والانسجة القطنية والكوفيات . اما فيما يتعلق بالاقطان المغزولة والحام والانسجة البيضاء القطنية فاسبابها ليست كذلك .

كانوا يغزلون قديماً في البلاد كمية وافرة مسن القطن لحياة الحام ٦ . اما الانسجة البيضاء وخيط الغزل الدقيق فكانا يردان من الهند لتحاك منها الاجواخ التي كانت لحتها من قطن البلاد . اذن ، فالى ادخال مثل هذه البضائع وليدة المصانع ، والى الميزة التي كانت تفوق بها على شبيهاتها المعروفة من قبل ، يجب ان نعزو الرواج الكبير الذي لاقته مصنوعات انكلترا في سوريا .

ان سويسرا تقدم ايضاً النسيج الموشى ، وميلهوزن تمدنا من حين الى آخر بكمية من النسيج المنقش . اننا نعجب لاول وهلة كيف ان تجارنا لا يستثمرون مثل هذا النوع الهام من التجارة .

٦ . اني اتحدث عن فترة تأتي بعد الفترة التي كانت تنتج فيها سوريا كميات كبيرة من البضائع التي تنقلها السفن عند عودتها الى فرنسا . ان الانسجة القطنية والمنقشة كانت احدى مواد هذه الوسقات .

ثم لا نلبث ان ندرك ان احجامهم يعود الى عملاء مرسيليا الذين لا
يمكنهم ان يوردوا لمثلهم العرب الا الاشياء التي يطلبونها منهم .
اجل ، اننا متى اتقنا الصنع اكثر بما يتقنه الانكليز ، لا يلائمنا
ان نبيع بالثمن نفسه . الا ان التفوق في الحياكة وعلى الاخص
في الصباغ يساويان ولا شك الزيادة في الثمن . فالمناديل والاجواخ
الربيعية المصنوعة في « روان » تتمتع اليوم بافضلية ملموسة ، مع ان
ثمنها اكثر ارتفاعاً من ثمن شبيهاتها في البلدان الاخرى .

ان مصر تقدم ايضاً الى اسواق سوريا كمية كبيرة من
المنسوجات والقطن المغزول . وهذا ما يسمح لها ان تصدر الحاجيات
التي تتوافر لديها من صناعة اهلها . ولو ظلت سوريا في يد محمد
علي لشاهدنا الاهتمام بتنفيذ مشروعه الرامي الى نقل المصانع القطنية
اليها لتعمل على اوسع مدى فيها ، بعد ان حال مناخ مصر
دون ذلك .

ان عزل كل منتج انكليزي عن اسواق هذه البلدان نتج
عن طبيعة الامور نفسها . فالخيوط والانسجة المصنوعة في هذا
البلد من قطنه ، وباياد تقاضت اجراً ضئيلاً ، او على حساب السلطة
العامة ، امست تباع بأسعار ضئيلة ادت الى العدول عن الاتيان
بها من الخارج .

فالتجار الانكليز لا يوحون عادة الارتياح الذي يوحيه
الفرنسيون ، انهم يطلبون من العرب دقة ليست من طبيعتهم ،
ولا من عاداتهم ، ولا يمكنها ان تكون الا صنعة الايام . ان
استقامة التجار ترتبط باستقامة اصحاب الحوانيت الذين هم بحاجة
الى ان يقبضوا مالهم كاملاً من المستهلكين .

وهناك عدة دواعٍ أخر تعاضدنا ويمكننا ان نستخلص منها انه اذا كان مقدم التجار الانكليز قد ساهم في ترويج موارد انكلترا، فان حاول الاشخاص الموفدين من فرنسا يحدث المفعول نفسه بالنسبة للحاجيات المصنوعة في وطننا. فلا بد، اذن، من ان يزود المحل الذي يُنوى انشاؤه برأسمال كبير، ويُفضل كثيراً ان يكون المساهمون فيه من اصحاب المصانع في مختلف المدن الصناعية.

وهناك نصيحة اخرى اسمح لنفسي ان اسديها الى الذين يقدمون من مواطني الى بيروت، وهي ان يهتموا بان يعيدوا الى التجارة الفرنسية تراثها القديم في الاستقامة، او على الاقل ان يحافظوا على ما ظلت تحتفظ به من شهرة قديمة. لقد عرفتُ اشخاصاً انقادوا لاجراءات مقبلة، في محادعات زعزعت ثقة تجار هذه البلاد، فوافقوا على الاكثار من عدد التيجان المذهبة المطبوعة في اعلى الاقمشة دون ان ينظروا الى جودتها التي كانت تدل عليها تلك التيجان. فنتج على اثر كل صفقة مشادات طويلة، مع ان المشترين كانوا، قبل هذه الخدعة، يثقون باستقامة اصحاب المصانع، ولا يخامرهم اقل شك بعدد التيجان وبيان (قائمة) مستورد هذه البضائع. ولكن الخدعة الآتفة فتحت الاعين وايقظت الافكار. فاصبحوا يتدمرون من نقص في طول « الاثواب » الذي كان لا ينقص.

ثم ان هنالك عيوباً اخرى فتحت في مجال الملاحقة على اثر اكتشافها.

ان اسم الصانع لم يعد موجوداً على هذه الاقمشة، كما انه لم

ير عليها اثر اي خاتم ما . والالوان، وبصورة خاصة الناتئة منها،
أصبحت باهتة معتمة ، ولعلها غير منسقة ايضاً .
ان رزم البضائع كانت مرسله بدون نموذج ، او ان هذا
النموذج او هذه الرزم كانت مقلدة .
لقد استبدلوا نماذج المصانع المشهورة بنماذج ليست من عملها
وصنعها .

وهذه الخدع اضررت بنا ، بل ساعدت الاقمشة الاجنبية على
ان تحل محل اقمشة مصانعنا .
كانت المراكب تتردد كثيراً الى بيروت . الا انها كانت تعود
كلها فارغة تقريباً ، لان انتاج سوريا ، حتى في الحالة التي تكون
فيها اسعار الحرير ملائمة ، لا يكاد يشحن باخرتين او ثلاثاً .
كانوا يدفعون ثمن البضائع المستوردة ذهباً وفضة . ولولا
الحرير الذي تحتاج اليه كثيراً مصر وانحاء سوريا الاخرى ، لخلت
البلاد من النقود .

ان استهلاك كميات كبيرة من الحرير في اوروبا قد اساء
جداً الى اعمال التجارة ، اذ تجاوز الحدود التي فرضتها التجارب
لتبقى الاسعار ثابتة . كان يتوجب على التجار الاوروبيين ان
يجسروا فهم هذه النظريات والحسابات لان العرب يفتقرون الى
بعد في النظر سواء اكان في اعمالهم البيئية ام في اعمالهم التجارية .
انهم اناس يفسدون الحرفة ، والاهتمام البالغ الحد في عرفهم كفر
بالعناية الالهية . استقى المسلمون مثل هذا الاعتقاد من القرآن ،
والمسيحيون الذين هم قروء المحمدين يجدون مبرراً لهذا التوهم
عندما يتمسكون بحرفية بعض آيات الكتب المقدسة .

واری لزماً علیّ ان اقول هنا ان الاختلاف البين الذي يلاحظ بين الواردات والصادرات ناتج : اولاً - عن ان سفائح النقد والاشياء الثمينة التي جرى التداول بها بصورة خفية لم تفضح او تعلن ، ثانياً - ان المرتجعات كانت تعقد في مقابل سندات لحاملها ، وهكذا كان يقطع تجار البلاد لانفسهم جزءاً من السفائح التي يرسلونها على اثر توقيع بولصة الشحن .

وخلال السنوات الثلاث التي تيسرت لي فيها مراقبة جميع اعمال مرفأ بيروت مراقبة دقيقة ، يوم كانت التجارة لا تمارس بسبب الاغريقين ، الا على سفن اوروبية ، استطعت ان الالحظ بانه استورد في الاعوام :

		<u>١٨٢٥</u>
		لآلىء
فرنك	١٩٠٠٠	
فرنك	٤٠٠٠	ریش نعام
فرنك	٢٨٠٠٠	شالات
فرنك	٩٧٠٩٢٠	حاجيات مختلفة
فرنك	<u>١٠٢١٩٢٠</u>	المجموع

		<u>١٨٢٦</u>
		لآلىء
فرنك	٩٨٠٠٠	
فرنك	٣٠٠٠	شالات
فرنك	٤٦٩٠٠٠	حاجيات مختلفة على سفن تجارية
فرنك	١٥٠٠٠٠	حاجيات مختلفة على سفن حربية
فرنك	<u>٧٢٠٠٠٠</u>	المجموع

١٨٢٧

لآلىء

فرنك ٣٩٠٠٠

شالات

فرنك ٢٠٠٠٠

حاجيات مختلفة

فرنك ١٠٢٩١٠٠

المجموع ١٠٨٨١٠٠ فرنك

وهكذا يمكننا ان نعتد معدل هذه السنوات الثلاث لنقيس عليه البضائع المصدرة الاخرى التي لم نعرف عنها شيئاً . ومن هنا نتج ان المدفوع كان اكثر من المقبوض .
ان البضائع المصدرة التي كانت تنقلها كل شهر المراكب الهوائية او البخارية لا تنقص قيمتها عن السماية او السبعماية الف فرنك .
ففي ازمير والاسكندرية ومالطة ومرسيليا كانت تحمول السفاتج الى سندات حامليها لترسل من ثم الى المراكز التي يجب ان تدفع فيها .

الفصل العشرون

بيروت ودمشق ايتهما احري بان تكون مركزاً
للمؤسسات الاوروبية . الحجج التي تؤيد بيروت .

في سوريا اليوم مشكلة لم تحل حلاً يرتاح اليه رجال التجارة .
وهذه المشكلة تدور حول معرفة اي المدينتين ، بيروت ودمشق ،
احري بان تكون مركزاً للتجارة الاوروبية . ولكي يستطيع
القارىء الحكم ، فسأقدم له اولاً حججتي الخاصة ، المخالفة للقائلين
بافضلية دمشق ، ثم اتبع ارائي بملاحظات ابدائها احد مؤيدي
هذه الفكرة ، وهو من الذين عرفت فيهم دمشق اكثر الناس
اندفاعاً لتأييدها .

ارادوا ان تصبح بيروت اسككة مرور (ترانزيت) فتصير
من دمشق كالاسكندرونة من حلب . ثم ينقل القنصل منها ليقم
في دمشق ، مجارين في ذلك انكلترا التي قررت ان تجعل دمشق
مقر ممثلها الاكبر .

ان بين حلب ودمشق اختلافاً كبيراً ، والفرق اشد واقوى
بين الاسكندرونة وبيروت . فحلب ، نظراً لموقعها الجغرافي ،
هي اهم نقطة للتجار مع ولايات الكرمان ، وديار بكر ، وارمينيا
وكرديستان الغنية ، في حين ان دمشق تقع على طرف الصحراء
وليس لها الا علاقات قليلة الاهمية مع بغداد ومكة ، لان حلب

والقاهرة تراحمها فيهما .

فالاسكندرونة هي قرية يسكنها حوالي ٢٠٠ شخص تقريباً .
اما بيروت فعدد سكانها يراوح بين ١٥ و ١٦ الف شخص ، ناهيك
بان موقع الاسكندرونة غير موافق من جميع نواحيه ، فبها
اكثر الهواء فساداً ، ومجاورتها لبياض وجبل الجياور تجعلها خطيرة
جداً ، فضلاً عن انه لا يستطيع نقل البضائع الكثيرة اليها اذ لا
مستودعات فيها ولا مخازن . وهي تكاد تكون بلداً قفراً لان
ضواحيها غير مأهولة .

اما بيروت فتنتمتع بمناخ صحي جداً ، ومرکزها اكثر المراكز
هدوءاً وأمناً . وهي تقع في نقطة مأهولة ، من لبنان ، كثيرة
الاستهلاك ، حتى ان البعض من اهاليها الميسورين يتعاطون اعمال
التجارة في مرسيليا . ولا ننس قربها من البلد الذي ينتج الكثير
من الحرير الممتاز .

وليروت اسبقية على حلب في القيام ببيوعات ذات آجال معينة ،
فعلول موسم الحرير هو الوقت الذي تستحق فيه جميع الاموال .
ان من يبيعون تفاريق (بالمفرق) يقبضون المبالغ التي اسلفوها ،
ويدفعونها الى من ابتاعوا حاجياتهم منهم ، وهؤلاء بدورهم يولفون
من هذه المبالغ ، المضافة الى منتوجات موسمهم ، الكميات التي
تعهدوا بها للتجار .

اما في حلب او الشام فكثيراً ما يتجاوز وقت الدفع آجاله
المضروبة ، كما ان القوافل لا تصل في مواقيت دقيقة ، وهي
معرضة الى اخطار كما تنجو منها . والذين يقطنون حلب يعرفون
ان اثمان المبيعات لا تقبض كاملة الا بعد انقضاء عشرين او ثلاثين

شهرًا . اما في بيروت فالسندات تدفع حين الاستحقاق .
وبيروت تنتج من الحرير ما يبلغ ثمنه مليوني فرنك ، بينما
دمشق لا تنتج الا قليلاً من الازارات .
حاول الانكليز مراراً ان يستقروا في دمشق ، ثم اضطروا
الى العدول عن ذلك . نعم ، ان دار قنصليتهم لا تزال قائمة فيها
حتى اليوم ، ولكنها لم تعد قنصلية عامة بعد ما تمت المواصلات
مع الهند عن هذه الطريق . فلو كان الامر ذا اهمية ، كما يزعم
انصار دمشق ، لما مجل الانكليز عليها بقنصل ذي درجة عالية . ولقد
انشأت فرنسا ايضاً في دمشق قنصلية من الطراز الاول املاً
باجتذاب التجارة الفرنسية اليها . الا ان هذا العمل لم يسفر عن
نتيجة طيبة ، مع ان موفدنا هناك كان السيد م . بودان . فليس
اذن عدم الحماية هو الذي كان يحول دون استقرار مواطنينا في
دمشق .

استخفت الانكليز خطة تقوم على اساس واه ، فاختفوا في
تحقيقها . فاذا ما طالعنا بيان غرفة التجارة في مرسيليا ، نقرأ
في الباب المتعلق بصيدا وتوابعها :
« ان عكا وصور وصيدا ويافسا والرامة تؤلف جزءاً من هذه
الاسلكة . »

ثم نطالع في محل آخر :
« انه يمكن تخمين قيمة الاعمال التجارية الداخلة اليها بمبلغ
١٥٥٠٠٠٠٠٠ فرنك ، والقيمة العائدة بمبلغ ١٨٠٠٠٠٠٠ فرنك . »

١ ٢٨ كانون الثاني ١٨٠٢ .

وإذا قابلنا بين اليوم والماضي ، نجد ان الحالة لم تتغير الا قليلاً ، فالتجارة ما زالت تقريباً هي هي ^٢ ، ولكنها انتقلت من أياد الى اخرى . وهكذا نرى ان بيروت احتلت المركز الذي كانت تحتله صيدا في الاساكل الجنوبية .

وبعد انطلاق تجارنا لاستئناف اعمالهم على اثر الحرب التي تلت غزو مصر ، اصبح من المتوجب عليهم ان يختاروا الاسكلة التي يرغبون فيها . وطبيعي ان تنتقل التجارة ، التي اصبحت حرة ، الى المكان الذي يوافقها اكثر من سواه . واذا كانت الاساكل الاخرى تضم بعض تجارنا في بيروت تضم منهم عدداً اكبر واوفر ثروة .

ان مجاورتها للجبل جعلت الذين تهاقتوا اليها في مأمن من بلص السلطة التركية واختلاسها . ففي استطاعة بيروت ان تكفي سوريا بكاملها ، ابتداء من طرابلس حتى حدود مصر . ان العادة ، وهي مستحكمة عند شعوب هذه البلاد ، تحملهم على تفضيل التموّن منها بدلاً من ان يبتاعوا حاجياتهم من اقرب الاماكن اليهم . ولذلك كانوا يقولون ان البضائع التي تشتري من بيروت تكون مملوءة حياة ، ولكنها تصبح كالميتة عندما تستورد من الداخل .

أحدث تهاقت تجار بغداد والشام والمدن الاخرى في سوريا

٢ ان قيمة استيراد بيروت من فرنسا بلغت ٣٠٠٧٨٠٣٤٨ فرنكاً ، والصادرات ٢٠٧٣٧٠٣٩٠ فرنكاً ، وقد يكون هذا ناتجاً عن خطورة الحوادث التي منعت ، في فترة ما ، المواصلات .

تراحماً قوياً بين البضائع المصدرة . وهذه المزاجمة يستفيد البائع منها دائماً ، ولا يمكن ان تحصل اذا ما انحصرت علاقته بالمشتريين المحليين فحسب . فمن الضروري ان يقوم وسطاء بين البائع بالجملة ، والبائع بالمفرق ، والمستهلك . وحيث لا تجار يدفعون نقداً ، او يقدمون بضائع ، نُضطر الى فتح الاعتمادات . ولا يوافق التعامل هكذا الا مع من يقدمون بعض الضمانة ، سواء كانوا ملائكين او رأسماليين .

كانت عقود التأمين تكفل سلامة البضائع حتى دخولها بيروت . اما المخاطر التي تلحق بها برآً فكانت على عهد المصدريين . وهذه المخاطر ، اي أخطار النقل ومصارفات المرور ، تضاعف ثمن الجاجيات وتقف حجر عثرة في سبيل نفود البضاعة الزهيدة الثمن ، ولا سيما اذا كان متوجباً على تجار يافا ونابلس والقدس ان يتبضعوا من دمشق كما يتبضعون من بيروت . انهم يجيرون حينذاك على دفع مصارفات نقل باهظة ، ورسوم جمارك جديدة ، كما انهم يتعرضون لكثير من المخاطر ، وعلى الاخص في فصل الشتاء ، لان البلدان التي يقطعونها تخترقها الانهر ، واكثر هذه الانهار لا جسورها . اما من بيروت فتشحن البضائع باقل نفقة الى مرافىء الشاطئ . ثم ترسل ، من هناك ، الى الداخل ، وبطريقة ابراز « التذكرة » توفر رسوم جمرك ثان .

ان وصول قوافل بغداد هو حدث خطير في دمشق ، يعيد اليها مرة ، في السنة ، نشاط محلاتها التجارية بعد ان يكون قد اعتراها خمول حياة على وتيرة واحدة . ان قدوم هذه القوافل موسم يحفل بالصفقات التجارية ، ولكن هذه القوافل اصبحت

نادرة جداً^٣ بعد ان كانت منذ عهد بعيد لا تقل عن خمس
كل عام .
دونكم الآن تقوياً عن احدى هذه القوافل التي تتألف من
٢٤٠٠ جمل :

١٢١٤ جملاً تنقل التنباك ، ٢٠٣ تنقل المنسوجات ، ١١٧ تنقل
الغدد النباتية ، ١٢٠ الزعفران ، ٣٨٠ الجلود ، ٩ النيل ، ٥ شعر
الماعز ، ٦٠ قصب الكرز الذي تُعمل منه مواشير الغلايين ،
٨٣ البن ، ٨٠ خشب الصباغ ، ٢٥ المغرة ، ٢٠ الصمغ ، ٤ مواد
الذهب والفضة ، ٤ رزم الشالات ، ١٥ الحزف . اما الخمسة
والخمسون جملاً الباقية فتحمل امتعة ومؤون المسافرين والقافلة .
والسيد شابوسو ، وهو الذي أسأله ان يجيبني ، نظراً لتفضيله
دمشق بصراحة ظاهرة ، لا ينكر البتة اهمية موقع بيروت ، ومع
اعترافه باننا لم نحسن اختيار مركز مؤسساتنا على الشاطئ ، قد
كان يرى ان تجارتنا بالمصنوعات ، التي استوردناها وصدرتها من
سوريا واليهما ، كانت اكثر أرباحاً لو عرضت من نقطة متوسطة
كبيروت .

ان هذا الطبيب الافرنسي قد جار في حكمه على مؤسستنا
في طرابلس التي سماها « مدفن الاوروبيين » ، وادهشه اننا ما زلنا
نحافظ عليها حتى يومنا هذا ، فقال :

٣ نعلم ان ذلك ناشئ عن قوى العنائر الهائلة . ففي عام ١٨٤٣ نهبوا قافلة بين
الشام وبغداد ، وقدر المبلغ بـ ٧٠٠٠٠٠٠ فرنك ، ومنذ ذلك الوقت اضطرت القوافل في
رجوعها ان تطوف حول المدن وتأتي عن طريق حلب وحماة وحمص .

« ولكن هي قوة العادة ، وتأثيرها . انهم لا يلاحظون إلا
كثرة المساوىء . والاسهل من ذلك ، هو القول انه لا يمكن ان
تتغير الحالة ما لم تتخذ تدابير حكيمة نعالجها بها . فكم يحسرون
لو نقلوا هذه المؤسسات الى بيروت . فهذه المدينة المنبعا بسبب
مجاورتها للجبل ، ونظراً لمركزها الهام الذي يفضل بلا مرء جميع
المراكز التجارية في سوريا السفلى ، تستطيع ان تقدم لها كثيراً
من المنافع ، لا بل اجروء ان اقول كثيراً من الميزات ايضاً .
» مفهوم ان انتاج طرابلس ينحصر في الحرير ليس إلا ،
وعلى الرغم من انه دون حرير سوريا قيمة ، فكثيراً ما يُطلب
لاستعماله في صناعة مكاييلنا ، وفي بضع مقايضات تقوم بها مرسيليا
مع افريقيا الشمالية .

« انه يمكن ، اذن ، ان يواصل هذا النوع من التجارة لان
قرب الامكنة يسهل مثل هذه الاعمال ، سواء اكان ذلك عن
طريق البحر ام البر . فالتوافل تبقى على طريقهما بين بيروت
وطرابلس يومين كاملين ، بينما تذهب المراكب الشراعية عادة من
اسكلة الى اخرى في ست ساعات او سبع . ان رياح الجبل التي
تهب على الشاطئء بصورة منظمة ، في اثناء الليل ، تساعد في الذهاب
والاياب . وفيما عدا ذلك ، هل يباع اليوم ؛ حرير طرابلس ولبنان ،
بعد ان اصبحت الامة المثقلة بالديون عاجزة عن الشراء ، في غير
بيروت ، او الزوق التي هي مركز تجارة كسروان ولا تبعد إلا
اربعة فراسخ عن بيروت ؟

٤ كتب هذا البيان عام ١٧٩٥ .

« ان المؤسسات الفرنسية في بيروت لا تلحق بنا من الاضرار الصحية الجسيمة ما يلحقه بمواطنينا مناخ طرابلس . ان هواء بيروت نقي ، وطبيعة تربتها تدل على انها جافة ، ومنحدرة ، والمياه التي تتدفع في السواقي مسرعة الى البحر لا تستقر ولا تمكث لتكوّن المستنقعات .

« ان بنية الرجال فيها اقوى بكثير مما هي عليه في طرابلس ، ومتوجات اراضيها هامة جداً : فحريها اكثر ملاءمة لما نصنعه نحن من اشربة وضافر .

« وبعد هذه المقابلة نرى ان الافضلية هي لبيروت . وهي ايضاً ذات خصائص اخرى لانها تقع في وسط شاطئ سوريا . انها اسكلة كسروان ودمشق ، وفيها تستقبل بضائعنا القادمة من مصر والقسطنطينية وازمير وسالونيك وبقية انحاء المملكة . ومنها نورد بضائعنا ومقادير هائلة تطلب من بغداد وبلاد العجم والهند . ان قربها ، وأمن طرقاتها ، وهدوء خليجها المسمى بالساقية ، قد أولتها هذه الافضلية ، وأي منفعة لا تجنيها مؤسساتنا من هذا المركز ؟ انا لا يهمني غير عاملين هامين : توسيع التجارة والارتباط المباشر مع دمشق .

« اما فيما يتعلق بملذات الحياة ورفاهيتها فما من شك في انه ان لم تفق بيروت طرابلس في هذا المضمار فانها توازيها . اننا نعلم ان هذه المدينة كانت قديماً نعيم الرومان ، ويمكنها

. . . في تلك الايام كانت تجارة سوريا مع اوروبا عن طريق اساكل تركيا التي ذكرناها ، كما سبق لي ان قلت .

ان تكون في جميع الاوقات نعيم رجل ميسر ، يتجلى بشو
من الذوق . »

الفصل الحادى والعشرون

تجارة دمشق . الحجج المؤيدة للمؤسسات
التي تنشأ في هذه البلاد .

« اني اقيم في دمشق منذ اثنتي عشرة سنة . هذا ما كتبه
السيد شايوسو^١ . ان هذه المدينة تقع في وسط سوريا ، وهي كما
نعلم عاصمتها . وبوصفي طبيباً ونظراً للعلاقات التجارية التي ربطتني
بالفرنسيين ومواطني في هذه النواحي على اختلافها ، توصلت الى
معرفة هذا البلد معرفة جيدة . عرفت منتوجاته واعمال تجارته
وشعبه واخلاق اهليه ، واخيراً المنافع التي يمكن فرنسا ان تجنيها .
فدمشق تستورد الاقمشة والطرايش والقرمز والنيل ، والسكر ،
والبهار والورق والحديد وما اشبه ، وكلها تباع باسعار مرتفعة .
ويمكنها ان تورد المواد التي لا يستغنى عنها كالحبوب والزيت
والحرير والقطن التي يزخر بها هذا البلد الخصب .
« نستطيع القول ان كل شيء في هذه المنطقة حتى صحراؤها
يكاد يكون مادة تصلح للتجارة . فمن تلك البقعة المتراامية الاطراف
نحصل على اصواف من نوع ممتاز ، وفيها نجد الكثير من الاملاح

١ ان هذه الرسالة مقتطفة من بيان وجه السيد شايوسو الى سفارة فرنسا في
القسطنطينية ، وقد بعث الى والدي ، القنصل في طرابلس عام ١٨٠٤ ، نسخة عنه .
كادت العلاقات التجارية ان تستأنف مع تركيا ، وكل ، كما يقال ، يبشر بكنيستته .

والعروق الحمراء ، وكل هذه يحتاج اليها في عمل الصابون والصباغ .
وهناك اكتشافات هامة يستطيع ان يقوم بها تاجر دقيق الملاحظة .
ان تجارة الشرق ، بوجه عام ، لا تدر كسباً إلا بما تستورده من
بضائع . اما اعمال التصدير فانها ، اينما كانت ، تكلف الشيء
الكثير : ان سوريا وحدها يمكنها ان توفيق دائماً ، على الاقل ،
بين هاتين المنفعتين .

« ان الفائدة التي يمكن تجارتنا ان تجنيها في سوريا مسلم
بها بصورة لا تقبل الجدل . فما عليّ إلا ان اتكلم عن الوسائل
الآيلة لتحسينها . فاذا ما سمحت الظروف للفرنسيين بان ينشئوا
في دمشق مؤسسات تجارية ، فبوسعي التأكيد انها ستكون الاكثر
مغنى في الشرق . ان هذه المدينة هي ، بلا منازع ، اذا استثنينا
استانبول والقاهرة ، اهم مدن هذه السلطنة الشاسعة . ان مركزها
الموافق ، وعدد سكانها الضخم ، وذكاء اهليها المتجه بكليته الى
التجارة ، وتهافت الاجانب عليها في جميع الاوقات ، وعلى الاخص
على اثر عودة القوافل الكبيرة من بغداد ومكة ، ووفرة
بضائعها المشتملة على جميع الاصناف ، ان كل ذلك يبشر بازدهار
تام .

« لست أنكر ان هذا المشروع تعترضه لاول وهلة صعوبات
جمة . بيد اني اجرؤ على التأكيد انه ليس مستحيلاً . لاحظت ان
الباب العالي يرفض بكرامية متناهية منح الاجانب حق انشاء
مؤسسات تجارية جديدة . اني اعلم ان كل تجديد يستلزم نفقات
باهظة ، كما اني عرفت اكثر من سواي اخلاق اهالي دمشق ، فهم
بوجه عام مداجون ، جسورون ، متعصبون . إلا انهم في حقيقة

امرهم مرنون هلعون، وهم يتمدون يوماً بعد يوم . اما فيما يتعلق بالصعوبات التي تنتج عن الباب العالي فعلى فرنسا ، اذا شاءت ، ان تقوم بتذليلها .

« ولولا اني لم اشاهد بنفسي ، خلال سنوات ، تلاقي الحجاج الذين يجتمعون هنا للذهاب الى مكة ، لان دمشق هي ملتقى جميع مسلمي اوروبا وآسيا ، ما عدا مسلمي افريقيا الذين يذهبون الى القاهرة ، لكنتُ شعرتُ بصعوبة كبيرة في تصديق ذلك . وقد قفز عددهم في بعض السنوات الى ما يقارب الاربعين الفاً . »
« ان اسواق دمشق، في اثناء اقامة الحجاج فيها، وهذه الاقامة تكون عادة حوالى شهر واحد في ذهابهم وعند ايابهم ، تشبه اسواق ليبسيك ، وفرانكفورت وبوكير الخ... الخ . اننا نجد فيها جميع المواد والادوات التي يمكن ان تقدمها تجارة واسعة جداً . ان الجميع يعرفون غاية المسلم من هذه الرحلة الدينية : انها عبادة وتجارة . فقلما نجد حاجاً واحداً لا يتعاطى هذه الاعمال . كلُّ يعمل جهده . واننا نفهم ، دون ان نقيم الادلة على ذلك هنا ، ان هذه الفرص المواتية فريدة في نوعها للتاجر الغني برأس ماله .

« ان الحاج الذي يذهب الى مكة لا يحجم عن التزود بالحاجيات الهامة التي يمكنه بيعها ليسد بها نفقات رحلته . ولدى ذهاب القافلة نجد ما لا يقل عن الفي جمل تحمل بضائع لتباع او ليقايض بها . واذا ما عادت القافلة فانها تأتيننا بالبن العدني ، والسنا ، والصموغ ، والابازير ، والانسجة ، والاواني الصينية ، وعيدان الند ، والعنبر ، وكل منتوجات البحر الجنوبي التي تعرض

آنذاك بكثرة في مكة واردة اليها عن طريق البحر الاحمر .
كنا نستقبل كل عام من بغداد قافلتين او ثلاث قوافل كبيرة
يرواح عدد الصغيرة منها بين الف والـف ومائتي جمل . كانت تنقل من
الجزيرة البارود الابيض ، والغدد النباتية ، وجلد المعزى ، والقطن
المغزول المصبوغ جيداً بالقرمز ، واقمشة بغداد وضواحيها .
« وتأتينا هذه القوافل ايضاً من بلاد العجم بجلود الحرفان
والسجاجيد على اختلاف انواعها ، والكوفيات وبكل المنتوجات
الجميلة التي تنتجها بكثرة هذه المملكة الشاسعة الاطراف .
« وهذه القوافل نفسها تحمل اليها ايضاً منتوجات البنغال
وشواطىء كورماندل ومالايار منقولة الى البصرة وبغداد عن
طريق خليج فارس . ان اهم المنتوجات التي تأتينا من هذه
البلدان الغنية هي : الحرائر الجميلة ، والقطن المغزول الناعم ،
والشاش على اختلاف اصنافه ، والكرمسوت الزاهي ، والكوفيات
الفاخرة ، والاواني الصينية المدهشة التي تفد من الصين واليابان ،
والجواهر ، والحجارة الكريمة ، واخيراً كل مادة تتجر بها الهند .
« وبعد هذا العرض الذي لا مشاحة في صحته نرى بدوت
اي مشقة ان دمشق يجب ان تعتبر كأنها مخزن عام للتجارة
(عنبر) ، لا بل اكثر مخازن العالم غنى . فاذا كانت لنا مؤسسات
مبنية على اساس متين تستطيع ان تجني ارباحاً ضخمة .
« واحدى المنافع التي لا ننتبه اليها عادة هي ان التاجر المقيم
في هذا البلد لا تسري اليه عدوى الترف والقيام بنفقات باهظة
كانت سبب انهيار عدة محلات في استانبول وازمير وحلب وعدة
اماكن اخرى . فكل شيء في دمشق بسيط غير مركب ،

والفخفة لم تدخل اليها بعد . ان اهلها غرباء عن البذل الطائش ،
ولا يعرفون لذة غير لذة العمل والتنزه ، والاجتماعات الشريفة .
فالقمار والملاهي والرقص والمآدب الفخمة والسهرات متهمة جميعها
عندهم بانها منافية للحشمة ، هذا ان لم ينظروا اليها كأعمال ائيمة .
« ان اهم المصاعب التي تلاقىها بعض المؤسسات الفرنسية تنتج
عن منافسة خمسة او ستة بيوت تجارية لها . ولما كانت جميع
الوسائل متوافرة لديها بمقدار كبير فلم تكن تتأخر عن استعمالها .
ومن المحتمل انها كانت تجد لناهضتنا مبرراً دينياً ، واي انسان
لا تسيره عصبيته وانانيته نحو الغاية التي يرمي اليها ؟ فهالك
طريقتان للحد من هذه المنافسة المؤذية : خط شريف (فرمان)
يرد هذا الكيد ، او حاكم حازم ينتصر لمؤسساتنا ويحميها .

« اننا لا نضام إلا في هذه المضاربة التجارية . اما فيما عدا
ذلك فقلما نجد بلداً من بلدان تركيا يستطيع الفرنسي ان يتمتع
فيه بحرية حقيقية كما في دمشق . انني اعني الحرية في مختلف
وجوهها . فبقطع النظر عن ممارسة الديانة بصورة علنية ، والتي
يُقام بورتبتها في كنائسنا كما يُحتفل بها جهاراً في القسطنطينية ،
نرى آباء الارض المقدسة والكبوشيين الذين يحافظون ، كما حافظوا
ايها كانوا ، على لباس جمعياتهم ، يتنقلون كل يوم في مختلف
الاحياء دون ان يزعمهم شخص ما .

« انهم يتزهون ويذهبون الى الحدائق آخذين معهم زادهم ، حتى
ان كل عائلة لا بل كل شخص يمكنه ان يعمل مثلهم دون ان
يرى عيباً في ذلك . ولست اذكر ان افرنسياً ما ، سواء اكان
عابراً سبيل او مقيماً ، وجهت اليه اهانة مهما تكن ضئيلة . ان

الشبيبة في تركيا هي ، كما نعلم ، على جانب كبير من القحة . اما في دمشق فأؤكد انها ذات اخلاق دمثة ، توحى ارتياحاً تاماً . اننا نجد هنا اصولاً للياقة . ويعتبر مغفلاً او عديم الفطنة كل من لا يتقيد بها .

« اننا مدينون ، ولا شك ، بقسم كبير من هذه الراحة ، الى اهتمام قوى الامن الواعية . فالحالة ليست كذلك في جميع انحاء الشرق . ان الجزار هو نسيج وحده في هذا المضمار . ولو لم يكن حكمه اكثر الاحكام ظمناً وقساوة وبربرية ، لكان بوسعنا ان يهنيء بعضنا البعض الآخر لاقامتنا في اسعد نقطة من اراضي المملكة العثمانية الواسعة . »

لن أدل القارىء على ما في هذه الرسالة من مبالغة ، وليكنني الفت نظره الى ان موقع دمشق التجاري فقد كثيراً من اهميته حينما ترددت التجارة بين اتباع طريق رأس الرجاء الصالح وطريق تريبزونند .

الفصل الثاني والعشرون

آثار بيروت وضواحيها . منبع نهر بيروت .
اطلال بعل مرقد (دير القاعة) .

قلت في الفصل الاول ان اسم بيروت مأخوذ من اسم بروتس المشتق من بروا التي قامت بتشبيدها عندما اختار اوجيكاس ، زوجها الملكي ، هذا المكان من شاطيء سوريا ليرتاح فيه بعد غزواته العديدة . وبناء على ذلك تكون هذه المدينة ، بلا ريب ، أولى مدن العالم ، ويعود تاريخ تخطيطها الى اقدم القرون . ومهما يكن من امر فلا يمكن ان يعود تاريخها الاول الى ما قبل عام ١٧٤٨ . قال اريستيب دي سيران في تاريخه عن ليبيا : ان اوجيكاس بعد ان استراح في هذه البلاد الجميلة من متاعب كثيرة سمي « نوى » Noas التي تعني في لغة البحار الغفوة والراحة . وهذا المعنى الذي يتوافق ايضاً واللغة العربية حدا بي الى التفتيش عن مشابهات اخرى بين هاتين اللغتين . ولقد وجدت ، في القليل مما تمكنت من مراجعته ، الكلمات التالية :

١ خطبة القاها السيد فورتيا دوربان في الجمعية الاسبوية بتاريخ ٤ شباط سنة

١٨٢٨ .

العربية	الفينيقية
قديم ، قديمون	قاموس
طيب ، طيبة	تيابا
غديري	غديروس
حرم	هورام
دابة	داب
لحم	لاهام
دري ، يدري	ديران
لبان	لابان

وينبئنا الكتاب الاقدمون ان الفينيقيين قد اتوا الى شواطئ سوريا من خليج فارس وبحر القازم . فاذا كان هذا الشعب هو الذي اخترع الحروف الابجدية وعلّمها الاغريق ، فمن الطبيعي ان نعتقد انه علّمها ، اولاً ، اهالي سوريا الذين استقر عندهم . ان قدموس ، كما رأى بلين ٢ ، هو الذي حمل الابجدية الفينيقية الى اليونان . كانت ستة عشر حرفاً ، فاضاف اليها « بالاميد » اربعة تواف الالفباء اليونانية الحالية . وهكذا ، فاذا حذفت الحروف التي تتشابه في اللفظ مثل : ت ، ط ، ض ، ظ ، س ، ص ، ز ، ذ ، والتي تجعل عدد الحروف العربية ٢٨ حرفاً ، اكون قد اعدتها الى العدد نفسه الذي هي عليه الفباء اليونان . واذا شئنا ان نعيدها الى الفينيقية فيجب حذف العين والغين والهاء والكاف والشين ، هذه الحروف التي دعت

٢ التاريخ الطبيعي ، الكتاب السابع ، الفصل ٥٦ .

الضرورة الى اختراعها ، واختراع الثانية الاخرى المذكورة سابقاً لتكسب اللغة العربية طلاوة .

يقول السيد كور دي كابلين^٣ « ان التلفظ بالكلمات كان نتيجة طبيعية لتكوين الجهاز الصوتي ، وانه منذ البدء تلفظ الناس بكل الكلمات الاولى التي تصور بطبيعتها الاشياء ، وتعتبر عن احساسات وتفكيرات . »

لقد فتشت في جميع أنحاء سوريا عن مكان يطابق اسمه التقليدي « أرجو » - اسم البارجة التي ركبها اوجيكاس - فلم اجد سوى عرجس قرب طرابلس .

ويحدثنا التاريخ « انها حفظت في هيكل شديد خصيصاً لهذه الغاية في جبل لبنان تذكراً لقدم اوجيكاس ، وان هذا الهيكل سمي أرجو . »

اننا ندهش اذا لا نشاهد في بيروت اثرأ خليقاً بعظمة هذه المدينة . فما يجده الرحالة اليوم تافه جداً بالنظر لما كان ينتظر ان يراه فيها . فبقليل من الخيال ، والاستعانة بالاعمدة الباقية ، نجد ، اذا ما اتجهنا صوب الشرق ، ابتداء من الاعمدة التي ما تزال منتصبة في المسجد المحمدي الصغير المسمى بـ « الرجال الاربعين » ، آثار هيكل قد تكون هذه الصفوف من الاعمدة تؤلف اروقته . واذا حكمنا ، بالقياس ، على صف الاعمدة القائمة وحدها ، وعلى الكثير المرتمي على مقربة منها ، نستنتج ولا ريب ان هذا الهيكل كان فسيحاً جداً . واني اقول ، وهذا رأيي الخاص ، ان الاعمدة

٣ فكرة عن العالم الاولي ، الجزء الاول ، ص ١٠ .

الباقية هي اعمدة الجهة الشمالية ، اذ لا نزال نجد عدة اعمدة من الصوان ، من الحجم نفسه ، في ناحية تحمل على الافتراض ان الرواق الجنوبي كان يبتدىء بها . ان الاعمدة الموجودة على طريق باب الدركة وبرج الكشاف تتخللها مساحات صحيحة القياس تحملنا على الاعتقاد بانها لا تزال في المكان نفسه الذي احتلته في هذه البنية .

ان باب الدركة يعلوه حجر ضخيم مزين بالرسوم وقد حفرت عليه مخطوطة العمود . وهو فيما عدا ذلك يصلح مقياساً لمساحة الهيكل . اما المخطوطة فقد أخذت صورة عنها ، إلا انها غير واضحة .

وعلى مقربة من المكان الذي يسمونه المرفأ الصغير نجد بناء في شكل نصف دائرة لم يبق منه سوى اساساته ، ويُظن انه كان ملهى يرتادونه في النهار .

ونرى هنا وهناك نواويس صنعت من مواد مختلفة وصغوراً اقتلعت من ضواحي بيروت وحفرت ، كما قلت ، لتستعمل مدافن . اما بقايا البناية القديمة التي تقع على مقربة من المكان الذي يزعمون انه المكان الذي صرع فيه مار جرجس التنين ، فهي تحوي ايضاً مدافن صغيرة : اثنان منها للجهة الشمالية في الاسفل ، والثالث مجفور تحتها ويقطعها طولاً . وهذه البناية ذات شكل غريب ، يُظن لاول وهلة انها مهياة لعمل مائي . فانابيب الفخار التي وضعت فيها تدل على انها كانت معدة لجر المياه . الا انه يُفهم ، عند رؤية المجاري عن كثب ، انها لم توضع هنالك الا للزينة ، لان عمقها يراوح بين ١٨ و ٢٠ سنتيمتراً ، وهي مسدودة

من الداخل . وهناك قسم باق من حائط سور بيروت بُني بحجارة يدل شكلها ولونها على قدمها .
ان بلاطة جميلة من الفسيفساء اكتشفت هنالك عام ١٨٣٦ .
ثم عثر على بلاطات بلغت من الفن غايته ، ولكن التنقيب حطم قسماً منها . اما انا فكان نصيبي رأس رجل مسنن ، وقور الملامح .
وظلت الفسيفساء التي لم يُتمكن من نزعها عالقة بكمية من الطين ، فاضطرت الى ترك اللوحة في حديقتي . ثم كان زلزال اول كانون الثاني سنة ١٨٣٧ ، ففرق بين هذين المركبين وحول الفسيفساء الى الف قطعة وقطعة .

عثر الباحثون على نواويس عديدة في بيروت اهمها اثنا عشر يتفردان بشكلها ، وبالنقوش التي عليها . غير انه لا يحق لنا ان نحكم عليها تبعاً لامامنا الفني وذوقنا الحاضر . فاحدها نقشت عليه هذه الحروف IVLIA MAMMEA . وهذه الآثار استراها اميركيو الولايات المتحدة ونقلوها الى بلادهم .

ووجدت في ضواحي بيروت نقوداً كان يتداولها محاربونا الصليبيون ، وقطعاً نقدية اخرى بقيمة فرنك ، باسم لويس التاسع ، وهذه النقود نقشت على وجهها السلاسل . فان الملك لويس ، كما يرى السيد ده لاسيناجري ، قطع عهداً لسجانه بان ينقش على النقود التي تضرب باسمه رسم سلاسل العبيد علامة القبض عليه .
« ولما كان الملك لم ينس تعاسته ، بل كان يذكرها دائماً ، يقول السيد ميشو ، فقد امر لدى رجوعه بتبديل العملة ، ووفى بوعدته . وقد جاء في احد التواريخ انهم ضربوا نقوداً صغيرة من الفضة (باريسيس Parisis) ، ونقوداً كبيرة تحمل رسم

السلاسل والاصفاد لتذكر بأسره ٤. »
واول طرفة نجدها حين نبتعد قليلاً عن المدينة هي القناة
القديمة التي تمد بيروت بالمياه. يذهب اليها في طريق ظريفة جداً.
وفي السهل نجد آثار المجرى الذي كان ينقل هذه المياه. كان
بالامكان ، لو كنا في ظل دولة اخرى ، ان نرمها ونجر بها الماء
الى المدينة التي هي بحاجة ماسة اليه . ان مجرى المياه هذا قائم
على سطح الارض ، فهو بين تارة ، وحيناً يختفي تحت التراب ليظل
مخفياً على معدل استوائه الذي يقتضي كثيراً او قليلاً من
العمق . ويمكننا الحكم نظراً لطريقة بناء القناة بان الزلازل ،
وحدتها ، لا تستطيع ان تهدمها . فهي ، والحق يقال ، صنع الرومان ،
وربما كان هؤلاء قد قاموا ببنائها على طريقة الاغريق . فالمجرى
الذي كان ينقل مياه النبع باق حتى اليوم في سفح الجبل ، لجهة
الشمال . ولما كان لا يفوت الاقدمين شيء لبعده نظرهم المتناهي ،
فقد غطوه ببلاط جميل متراص على اكمل وجه . ان هذا المجرى
يستخدم اليوم لجر المياه الى طاحونة ، وهذه هي المنفعة كلها التي
جناها العرب منه ، وهم يحسبون انها كافية .
وقبل وصولنا الى النبع بربع ساعة نجد الى الشمال مغارة
سماها العرب الكنيسة ، ومغارة اخرى تسمى مغارة القصير ، كان
يقيم فيها المكلف حراسة المجرى وصيانته ، هذا ان لم تكن صومعة
ناسك ما . انها غرفة صغيرة مربعة الحجم ، علوها يزيد قليلاً على
المترين ونصف المتر ، اما عرضها فثلاثة امتار و١٥ سنتيمتراً . اما

٤ تاريخ الحروب الصليبية ، الجزء الرابع ، ص ٤٤٥ .

فسحة الباب فهي متر وثمانية سنتيمترات طولاً ، ومتر وخمسة وثلاثون سنتيمتراً عرضاً . وفي هذه الغرفة ، عند السقف لجهة اليسار ، ست طاقات مربعة ، وللجهة اليمنى خمس .

واحدى هذه الطاقات تتصل بالخارج بطاقة ضيقة طويلة . وعلى مسافة عشرين قدماً الى اليمين تقوم النوافذ . وفي هذا الوادي تقوم قرية تسمى زيرة معن ، وقد كانت موطن فخر الدين الشهير .

أتفق ان اقتربت من الساقية لأتنشق قليلاً من الهواء الرطب ، فاذا بي امام عدة اشخاص يعدون نوعاً من العجين . ولما سألتهم عن الوجه الذي يستخدمونه فيه اجابوني : لصيد السمك ... لقد جهزوا لهذه الغاية محقناً كبيراً ، او شبه ملبجاً ، تاركين فيه منفذاً واحداً تعبر منه المياه .

يتألف ذلك المعجون الذي يعدونه من غدد النبتة المسماة « آذان الارنب » ، ومن ثمرة شجرة اللبني ، ومن الرماد . تمزج جميعاً وتذق ، ثم توضع في سلال وتغمس عدة مرات في المياه حتى يذوب هذا الخليط بكامله . ان ثمر اللبني اسمه « حوز » في لغة العوام .

ان هنالك فريقاً من الاوروبيين الذين يستخدمون حوز القىء لصيد الاسماك ، وعلى الاخص عند مجاري الأنهار ، فعندما يبلغ هذا الدواء القاتل خياشيم السمكة تصعد الى وجه المياه فاقدة الوعي ، فيطلق عليها الصياد اليقظ النار (ترويل) ، اذ لا يمكنه تصيدها بغير ذلك ، لانها لا تلبث ان تغوص فوراً .

وفوق ينبوع نهر بيروت يقوم دير القلعة ، وقد سمي كذلك

لانه شيد والكنيسة على اطلال هيكل قديم . والعرب يطلقون اسم القلعة او الحصن على جميع انقاض العصور القديمة الضخمة . وهذا الدير الماروني الواقع على قمة جبل تبعد مسافة ثلاث ساعات من بيروت ، والذي يتسع لما يقارب العشرين راهباً ، يتمتع بأنقى هواء . لا شيء يحول دون رؤيته ، فهو يرى من مكان بعيد جداً . والكنيسة شيدت منذ خمس وسبعين سنة في فسحة تقارب ثلثي الفسحة التي قام عليها الهيكل القديم المكرس ، حسباً أنباتنا المخطوطات العديدة ، لجوبيتو بعل مرقد . وفي الجهة الشمالية لهذا الهيكل قامت قديماً مدينة صغيرة اطلق عليها هذا الاسم ، والقرية التي تقابل هذا الدير تسمى بيت مري . ان منازلها مشيدة بانقاض المدينة لاننا نجد في بعضها حجارة ضخمة وحطام المنحوتات والنقوش . ان اساسات هيكل جوبيتو القديمة شيدت على قطعة من صخور منحدره ومقطوعة باتقان ، يبلغ طولها اثنين وثلاثين متراً وستة عشر سنتيمتراً ، اما عرضها فنلاثة عشر متراً وثلاثة وسبعون سنتيمتراً . كان الرواق يتألف من ثمانية اعمدة ضخمة من الصوان الابيض تقوم على صفيين . لا تزال اربعة منها قائمة ، ويبلغ اطار الواحد منها نحو ستة امتار . واذا حكمنا وفقاً لما تدل عليه قواعدها فيمكننا القول ان تاريخها يرقى الى العصر الذهبي . وهناك بعض اعمدة صغيرة مبعثرة استخدمت وتيجانها لبناء الدير وماحقاته ، وهي كذلك عتقاً . ليست الانقاض نادرة في هذا المكان ، فعلى مسافة مائة قدم من الدير نجد ، في الجهة الشمالية ، اطلالاً عديدة تدل على آثار هيكلين يرجعان الى عهد قديم جداً ، يدلان على انها اندثرا قبل

عهد جوبيتو . ان احدهما مربع الحجم ويرتفع عن الارض متراً واحداً ، ويصعد اليه في درج يبلغ عرضه ستة امتار . وفي وسطه صخرة قامت ، ولا شك ، قاعدة عليها ، وهو مكس على اسم جينوت . يبلغ ارتفاع الباب ثلاثة امتار و ٢٢ سنتيمتراً . اما الجدران فمبنية بحجارة حجم الواحد منها متر مربع . ومع ذلك نجد بينها حجارة طولها ثلاثة امتار وثلاثين سنتيمتراً ، وعرضها اربعة امتار . ان الاعمدة التي نجدها بين هذه الانقاض يبلغ حجمها ثلاثة امتار واربعة وسبعين سنتيمتراً ، وقطرها ٤٧ سنتيمتراً .

ونجد ايضاً قاعدة يزينها في وسطها اكليل من الاوراق في نصفه وردة . وبين هذه الانقاض نرى ارجاء للطحن يبلغ قطرها متراً وخمسة وستين سنتيمتراً . ونجد هنا وهناك حجارة واجنات تستخدم اليوم أجراًناً .

وبين هذه الاطلال وققت الى اكتشاف بعض الرسوم التي حفرت لتجميل بناء الهيكل . وعلى عين هذه الانقاض ويسارها ، نجد عدداً لا يستهان به من النواويس المنحوتة في الصخور ، وهي ذات اتساعات مختلفة .

وفي منحى الجبل للجهة الغربية ، ابتداء من القمة حتى قعر الوادي ، كتل ضخمة من الصخور مختلفة الاشكال . واغلب الظن ان المقلع الذي اقتطعت منه الاعمدة وحجارة الهيكل وابنية بعل مرقد الجملة كان هناك .

ان مياه هذه المدينة والهيكل كانت تأتي من ينبوع يبعد عنها مسافة ثلاث ساعات بواسطة مجرى حجري ، لا تزال نرى آثاره ممتدة على طول الطريق في حالة زرية ، وسيبقى هكذا الى

الابد بفضل تغافل القرويين .

وبين المخطوطات التي عثرتُ عليها بين الانقراض اثنتان
منها باللغة الاغريقية تمان بصلة الى تاريخ انشاء هذه القناة . لقد
شاء مؤسسها ان يخلد ذكر حسن صنيعه ، هذا الصنيع الذي هو
بحق قيم جليل ، لان وزراء الاله جوبيتر الكبير الذي كانوا
ينعمون بمناظر جميلة ، وهواء ممتاز ، لم يكونوا يرغبون الا بالماء
العذب . انه الشيء الوحيد الذي كان ينقصهم .

وبين بيروت ونهر الكلب يقوم دير مار الياس الصغير الذي
خلف ولا شك احد الهياكل . ان العرف القديم المتبع وعادة
الذهاب الى هذا الدير لطف اليمين ، عندما يطلبها القاضي من
فريق ما ، او يتوقف عليها حل خلاف في احد المنازعات ،
ذكرانا بهذا النوع من الاختصاص الديني القديم . ان المسلمين
والدروز يؤمنون ايضاً ببطش مار الياس وفتكه . وقد اكدوا
لي انه لا يوجد في البلد واحد يجرؤ ان يحلف به زوراً . ودون
ان اناقش صحة هذا الزعم ، استطيع ان اؤكد ان ذلك البلد
يزخر بالكذابين ، لان الكذب هو عند الشرقيين طريقة مجدية ،
او خدعة بريئة ، او نوع من المهارة .

الفصل الثالث والعشرون

آثار نهر الكلب .

ان آثار نهر الكلب اصبحت معروفة تماماً في ايامنا هذه ، ولا سيما بعد ان سبك السيد بونومي قوالب لها من الجص . لا مجال للتحدث عنها ههنا ، لانهم كتبوا عنها كثيراً . غير اني احسب ان القارئ سيقراً بشغف الرسائل التي بعث بها الي السيد لاجار العضو في المجمع العلمي ، وجوابي عليها ، فهي ، كما اظن ، احسن طريقة تمكنه من ادراك اهمية هذه الآثار نظراً لقدمها غير المنازع عليه .

الرسالة الاولى

باريس ، ٢٥ حزيران ١٨٣٤ .

« عندما تشرفت بمقابلتكم في باريس ، لسنوات خلت ، تفضلتم واطلعتوني على صورة نقلت عن احد الآثار المنقوشة في واجهة الصخور بضواحي بيروت . ربما تذكرون ان هذه الصورة التي تمهني جداً قد فسحت لي في المجال لاختبركم ان رحالة انكليزياً هو السيد بانك قد اخذ بنفسه ، او بواسطة غيره ، من المحلة نفسها ، نسخة عن مخطوطة كتبت بلغتين : القسم الاول كتب بالحروف الهيروغليفية ، والثاني بالحروف المسماة . وهذه المناسبة دلتكم

آنذاك على الذكر المقتضب لهذا الاكتشاف الذي ادخله السيد شامبوليون في طبعته الثانية (١٨٢٨) من كتابه الموجز في الخطوط الهيروغليفية ، الصفحة ٢٧٢ ، تحت هذه العبارة : « اننا نجد ايضاً هذه المخطوطة الملكية نفسها (مخطوطة رعسيس التي ايدها كري) في مخطوطة كتبت باللغتين الهيروغليفية والمسماية . ان هذا الاثر الثمين موجود في نهر الكلب بسوريا وهو (بالطبع نهر الاقدمين المدعو ليكيس) قرب بروتوس القديمة (اي بيروت التي تقع بين بيلوس وصيدون) . »

« ان رسمك ، كما اذكر ، لم يكن يحتوي على مخطوطة هيروغليفية . انما هنالك اشارة غامضة الى مخطوطة كتبت بالحروف المسماية محفورة على صخر رملي الى جانب شخص لم البث ان عرفت به ملكاً عجباً من سلالة الاشمنيين Achéménides . اظن اننا نجد في المكان نفسه ، حيث عثر على هذا الاثر الطريف ، عدة آثار اخرى لا نزال نتبين منها بضعة رسوم وجوه ومخطوطات هيروغليفية ، اكل معظمها هواء البحر وغيره . »

« وهناك نبأ آخر ، نشر حديثاً في مجموعة تقوم بطبعها جمعية علوم المراسلات الاثرية ، المؤسسة عام ١٨٢٩ ، وهي جد محترمة ومتداولة ، قد استفز انتباه العلماء وفضولهم اذ قال ان جواله انكليزياً آخر ، هو السيد ليريك ، وصل حديثاً الى نابولي بعد ان وجد المخطوطات الهيروغليفية والمسماية التي اكتشفت منذ عدة سنوات في نهر الكلب . إلا ان هذا الرحالة لم يأخذ رسم الوجوه ولا نسخة المخطوطات . ان حديثه يختلف في نقطة هامة عن حديث السيد بانك ويتفق مع ما قلموه ، فانه يزعم « ان

المخطوطات الهيروغليفية ممحوة عمداً ، في حين ان المسماة لا تزال
محفوظة على احسن وجه . »
« ان السيد لافين الذي قام ، بناء على رغبة السيد وليم جيل ،
العالم الشهير بالآثار ، بزيارة نقوش نهر الكلب ، يعتقد ان هذه
المخطوطة حفرت بامر من قمبيز ، وان هذا الملك سما المخطوطة
التي كتب عليها بالحروف المصرية اسم رعسيس او سيسوستريس
كيلا يترك دليلاً تاريخياً كهذا ينسب عن غزوة الملك المصري
لآسيا الغربية .

« وألاحظ بدوري ان هذا الافتراض ، لو كان يرتكز على
اساس صحيح ، لاصبح من الصعب تفسير تمكن السيد بانك من
نسخ او استنساخ اسطورة مصرية ، في المكان نفسه ، يقرأ عليها
اسم رعسيس او سيسوستريس . وبما ان هذا الرحالة او موفده قد
زار نهر الكلب قبلكم على ما اظن ، وقبل السيد لافين بعدة
سنوات ، فيجب ان تسلم ، توصلاً للتوفيق بين هذه الادلة الثلاثة ،
بانه : اما ان تكون المخطوطة المصرية ، التي اخذها السيد بانك او
موفده من نهر الكلب ، قد اُتلفت بعد سفره او سفر موفده الى
سوريا ، واما ان تكون محفورة في مكان غير نائي ، فلم تنتهبوا
اليها ، لا انتم ولا السيد لافين ، ولا الذين كفوا تنقيذ اوامر
الهدم للقيام باعمال التنقيب التي امرهم بها الملك العجمي الذي
اريموني رسمه .

« وبعد ، فأرى ان ملاحظة المرحوم شامبوليون التي ذكرت
ودونت ، على الارجح ، بناء على المعلومات المعطاة من السيد بانك ،
لا تشير البتة الى وجود هذا الرسم المشار اليه ، او وجود اي

رسم آخر في نهر الكلب . ويظهر ان السيد لافين هذا ، اذا
حكمتنا بناء على احاديثه الموجودة بين يدي ، لم يتحدث عنها اكثر
من ذلك . واني آسف جداً لعدم مواصلة العمل الذي شئتم ان
تجعلوه في متناول الجميع بحفركم هذا الرسم ليكون في عداد
مشاهدات رحلاتكم . اني اجعل اذا كنتم عدتم عن نشر هذه
المشاهدات . وفي حالة الايجاب ارجوكم ان لا تعتبروا طلبي نسخة
عن الرسم المشار اليه ، وعن معلوماتكم المتعلقة بنقوش نهر الكلب
الاخري ، افساء للسمر . انه لمن الجائز بعد رجوعكم الى بيروت ان
تتاح لكم فرصة العودة الى تلك الامكنة كما فعل صديقي العالم
المرحوم سان مرتان . ومن المحتمل ايضاً ان تنجزوا عند ذلك رسم
الاثر الذي يمثل ملكاً عجبياً وتنقلوا بدقة المخطوطات المسماة
المتعلقة به ، هذه المخطوطات التي تبين منها ، وفقاً لما جاء في رسلكم ،
انها تمت الى طريقتين مختلفتين في الكتابة ، وانها تتضمن اسم الملك
الفارسي والقابه . ان الاسم والالقاب مكتوبة ولا شك باللغتين
العجمية والسريانية او بآية لغة اخرى آرامية كما نرى شبيهاتها الاخرى
في برسيبوليس (المدائن) وهمدان وفان Van, Hamadan, Persepolis .
« فسواء أنقبت مرة ثانية في ضواحي نهر الكلب او كنتم لا
تملكون سوى الملخص والمعلومات التي حصلت عليها في زيارتكم
الاولى ، فاني اعلق اهمية كبرى على الطلب الذي التمسته منكم .
ويجب ان تتيقنوا ، اذا ليتم طلبي ، وسببتم لي بالتصرف بهذه
المستندات القيمة ، باني اجد لذة كبرى في ان انسب الى احد
مواطني فخر الاكتشاف الذي يدور حولها .
« انه لمن الطبيعي ، في وقت اتجهت فيه بنوع خاص انظار

جميع علماء الآثار الى القضايا التاريخية والمذاهب الدينية ، وآثار
آسيا ومصر المصورة ، ان تستقبل الادارة العامة لمجمع علم
المراسلات الاثرية ، المؤسسة في وقت واحد بروما وباريس ولندرة
وبرلين ، نبأ وصول السيد لافين الى نابولي ، لتدل الطبقة الراقية
على اهمية آثار نهر الكلب وتدعو السائحين المثقفين الى التنقيب في
هذه الامكنة باكثر ما يستطيع من اهتمام حتى يومنا هذا ،
يساعدهم في ذلك رسام ماهر هو السيد بونسون ، وزير بروسيا
في روما ، ورئيس الادارة وكاتب المقال المنشور في المجموعة
الاثرية . انه كان يجهل تماماً انكم ذهبتم وشاهدتم بام العين تلك
الامكنة ، وانكم اتبتم بوسم الملك العجيب الذي لم يُشر اليه في
مشاهدة ما . وقد كتبت اليه اعلمه بذلك .

« ان ادارة المجمع تعلق اهمية كبرى على نجاح هذه المهمة ،
ولا سيما ان السيد بانك يصر على عدم نشر مخطوطة نهر الكلب
المكتوبة باللغتين او اطلاق احد عليها ، كما يصر على ان لا يعطي او
يتنازل عن واحدة من الكثيرات التي اتى بها من رحلاته الاخرى .
« هل تأملتم طبيعة الصخرة التي نقشت عليها هذه الآثار في
نهر الكلب ؟ ان البعض يقولون انها من الحجر الرملي الطري ،
والسيد لافين يقول انها حجر اشهب صلب . »

رسالة السيد لاجار الثانية

باريس ، اول ايلول ١٨٣٤ .

« اني ، خوفاً من ضياع الكتاب الذي تشرفت بارساله اليكم
في الخامس والعشرين من شهر حزيران المنصرم ، ابعث اليكم

بمسئلة ثانية عنه ، واستمبحكم عذراً بان اضيف بعض معلومات
استقيتها من العدد الاخير لصحيفة مجمع علم المراسلات الاثرية
الصادرة عن روما .

« ان هذه الصحيفة تتضمن كتاباً للسيد وليم جيل يدل ، كما دل
المقال الاخير الذي نشره السيد بونسون ، على الاهمية التي
تعلقها الطبقة الراقية على مخطوطات نهر الكلب ونقوشه .

« ان السيد وليم جيل يصحح في هذه الرسالة بضعة اخطاء
فاتت السيد بونسون ، ثم يحاول ان يثار لمواطنيه بما اخذه عليهم
السيد روزيليني ، حول هذه الآثار في مشاهداته التي نشرها في
بييز بعد سفره الى مصر ، ذلك السفر الذي قام به ، كما تعلمون ،
بالاشتراك مع المرحوم شامبوليون الشاب . ان السيد روزيليني
يستغرب ويشكو اهمال انكثرتا في عدم نشرها ومعابنتها ، في
الامكنة نفسها ، كل ما يتعلق بأثر يهم التاريخ كأثار نهر الكلب
حيث ترى مخطوطة محفورة بلغتين يقرأ فيها اسم رعسيس
وسيسوستريس بحروف هيروغليفية . والسيد روزيليني يدرك افراطه
في الاهمال حتى انه لم يعلم هو ولا المرحوم شامبوليون لمن نحن
مدينون بفكرة اكتشاف هذا الاثر الثمين .

« ان السيد وليم جيل يصرح في هذه المناسبة بان صاحب
الاكتشاف هو سائح ايرلندي : السيد وايز ، وقد اعطاه ، بعد عودته
من سوريا ، نسخة عن مخطوطة نهر الكلب الهيروغليفية ، وهذه
النسخة نقلها حالاً السيد وليم جيل للدكتور يونغ الذي تكلم
عنها في الصفحة ٥٢ من خطبة حول المخطوطات الهيروغليفية .
« الا ان رسالة السيد وليم لم تنبئ عن الفترة التي زار في

اثناً « وايز » نهر الكلب . اننا نلاحظ فقط انها قبل الرحلة التي
قام بها السيد لافين الى سوريا بسنوات عديدة . ان السيد لافين
هذا قد سمي لفيك خطأ في مقال السيد بونسون .
« انه لم يؤت في هذه الرسالة على ذكر السيد بانك ، كما انها
لم تنبئنا شيئاً عما اذا كان هذا الرحالة شاهد او نقل صورة ملك
مصري او صورة اي وجه آخر . وعلى الرغم من انها تشير الى
قمييز فاني لا ازال اصر على الاعتقاد الذي راودني دائماً بان
اكتشاف صورة ملك العجم في نهر الكلب عائد بالطبع اليها ،
وان كانت تعترضنا هنا عدة اسئلة :

« ١ - المخطوطة باللغتين (التي يحوزها السيد بانك سواء أكان
نقلها له السيد وايز او رحالة آخر ، او كان ذهب هو بنفسه
وشاهد هذه المخطوطة التي لم تنشر بعد) ، هل حفرت الى جانب
الملك العجمي الذي ارتموني رسمه ام على صخر آخر في المحلة
نفسها ؟

٢ - لنفرض انها لم تحفر الى جانب الملك الفارسي فهل نجد
على مقربة منها آثار حفر تحملنا على الاعتقاد بانها تلاصق صورة
ملك مصري ربما احدث بامر من فاتح عجمي او بسبب آخر ؟

٣ - كيف هو نسق القسم الهيروغليفي من هذه المخطوطة
بالنسبة الى القسم المكتوب بالحروف المسماة ؟ هل هذا القسم
الاخير مقسوم عمودين او ثلاثة طبقاتاً للاسلوب الذي كنا
نلاحظه في آثار المدائن وهمدان وفان ؟

٤ - واخيراً هل ان آثار النقش والحفر ، التي ترى على واجهات
الصخر في نهر الكلب ، هي غير التي رأيتوها ونقلتها عنها

صورة ملك عجمي ؟ ألا تزال هذه الآثار ظاهرة اليوم فيمكننا ان نحكم حين نراها اذا كانت هذه الآثار ترجع الى فن او تاريخ المصريين او الى ملوك العجم ؟ وفي الحالة الاخيرة هل يمكن الظن ان ملوك العجم قد محوا التصاوير المصرية او المخطوطات الهيروغليفية ليستبدلوا بصورهم الخاصة ومخطوطات مسمارية ؟ ان جميع هذه الاسئلة تؤكد لكم مرة اخرى جهلنا الكبير في اوروبا ما يمت الى آثار نهر الكلب بصلة ، وبابي جزع تنتظر الطبقة المثقفة المعلومات الحديثة عنها التي استقيتموها استقاء لم تسبقوا اليه او عرفتموها بعد معاينتكم تلك الامكنة .

جواب

بيروت ، في ٥ كانون الاول ، ١٨٣٤ .

اني لم اتسلم الا منذ حوالي عشرين يوماً الرسالتين اللتين شرفتموني بكتابتهما الي بتاريخ ٢٥ حزيران واول ايلول . اني اجهل السبب الذي آخر وصول الرسالة الاولى في حينها ، وآسف كل الاسف ان يحول هذا التأخير دون اشباع رغبتكم باسرع ما يمكن . ان هذا التأخير قد اضر بي ايضاً فحال دون اتمام معلومااتي التي كان يستطاع اكمالها بسهولة في فصل الصيف الجميل ومعونة السيد بونومي الذي كان عندنا . ولما كنت قد وهبت الرسم الذي تشرفت باطلاعكم عليه ، وكانت اشغالي لا تسمح لي بعد عودتي ان اهتم بغير مشاغل وظيفتي ، فقد اضطرت للقيام خصيصاً برحلة الى نهر الكلب

لامدكم بالمعلومات التي اجد بعض اللذة في نقلها اليكم .
ولما كانت رسائلكم تشتمل على طائفة من الاسئلة ، فقد فكرت
في ان اجيب عليها بعد استعراضها ثانية ، لاني اذا لم اروي غليلكم
في كل شيء فستعتقدون اني تعمدت ذلك .

اظن اني لم اكن المكتشف الاول لآثار نهر الكلب التي هي
على مرأى من المارة ، وقد اكون المكتشف الاول للتي فوق
الطريق بمعزل عن الناس . والذي يثبت ذلك هو ان السائحين
لم يتعدثوا عنها الا بعد ان ارشدتهم اليها . لقد اخذت صورة عنها
عام ١٨٠٨ قدمتها الى والدي فاعطاها هو الى الذين جاؤوا الى زيارتها
ورؤيتها . ان غيابي الذي استغرق فترة ثلاث سنوات لم يسمح
لي ان اعرف اسماء السياح الذين مروا بطرابلس حتى عام ١٨١٢
معرفة دقيقة .

نقلت حينذاك قسماً كبيراً من المخطوطة المسماة . واما
اللوحة رقم ٦ فقد ظننت انها اغريقية ، وهذا تقدير بحت اوحاه
الي الشكل المربع الذي حافظت عليه الحروف حتى يومنا هذا ،
وان لم يكن يستطاع تمييزها او معرفة واحد منها . فهل تكون
صفة اللغة المزدوجة التي اطلقت على مخطوطات نهر الكلب عائدة
الى نوعي حروف المخطوطات ؟ يجب ان اعتقد ذلك . الا انها تصوير
غير قابلة التصديق بالنظر الى المخطوطتين المسماة والهيوغليفيه .
هذا اذا لم يكن تلازماً هذين الاثرين (رقم ٨ و ٩) قد حمل على
اعتبارهما اثراً واحداً .

من الممكن ان يكون بعض العارفين قد اكتشفوا آثاراً
للحروف المسماة في اسفل وجوه اللوحة المصرية . اما انا فلا

يمكنني ان اجازف باية فكرة من هذا النوع . اني اقول فقط ان هذه الافتراضات يمكن ان تفسر وتوضح من السيدين بونومي وكاترفود اللذين اصطحبا الى انكلترا رسوماً جد صحيحة عن آثار نهر الكلب ، لا بل الطبعة نفسها عن الاثر ذي الرقم ٩ .

والسيد بونومي ، وهو نحّات ومهندس مشهور متخصص بدراسة الحروف الهيروغليفية ، لم يدخر ، ولا ريب ، بعد ان نقل طائفة كبيرة منها اثناء تجواله والسيد شامبوليون ، شيئاً من وسعه ليقرأ كل ما تستطيع قراءته في نهر الكلب .

ونظراً للمعلومات الوثيقة التي أدلينا بها لم تبق لي فائدة تذكر من نقل بقايا هذه المخطوطات ، ولهذا اكتفيت بنقل صور الوجوه التي لم اتمكن من الحصول عليها ، الا اثناء الليل ، بعد ان استعنت بمشعال اراني خطوطها نائمة لانها تكاد تكون بمحوّة .

ان اللوحات المصرية مقعرة دون ان تكون مجوفة كثيراً . اما رأي السيد لافين حول محو الآثار المصرية فلا يرتكز كما اظن على دعامة .

اولاً - لان عملية المحو تعرف من آثار الادوات التي استخدمت لهذه الغاية . ثم لو كان المحو متعمداً لما بقي ما نراه الآن من مخطوطات هيروغليفية لا تزال محفوظة . اما الذي اظنه انا فهو ان المحو ناشيء عن طبيعة الصخرة ، فهي اشد صلابة في ناحية منها في الناحية الاخرى .

ثانياً - لان الاطار لا يزال في حالة حسنة .

ثالثاً - لان تلف اللوحات العجيبة في تناسب تام مع تلف اللوح المصرية ، واذا ما وجدنا بين الاولى لوحة رقم ٩ في حالة

اقل تلفاً من الباقية ، فذلك لانها استفادت من عرق اكثر صلابة
من بقية اجزاء الصخرة ، ثم لان هذه اللوحات تقع في مكان منحدر
وفي مأمن من الشتاء .

ان افتراض عملية الحو لا يمكن التسليم به ، اذ يقدر كل
رحالة مطلع على علم الحروف الهيروغليفية ، ولو قليلاً ، ان يرى
لاول التفاتة وجه واسم سيسوستريس في القسم الباقي من خطوط
النقوش المصرية وحروفها . ما كاد الدكتور باريزه ، الذي توجه
معي الى نهر الكلب ، يرى اللوحة ذات الرقم ٨ ، حتى قال
لي وهو يشير الى الوجه : انه رعمسيس . والسيد بونومي كان
من هذا الرأي ، وقد قال لي انه ادرك ما ترمز اليه هذه الآثار
المختلفة . وقد رسم لي صورة رأس أتأسف لعدم حفظي اياها .

ان المنحوتات لم تتعرض لاي تلف منذ زمن ما . ولقد احبط
سعي انتزاع اللوحة العجمية ذات الرقم ٩ ، ما لافيته من مشاق
عند مباشرة تنفيذه .

والصعوبة الكبرى التي تلمسونها انتم في التوفيق بين الادلة
المختلفة المأخوذة عن آثار نهر الكلب ، ناتجة عن تقلقل اراء السيد
بانك ولافين . ذلك لان الاول لا يتكلم مطلقاً عن الوجوه
الفارسية مع انها تبلغ الستة ، واثنان منها ملتصقان بالآثار
المصرية ، ثم لانكم قد تحملون على اعتناق فكرة السيد لافين
القائلة بمحو المخطوطة المصرية بامر من قمبيز ، وهي المخطوطة
الهيروغليفية التي اطلع عليها السيد بانك .

ان الادلة التي تشرفت بتقديمها لكم ورسم الاثر رقم ٩ الذي
سبكه السيد بونومي تعني عن المخطوطة المسماة .

ان الصخور التي حفرت عليها آثار نهر الكلب هي من حجر
قاس كلسي ابيض اللون في الداخل ، اما سمته الخارجية فناحجة
عن تفاعل الهواء والماء .

ان الرسوم التي اجد لذة في ارسالها اليكم تجيب على الاسئلة
المدونة في رسالتكم الاخيرة . واكرر هنا اني لا اظن مطلقاً ان
ملوك العجم قاموا بحفر المخطوطات المصرية او الهيروغليفية ، وان
التلف الذي تعرضت له آثار نهر الكلب هو وليد الازمنة .

ان المخطوطة اللاتينية الموجودة في جوف الصخرة نفسها نجد
فيها سطراً محي . وهذه المخطوطة تثبتنا ان العرب سموا ليكيس ،
نهر الكلب ، لمشابهة الكلب للذئب المحفورة صورته عند الممر فوق
الحاجز . ولما كان هذا التمثال اجوف فارغ يعوي عند هبوب نوع
من الرياح ، فقد اعتقد العرب انه كان مسكوناً ، وعزوا اليه تهديم
الجسر الذي شاءت ايداء غير لبقة ان تستبدله بالجسر الذي بناه
الرومان فحملته مياه شتاء قاس . وعند ذلك تقرر التخلص من
هذا الكلب المشؤوم ، فدهور الى قاع البحر .

واضيف هنا نبذة من رسالة بعث بها والذي الى السيد ستون
تتعلق بالمخطوطة اللاتينية التي لم تفهم بعد :

« علام التفريق بين اوريل وانطونان التقي وكلاهما من حاشية
امبراطور واحد ؟ فمن الجائز ان يكون لقب البريطاني لم يمنح
لانطونان ولا خلفه . ان كاركلا هو الذي ادعاه لانه رافق اياه في
حملته الى بريطانيا . وهذا الملك اتى بعد ذلك الى سوريا ، واضطر
لان يعبر هذه الطريق في الجبل سنة ٩٦ قبل المسيح ، وكان
يقصد الاسكندرية لينزله ، حسب تعبير مونتسكيو ، صولته وبطشه

متلذذاً بمشهد عدد كبير من الرجال ذبحوا في احد الاعياد . ولذلك
رمت الطريق ووسعت اما بامر من الامبراطور ، واما لاكتساب
رضاه عندما كان في انطاكية . »

حاولت مخطوطات اغريقية وعربية ان تخلد ذكرى الفاتحين الذين
مرّوا في هذا المكان ، إلا ان الايام قست على تلك الآثار التي
ارادوا ان يتركوها لتعرفهم بها اليوم .

لقد املت بضعة اسطر من مخطوطة اغريقية وانا ممسك بالصخرة
باحدى يدي ، حاملاً بالاخري مشعلاً لامتكن من قراءتها . ان
الكاتب الذي رافقني لا يحسن اللغة الاغريقية إلا قليلاً ، ولهذا لم
يستطع القيام بمهمته على وجه صحيح . واني اشك في استفادتنا من
نقل هذه المخطوطة .

الفصل الرابع والعشرون

وصف لبنان المسمى الجبل الدرزي . تقسيمه الى مقاطعات .
ارتقاء بيت شهاب كرسي الحكم . الميثاق .

من مقدمة كتابي هذا يعرف القارئ طريقة السياحة في سوريا .
فليتصور اذن مؤلف هذه المشاهدات حاملاً عدة السفر وعتاده ،
متسلقاً الجبال ، هابطاً الاودية ، باحثاً عن كل مكان خرب ذي اهمية
اثرية ... قمت بعدة رحلات في لبنان ، وفي جهات جد مختلفة . ولو
شئت ان اصف جميع ما رأيت وشاهدت ، لأهلكت نفسي بتكليفها
ما لا تستطيع . فها انا اذا اعفيتها ولا احملها فوق طاقتها من قص
حوادث ذهابي وايايي ، واكلي ونومي ، وما اعترضني من شؤون
وشجون ، اذ يستحيل الطواف في هذه البلاد دون مقاساة آلام
الايثار التي تواجهنا كل يوم تقريباً . فلا يستغرب اذن تهافت
عدد كبير من الزائرين على كل قادم من سفر ليهنئوه بالعودة منه
سالماً معافى .

تعرضت لأخطار لا تحصى عندما اقتدت بين اللجج وسرت
في معابر المعزى لابلغ خرائب زعموا لي انها موجودة ، او ادرك
آثاراً اصبحت عافية ، وكم من مرة عدت اتعثر باذيال نخبية مرّة .
ألزمت نفسي معرفة ما في الجبل اللبناني من آثار هامة ، وكنت
مضطراً ، قبل ان اغادر المكان الذي اكون فيه ، ان اطرح عدة

اسئلة على نفسي ، وعلى السكان لأتيقن من اني لم اخلف شيئاً
ورائي فيه بعض الفائدة . انه يمكنني ان اطنب في مديح نفسي
لاني لم ادخر خطوة في سبيل السعي ركضاً وراء الآثار . واذا
كنت قد وفقت الى بعض الاكتشافات فيحق لي القول اني قد
دفعت ثمنها كثيراً من التعب والمشقة .

اني ارجع الى ما قاله من تقدموني عن طبيعة هذه الجبال
الحشنة الغليظة ، القلقة المجاز ، الصعبة المرتقى ، ذات الطرقات
الرديئة ، هذا اذا كان يمكننا ان نطلق اسم الطرقات على المعابر
والمضايق القليلة او الكثيرة الاتساع ، والتي كثيراً ما تكون
معوجة صخرية ، غير ممهدة ، يمشي عليها الناس بقوة العادة والاستمرار
بل الاضطرار لان لا طرق غيرها . شغل وصف هذه الطرقات
ومتاعبها من تقدموني فكتبوا كثيراً من الملاحظات . اما انا
فسوف ادعها ولا اهتم الا بوصف سماء هذا الجبل الاخلاقية .
عرفت هذا الجبل في مختلف وجوهه ونواحيه اثناء اقامتي فيه خمس
عشرة سنة .

ولكي احسن درسه على اتم وجه ، كما وعدت في مطلع هذه
المشاهدات ، اراني مضطراً لحصر موضوع كتابي في نطاق محدود .
سوف لا اتناول بالوصف الا الناحية الواقعة بين نهر المعاملتين من
جهة الشمال ، ونهر الدامور لجهة الجنوب . اما في الجهة الشرقية
فسأقف عند احدود الطبيعية ، اي بكليك ولاية دمشق وولاية
صيدا ، تلك التخوم التي تخترق سهل البقاع طولاً . ان نهر الليطاني
الذي يسمونه ايضاً نهر القاسمية هو الذي يرسم تلك الحدود .
يقسم هذا الجزء من البلاد الى ثماني مقاطعات تمتد سلطة

الامير على ٢٤ اقطاعة منها . فحدود امارته تبتدىء من جبّة بشري فوق طرابلس وتنتهي في جزين قرب صيدا بطول ١٤ ميّياتر (الميرياتر عشرة كيلومترات) وعرض ستة في المكان الاكثر اتساعاً . اننا لا ندري كم كان عدد سكان لبنان قبل عهدنا الحاضر ، فلا شك في ان ذلك العدد كان ضئيلاً . ولسنا نعرف شيئاً صحيحاً عن هذا لان التاريخ العربي ينبئنا فقط ان اثنتي عشرة عائلة نزحت من معرّة النعمان عندما كانت حكومة دمشق خاضعة لامبراطرة الروم ، اي قبل ظهور الاسلام ، واستقرت في الجبل وشيّدت فيه القرى . اما زعيم هؤلاء النازحين فهو الامير تنوخ ابن ملك النعمان ، ملك الحيرة .

واول مكان استقر به كان يدعى تيروخ Tirouch في مقاطعة المتن . ثم انتقل الى الجهة الغربية ، فاضطره ازدياد عدد عائلته لبناء قرية عبيه التي عرفت آنذاك باسم دار تنوخ . وقد فصل المؤرخون تاريخ هذه الاسرة العريقة تفصيلاً مسهباً حتى اعتناقها الاسلام .

حكمت هذه الاسرة الجهة الغربية والجرد الاعلى من نهر الكلب حتى الدامور ، من انبساط الموج الى مرمى الحاج . اما آل بيت معن فهم اكراد الاصل ومن سلالة صلاح الدين الايوبي . قدم جداهم الاعلى الى لبنان واستقر في مقاطعة الشوف . وظل هذا البيت ينعم بالسلطة حتى ارتقاء فخر الدين كرسى الحكم . ان عدد سكان الجبل هو حوالى ٣٠٠،٠٠٠ نفس ، ثلثا سكانه مسيحيون ، والبقية من الدروز والمسلمين والمتاوله . زعموا ، ولا ادري على اي حساب استندوا ، ان لبنان يمكنه

إعداد ١٠٠،٠٠٠ مقاتل ، اذا ما جُنِّدَ اهلوه ابتداء من عمر ١٥ الى عمر ٧٠ . اما المعقول فهو ان نزل عدد محاربيه الى ستين الفاً . وبناءً على هذا التقدير يكون عددهم هكذا : ٣٥،٠٠٠ ماروني ، ١٥،٠٠٠ درزي ومسلم ومتوالي ، ٦،٠٠٠ روم ، و ٣٥٠٠٠ كاثوليكي .

ظهر ، بناء على احصاء قاموا به عام ١٨٤٣ ، ان الرجال الذين يمكنهم ان يحملوا السلاح في ست عشرة مقاطعة ، ابتداء من الشوف حتى جبيل ، كانوا ٤٥،٠٥٠ ، منهم ٣٤،٠٠٠ مسيحي ، و ١٠،٠٥٠ درزياً .

اما الاحصاء الذي وقع في يدي فلا يزيد فيه عدد سكان لبنان عن ١٩٣،٨٣٥ شخصاً موزعة على مقاطعات لبنان الاربع والعشرين كما يلي : ٢٩٠ يهودياً ، ٥٣٩٥ متواليّاً ، ٨٧٧٥ مسلماً ، و ٢٦٤٤٥ درزياً ، ١٥٣،٠٥٠ مسيحياً .

انه يستحيل ، وتلك هي الحالة في جميع انحاء تركيا ، ان نحصل على معلومات صادقة تمكّتنا من معرفة عدد السكان معرفة صحيحة . وليس ما يذكر في هذا الباب إلا تخمين مبني على تحريات وحسابات قائمة على افتراضات غامضة . اما احصائي الذي قدمته عن سوريا فهو نتيجة عدّة معلومات مستقاة من مصادر صحيحة تحصّت طويلاً .

اخذ عدد السكان يزداد زيادة مطردة في الجبل على اثر تطبيق عملية التلقيح . فالطاعون الذي كانت تظهر دلائله في الاماكن البعيدة كان يوقف كل مرة بسرعة فائقة ، لان الامير كان يطبق في بلاده الانظمة الصحية بكل دقة ، وذلك قبل ان يفكر نائب

ملك مصر والسلطان في انشاء المهاجر الصحية .
عرفت هذه البلاد باسم الجبل الدرزي لان مشايخ آل تلحوق
الدروز حكموها قبل عائلي معن وشهاب في مقابل جزية ضئيلة
كانوا يدفعونها للباشاوات . فالمسيحيون ، على الرغم من انهم ابناء
هذه البلاد ، لم يجرؤوا على الظهور ، وكانوا يفضلون الخضوع
لهؤلاء النزلاء الذين أتوا من مصر ، وتمكنوا بوصفهم مسلمين ، ولو
ظاهراً ، ان يطمحوا الى الحكم .

تمتد المنطقة الدرزية من نهر الكلب حتى جزين حيث تنتهي
الحدود الجنوبية لحكومة الامير بشير . لسنا نجد دروزاً قرب
نهر الكلب ، ولكنني جعلت هذا النهر تحملاً للمنطقة الدرزية لانه
يقع ضمن نطاق المتن ، ولئلا يُظن ان هذه المنطقة تمتد الى ابعد
من هنالك . فمن اعالي هذا الجبل الذي يشرف على طرابلس
بمتداً حتى ولاية عكار ، لا نجد درزياً واحداً . فجل سكان هذه
الناحية هم تقريباً من الموارنة والروم . والاكثرية الساحقة من
الروم في لبنان تقيم في مقاطعات الكوره والبترون .

ان هذه الطوائف كانت في منازعات دائمة مع المتاولة ، حكام
هذه المقاطعة القدماء ومالكها . وما استطاع الموارنة ان يجلوهم
عن كسروان الا بعد ما شجعهم الامير يوسف ومشايخ بشري
وعائلتا حيش والحازن الذين كانوا يقطنون آنذاك ضواحي بيروت .
عند ذلك اندحر المتاولة وانكفأوا متراجعين عن هذه الناحية بعد
ان تناقص عددهم الى الالف عائلة ، فاقاموا جميعاً في اعالي قرى
جرود جبيل والبترون .

كان امير الجبل في ذلك الزمان يتلقى من باشا طرابلس امر

توليته على البلاد التي تبسدى في الزاوية ، وتمتد الى مقاطعة جبيل
لتنتهي عند نهر المعاملتين . وكان باشا صيدا هو الذي يولي من
يشاء على بقية انحاء الجبل التي تمتد حتى جزين .

حدث في وقت من الاوقات ان كان على رأس كل من
المقاطعتين امير . ولما ارتقى الامير بشير الى كرسي الحكم انتقى
الناحية التي كانت عاصمتها دير القمر ، ومنح اخاه الامير حسناً
المقاطعة التي كانت عاصمتها جبيل . فاتخذ الامير حسن بلدة غزير ،
مسقط رأسه ، عاصمة لحكومته بحجة انها بلد طيب . اما الواقع
فهو ان وجوده في جبيل ، مركز هذه المقاطعة ، كان يجعله
اكثر تعرضاً لوطأة السلطة التركية . فلا عجب اذن ان فعل
ذلك امير كان يرتقى كرسي الحكم بحذر واحتراس بالغى الحد
لان آلاف المخاطر تهدده .

كانت مقاطعة كسروان اوفر جميع اقطاعات الجبل ثروة
واكثرها عدد سكان .

وهاكم بياناً عن تنظيم حكومة لبنان قبل الحوادث الاخيرة .

المقاطعات	الحكام
جبة بشري	الشيخ جرجس بونار (?)
الزاوية	بيت الزاهر
الكوره	ابن الامير الكبير
البترون	البكر
جبيل	الامير امين
	الامير الكبير

ان هذه المقاطعات الخمس
المسماة بلاد جبيل تخضع لباشا
طرابلس . واخيراً ولتي عليها
الامير بشير من قبل عبدالله
باشا وشريف باشا ، كما ولي
في الوقت نفسه على الناحية
المنوط امرها بعكا .

كسروان الامير عبدالله شهاب
ان مشايخ هذه المقاطعة
هم من آل حبيش الذين يمثلون
مع مشايخ آل الحازن اكبر
اقطاعي الجبل والقوى المسلحة
فيه .

المتن امراء بللمع ومراد
العرقوب الامير قاسم وبيت
عماد الدرزي

احفاد قايد بيه .
ان اهالي هذه المقاطعة هم
من اتباع الشيخ الدرزي .

الجرود الشيخ عبد الملك
الغرب الفوقاني الشيخ تلحوق

ان الاهالي هم اتباع هذين
الشيخين .

الغرب التحتاني اسرة شهاب وبيت
ارسلان الدرزي
الشوف الامير خليل وبيت
جنبلط الدرزي

ان هذه المقاطعة تقسم الى
عدة نواح واهاليها اتباع
مشايخ الدرزي .

اقليم البلان
اقليم الحروب
اقليم التفاح
جبل الريجان
اقليم الشحار

ان هذه المقاطعات كانت
تخص المناولة، الا ان الامراء
استولوا عليها بتشجيع من
الجزار الذي ضايقه موقف
المناولة التهديدي لهذه الناحية

من البلاد التي كانوا يعيشون
بها فساداً كلما نشب خلاف
بينه وبين الطائفة .

وهناك بعض المقاطعات المقسومة قسمين ، كما هي الحالة في
مقاطعتي البترون ، وجبيل التي سميت جرود جبالها بلاد المتأولة
والفتوح . ولما كان نهر الكلب يخرق بلاد كسروان اطلقوا على
الجهة الجنوبية منها اسم القاطع . اما الناحية التابعة للجبل من
البقاع فتدعى الهرمل .

والشوف قسمان يؤلف احدهما دير القمر وحدها ، كما تؤلف
ضواحي بيروت مقاطعة صغيرة تدعى الساحل ، وامر هذه المقاطعة
منوط بالامير الكبير .

اما سهل البقاع ، الذي يؤلف اليوم جزءاً من حكومة الجبل ،
فهو جزء من الاملاك السلطانية (البكليك او الجفنتك) . كان
يستأجر هذه الارض الشديدة الخصب باشوات دمشق واغواتها ،
ويستثمرونها لحسابهم الخاص . ولما كان تموين اهالي لبنان لا يستطيع
بدونها ، فقد اخذ امراء الجبل الطامحون في الحاقها بامارتهم يثيرون
فيها الخلافات والفتن ، منذ اربعين سنة ، بين مزارعي القرى المجاورة
لها ، وشركاء اقطاعي دمشق . وكثيراً ما كان هؤلاء الامراء
ينجدون اهالي القرى ويساعدونهم مساعدة فعالة . اما عاقبة هذه
الاعتداءات فكانت دائماً حرق الاغلال . وهكذا كانت تبقى الارض
التي احترقت غلالها بوراً مدة سنتين او ثلاث سنوات دون ان
ترزع . ان هذه الاعتداءات المتوالية لم تكن تمنع الاتراك من ان

وَجروها ثانية ، ثم يُطرد مستأجروها بعد ان يمنوا بالقليل او الكثير من الحسائر حتى اذا ما سئموا اخيراً هذه الغزوات والهجمات المتتابعة ولم يظفروا بطائل رجعوا عن استئجارها . لم يعد في استطاعة قوى الباشاوات ان تثبت في وجه قوات امير الجبل ، هذه القوى التي كانوا يشعرون بثقل وطأتها في جميع انحاء سوريا . ولهذا الاسباب استطاع الامراء الدروز وعدة مشايخ آخرين ان يضمنوا البقاع ويستأجروه لقاءً بدل ضئيل . ثم اخذ هذا البدل يزداد عاماً بعد عام حتى بلغت قيمته مثني كيس . وهذه الملكية التي طالما اشتهاها امير الجبل كان يحافظ على دوامها له بدهاء ومكر : كان يدلع النيران في البقاع بواسطة التريكان والمتاوله ، ثم يظهر انه يتعقبهم الى ما وراء بعلبك . ولكن هذه الطريقة المؤسفة التي زادت الحوادث الدامية هولاً لم تعد تخيف الشركاء القدماء الذين كانوا يشعرون بانهم جدّ سعداء اذا ما ظفروا بدخل معين ، فهو ، منها يكن ضئيلاً ، خير من

١ وما كاد الباشا يغيب حتى ظهر شر آخر هو نتيجة الاضطهاد والظلم . هبت القرى المجتاحة وهاجم بعضها البعض الاخر تطالب بثأر وراثي ، وهكذا قطعت جميع المواصلات .

تلاشت اعمال الزراعة ، فكان الفلاح ينسل تحت جنح الظلام ليتلف الكرمه ويقطع زيتون خصمه . ولما عاد الباشا في السنة التالية فرض الجزية والضرائب نفسها في بلاد قل عدد سكانها . وقد اضطر لمضاعفة ضفطه وافناء شعوب كاملة . ان الاماكن اصبحت خاوية شيئاً فشيئاً ، فلم يكن يرى في القرى سوى بقايا بيوت مهدمة ، وفي مدخلها قبور تزداد يوماً بعد يوم . ففي كل سنة كانت تشهد انقراض كوخ وعائلة . ثم كان ان بقيت المقبرة وحدها تشير الى المكان الذي كانت تقوم فيه القرية . (شاتوبريان ، قصة رحلة ، الجزء الثالث ، ص ٤٦)

انتظار ريع اكبر محفوف بالكثير من المخاطر .
وما ادرك ابراهيم باشا سر هذا النظام العقاري المخصص ريعه
لنفقات زعماء القصور (التيمار)^٢ حتى استولى على تلك الاراضي
واستثمرها . فلو كان غرس الاشجار في ذلك السهل لكانت
تستطيع وحدها ان تجعل من هذا الوادي ، العاري اليوم تماماً ،
جنة فسيحة تعطي اضعاف اضعاف منتوجاتها . ولكن ... انها
لامبالاة السوريين المفرطة ، فهم يدرجون على ما درج عليه
اباؤهم من قبل ، ولا يعملون الا مثلما عملوا . واذا ظلت هذه
القاعدة مقود هذا الشعب الميكانيكي فلا يمكننا ان نترجى لسوريا
الا حياة تعسة ومحدودة جداً . وارانى مجبراً على القول ان الثقة
مفقودة تماماً ، وهذا هو اهم اسباب تعاسة الولايات الخاضعة
للحكم العثماني وضعفها . فقدان الثقة بالمصير جمدرؤوس المال وشل
حركة الاخذ والعطاء .

« ان ترزح الثقة وارتباب كل شخص في مستقبل مصيره كان
يحمل جميع الناس على اختلاف طبقاتهم ، من الباشا الى الفلاح ،
على اخفاء قسم من الغلال ومواراتها عن انظار السلطة الجشعة . »^٣
بعد انقراض آل معن دعي آل شهاب (وكانوا آنذاك في
حوران) الى تولي الحكم في الجبل ، وفقاً لرغبة الاهلين ، وطبقاً

٢ ان الزيم والتيمار يؤلفون قوة ترقى الى ما قبل السلطنة نفسها . ان
السلطين منحوم ، منذ الغزوات الاولى ، حق ولاية قسم كبير من القرى والاراضي
لكي يتمكنوا باستيفائهم المشر وضرائب اخرى من حمل السلاح وحماية ولاياتهم اذا ما
هوجت . (ديجون ، اراء تاريخية في السلطنة العثمانية ، ص ٧٣) .

٣ ساي ، بحث في علم الاقتصاد العام ، الجزء الاول ، ص ١١٥ .

لعهد وميثاق ، مدفوعين بما يقوم بين آل معن أسياد الجبل وبين آل شهاب من اواصر قريبي .

ان الاسرة الشهابية حصلت على عدة امتيازات يوم تولت الحكم ، فأيدتها هذه الامتيازات ودعمت سلطتها التي تداولها احفادها . تعهدت هذه الاسرة المالكة ، لقاء ما منحتها الشعب من امتيازات ، ألا تريد ابداً ضربية الاملاك والضرائب الاخرى الا بالمقدار المعين ، كما انها تعهدت بعدم تملك اراضي لا تستدعي حاجتها الضرورية الخاصة ملكيتها .

ولهذه الغاية خص لآل شهاب دخل سبع قرى في ضواحي دير القمر ، عاصمة الجبل ، حيث يقيم الامير الكبير الذي صار مقره بعد حين ملكاً خاصاً به .

ان عائلة شهاب التي لا تملك ، لانها غريبة الدار ، املاكاً واقطاعات ، لم يكن في استطاعها تملك اقطاعات جديدة او الانفاق من مالها على تجهيز قوة مسلحة غير محدودة تصلح للخدمة العامة والخاصة بكل امير . وهي لا تستطيع تجنيد الاهلين لان هذا التجنيد لا يمكن فرضه الا اذا رضي به او امر ، مباشرة ، امراء الولايات ومشايخها ، والاقطاعيون ومدبرو اقطاعاتهم الخاصة . ان هؤلاء الزعماء (المناصب) كانوا يجبون بانفسهم مال الاعناق في اقطاعاتهم ، ويوزعون الضرائب ويقبضونها ليحوزوا على صفو خاطر الامير الكبير بما يقدمونه له منها . وكان هو يعيد اليهم قسماً من هذه الضرائب اذا كان راضياً . اما اذا كان غاضباً فلا يمنحهم اقل مهلة ، بل يرهقهم بجميع الاساليب حتى يدفعوا اموال المفروض عليهم كاملاً .

لم تكن هذه الطريقة هي الوحيدة التي ابتدعها الامير ليوطد نفوذه ، بل نسي رويداً رويداً جميع ما يفرضه عليه الميثاق الصريح الذي سبقت الاشارة اليه ، والذي لم اعلم بوجوده إلا من ألسنة الناس .

خرقت بنود هذا الميثاق الاساسية ، والضرائب والمكوس لم تحافظ على اساسها القديم ، وهو الفسا كيس ، إلا ظاهراً ، ثم ضعفت ، وحصل فيما بعد اضعاف اضعاف اضعافها . ثم ظل هذا الازدياد في اطراد تبعاً للظروف . وكانت هنالك ضرائب تجبى ست عشرة مرة تحت ستار اسماء مختلفة : بزرية ، وطرح ، وشاشية الخ .

وهكذا أنى الامير املاكه الثابتة ومداخيله : انى عقاره اذ اقام نفسه وارثاً للعائلات المنقرضة ، وانى المداخيل بطريقة التخليات الطوعية والاكسابات الشرعية ، واخيراً بما كان يفتصبه بلباقة من جيرانه الذين اثقلت كواهلهم الديون ، او اذلتهم اسرة شهاب بسطانها . فأملأك الشهابيين وفلاحوهم معفون من الضرائب فلا يؤدّون منها شيئاً . وهكذا اصبحت هذه الاسرة الحاكمة اكثر بيوت الجبل ثروةً وغنى ، وأشدّها قوةً وبأساً .

سوف احاول ، فيما بعد ، ان اصف بمقدار تصرفات الامير بشير بالقائي نظرة عابرة على حياته ، ابتداء من ارتقائه كرسي الحكم حتى سقوطه . واني ارى ان عودة هذا الامير ، او عودة احد افراد أسرته ، حاجة ماسة لا يستغنى عنها لاعادة النظام وتوطيد دعامته في الجبل ، فالامراء الآخرون ، الذين اعترف لهم بمقدرة تسلّم زمام الحكم ، اثبتوا بتصرفاتهم الكلمة المأثورة عندنا :

« انّ ما يسطع في الصف الثاني هو الذي ينكسف اولاً . »
ولكي اتحاشى كل حكم متهور والاثام بالمحاباة ، ها انا ذا
اصرح ، في اول هذه اللوحة المقتضبة ، اني لم اكن قط شخصياً
ممن يطريهم الامير بشير ويتودد اليهم ، واني رغم العلاقات العديدة
التي تربطني به وبعائلته كنت ابعد الناس عن الحصول على انعاماته .
كان ينكر عليّ دائماً حقوق مواطني ، حتى اني لم اتمكن
من الوصول الى حق ، في الجبل ، الا بجهود لا تعرف الكلال ،
وبالمثابرة او الالتجاء الى توسط السلطات التي كان يخضع لها الامير .
عرفت دائماً في هذا الامير شعوراً مسيطراً يمتلك جميع عواطفه
وعقله ألا وهو حب المحافظة على سلطانه . وقد حمل هذا الشعور على
التضحية بكل شيء . ولهذا الغاية ظن انه بخلقه العراقيل واقامة
المصاعب في وجهي يرضي باشوات عكا ومصر .
انهم كانوا يعزون هذه العراقيل الى نصائح وزيره المخطئة ، ذلك
الرجل الذي ثبت انه كان يجاهر ببغض شديد للاوروبيين . ومع
اني لا اريد ان اتهم هذا الرجل ، او اعزو اليه شيئاً ، فقد كفاه
عقاباً ما آلت اليه حاله بسبب سياسته الحمقاء ، فلا يسعني الا
الاعتقاد بان عودة المعلم بطرس كرامة الى لبنان تكون في غير
اوانها ، الا اذا كان شقاء سيده ، الذي هو شقاؤه ايضاً ، قد علمه
درساً مفيداً .

الفصل الخامس والعشرون

تاريخ لبنان الطبيعي وضواحي بيروت.

المراعي في اعالي لبنان صالحة . الا انها غير وافرة . وهذا ما جعل الحيوانات الداجنة قليلة في البلاد . وهذه القلة اضطرت الحكومة لمنح ملاكي بلاد ما بين النهرين ورعاتها حق ادخال ثلاثين او اربعين الف رأس من الغنم الى سهول بعلبك .

ان الاكراد والتركان يفعلون ذلك ايضاً ، كما ان عدداً غير قليل من سادة العجم الاغنياء كانوا يتعاطون هذه التجارة . والرعاة على اختلاف انواعهم يجلبون قطعان الغنم العديدة يتجرون بها مع اهالي لبنان واهالي مدن الساحل . وهم يدفعون لقاء حرية هذه التجارة ضريبةً ضئيلةً تجعلهم في حماية امراء ضواحي البقاع ، فينعمون حينذاك بأمان تام ، وتكون ديونهم غير هالكة اذا ما باعوا مواشيهم بثمان مؤجل تسهيلاً لتجارهم .

واغنامهم هذه ذات الليات ضخمة قد يبلغ وزن الواحدة منها خمسة عشر كيلوغراماً . يعلقها الاهالي علفاً غنيماً ، واذا ما ملئت الاكل اقبلوا عليها يحشونها حشواً باوراق التوت والنخالة ، ويفسلونها يومياً بالمياه النقية فتبلغ أقصى حدود السمن . فكل عائلة لبنانية تعلق واحداً من هذه الكباش لتدخر لحمه مؤونةً للشتاء ، فيقلى ويحفظ في شحمه المدوّب . ومتى اقبل الشتاء تهبط

القطعان التي تصيف في الجرود الى الساحل حيث يكون قد أعدت كل ملائكة محلاً ملائماً لبياتها عنده طمعاً في سمادها الذي لا بد منه للزراعة على اختلاف انواعها ، وخصوصاً زراعة اشجار التوت . ان هذه الحيوانات اللبونة هي التي تمد البلاد بالحليب والزبدة والجن واللبنة .

وفي الجبل جمال يبتاعها أهلوها من عرب الصحراء . اما البقر والمعزى فمن انتاج البلاد نفسها . ومن جزيرة قبرص تستقدم الحمير والبغال والحيول العادية . والبقر الممتازة ترد الى الجبل من ضواحي دمشق .

لا ينتج لبنان وملاحقاته من الحبوب (القمح ، الشعير ، الذرة ، العدس ، الكرستة) إلا ثلث الكمية التي يستهلكها الاهالي ، واذا اصابته البلاد خصباً كبيراً فقد تستريح من اللجوء الى الخارج ، في طلب المواد الغذائية ، مدة اربعة اشهر او خمسة فقط .

ينتج كل مكيال من البذار من ال ١٢ الى ال ١٤ مكيالاً . وفي السهول والارض الجبلية الجيدة يغلّ المكيال عشرين مكيالاً . اما سهل البقاع فالمد الذي يبدر في تربته فتراوح غلته بين خمسة وعشرين وثلاثين مدّاً .

ان تربة لبنان صالحة جداً لزراعة البطاطس ، ومع ذلك فقلما يعرفها أهلوها . واذا زرعت في بعض الضواحي فلنكي ترابع من الافرنسيين . ان الشعب هنا ، كما هي الحالة في جميع أنحاء تركيا ، غير ميال الى التجديد ، ومن شريعتهم : القديم على قدمه . ولهذا يفضلون على البطاطس ذات الغذاء الصحي النافع ، خرّوب قبرص

وفول مصر الذي قد يصنعون منه خبزاً كريهاً .
تنتج القرى الساحلية ، وعلى الاخص القرى الواقعة بين
بيروت وصيدا ، كثيراً من الزيت . اما الحاصلات الاخرى التي
تكثر في الجبل وضواحي بيروت ، فهي العنب والزيتون والصنوبر
واللوز والجوز . قد تنتج البلاد ما يكفيها من جوز ولوز . اما
العنب واللوز والصنوبر فيصدر بعضها الى الخارج .

الاشجار المثمرة نادرة جداً في قرى الساحل بسبب الحرارة
القوية والجفاف . وهي قليلة ايضاً في الجرد العالية بسبب البرد
القارس اثناء الشتاء ، ناهيك بان الشرقيين لا يقدرون الثمار حتى
قدرها . ولما كانوا لا يصبرون عليها حتى تنضج ، فانهم لا يجذون
فيها الا طعاماً مزاً يشبه تماماً طعم الاصناف البرية من هذه
الانواع . اننا لا نجد في الجبل ثمراتاً لذيد الطعم حقاً الا العنب
والشمش اللوزي ذي النواة الحلوة^١ . وقد تمتع تين بيروت بشهرة
حق له معها ان يشبه تين مرسيليا .

ان عدم استطابة الشرقيين الثمار هو ، بلا ريب ، السبب
الاول في ندرة الجيد منها . اما السبب الثاني فقلة اكلاتهم
بها . فهم لا يهتمون باتلاف الحشرات التي تفسد عليهم اعمالهم

١ دهش احد سكان الجرد العليا الذي لا يعرف الا الشيء القليل عن هذه
الثمار ، اذ رأى ثمار المشمش الجميلة معروضة في اسواق بيروت . ولما علم ان الرطل لا
يباع باكثر من قرش - خمسة وسبعين سنتيماً - ابتاع لنفسه رطلاً منها بهذا الثمن . وما
كاد البائع ينتهي من الوزن حتى اخذ هذا الفلاح المغفل يلقي الواحدة تلو الاخرى في
حلقه . ولما كان البائع يشك في ان الجلي يعرف ان النواة حلوة ، رأى من المناسب ان
ينبهه الى ذلك . الا انه فهم حينذاك ان الرجل لا يدري اذا كانت الثمرة تحوي نواة .

الزراعية ، ولو فعلوا لاضافوا الى محاصيلهم منتوجاً جديداً
يستفيدون منه في تغيير الوان معيشتهم ، او يبيعونه فيتضاعف
ربح عقارهم ، ولكنها اللامبالاة التي يتصفون بها في جميع شؤونهم .
ومن حيوانات هذه البلاد الخفافيش ذات الحجم الكبير ،
المنتشرة انتشاراً ذريعاً في ضواحي بيروت . انها تهاجم المدينة كل
ليلة ، وتغشى المزارع والحقول لتعيث فيها فساداً حتى الصباح ،
محدثه اجسام الاضرار . ويا لتعاسة التاجر الذي لم يؤشب نوافذ
دكانه بشريط حديدي !

تطوف الخفافيش هنا وهناك ، وتدخل حيث تجد شيئاً لذيذ
الطعم . انها تأخذ كل ما يمكنها حمله لتأكله ، تحت اروقة المدينة
الكثيرة ، او في جنائنها ، او في أوكارها اذا كانت ذات صفار .
اما البساتين فانها تختطف منها جميع الثمار التي تستطيب طعمها .
واثباتاً لما قلت عن وفرة هذه الحيوانات اسرد هذه الحادثة
التي وقعت في بيروت ، وقد رواها لي عدة اشخاص مؤكدين
وقوعها .

اشترى تاجر كمية كبيرة من الزبيب وتركها مكومة في
مخزنه ، وذهب الى دمشق لاستيراد المشمش المجفف الذي تصدره
هذه المدينة بكثرة . وطالت مدة اقامته اكثر مما تقتضي صفقته
التجارية ، فدهش أشد دهشة عندما دخل حانوته بعد عودته
ووجده خالياً خاوياً . فتبادر الى ذهنه ، طبعاً ، ان احداً قد

٢ شبه غرفة مفتوحة احدى نواحيها بشكل رواق : ان العرب يعملونها ديوانهم
انساء شطر كبير من السنة .

سرق الزبيب . فرفع شكواه الى الوالي ، فأمر بالبحث والتدقيق
والكشف الحسي ، فلم يسفر ذلك عن نتيجة . لم يهتدوا الى اي
كسر ، فالقفل لا يزال كما كان ، وشبايبك الخزن لا تزال قضبانها
الحديدية مشتبكة لم تمس . فلم يبق اذن سوى القيام بتجريات في
المدينة . وهذا ما وعد الحاكم بان يتم به كل الاهتمام .
يصعب جداً ان تطمس آثار جريمة كهذه في مدينة صغيرة
كبيروت . ومع ذلك لم يعثر على اثر ما لهذه الصفة الكبرى من
الزبيب .

وبعد مرور شهر واكثر على الحادث الذي لم يظفر التحقيق
بجلاء غامضه ، ولو بعض الشيء ، دخل بعضهم عرضاً احدى المغاور
العميقة الواقعة في طرف المدينة الغربي ، فرأى فيها يزور العنب
كروماً كروماً . ولما توغل في المغارة وجد اكداساً اكثر ضخامة .
فأذاع خبر ما رأى وشهد في مغاور الروشة .

ذكرت هذه الحادثة الناس بالاضرار الجزئية التي كانت تحدثها
هذه الطيور الليلية^٣ . فلم يشكوا بعد ذلك في انها غرماء
التاجر اليوناني صاحب الدعوى . فدعي الى السراي حيث أنبىء
بالاهتداء الى سارقيه . وشاء الوالي ان يتأكد ذلك بنفسه ، فامتطى
جراده واستصحب التاجر ليرى بعينه أشلاء بضاعته .
وسار التاجر وهو لا يدري الى اين ، مع الحاكم ، واستغرب
هذه النزهة . ولما انتهى الى شط البحر ، ذهب بعض دهشته عندما
وقف أمام مغارة عميقة ، فظن ان السارقين يخبئون فيها ، وان

٣ هو الاسم الذي يطلق عليها بالتركية .

الوالي قد استصحبه ليريه غرماءه . ولم كانت دهشته عظيمة عندما
أروه اكداً كبيراً من البزور وقالوا له : هذه هي الآثار
الدالة على السرقة ، وهنا يسكن مرتكبوها .
فصاح اليوناني مستغرباً : ولكن اين هم ؟
فأجابوه : في كل مكان من هذه المغاور العميقة . انهم محتفون
في ثناياها وأخايدها .

ولما كشفوا له عن سر الحادث ، خاف التاجر وظن المغارة
مرصودة ... وظل مدة طويلة لا يصدق ما حدث . ولكنه صدق
بعد حين ان الخفافيش هي التي سرقت بضاعته ، بعد ان رأى
بعينه آثارها . رأى منها كمية كبيرة لا تزال باقية ، ففهم للحال
ان الحادثة ليست صعبة التصديق ، ولا سيما اذا عرفنا ان الجرذان
المنتشرة في مدينة بيروت انتشاراً هائلاً لا تتأخر عن نجدة
زميلاتها ذوات الاجنحة في مثل هذه الغزوة ، فهما حلقان في
مخاربة تجار الثغر .

ان الثمرة الاكثر شيوعاً في بيروت هي ثمرة تين برباريا التي
تسمى في افريقيا التين المسيحي . فهذا المحصول هو أحد عناصر
الغذاء الهام عند جميع السكان بوجه عام ، وعلى الاخص عند
الفقراء الذين يجعلونه غذاءهم الوحيد ويعيشون عليه طوال
الصيف كله .

ان كمية الصبار الكثيرة التي تنمو في هذه البلاد لم تحمل
السوريين على التفكير في تعميم دودة القرمز عندهم ، فهم يكتفون
من هذه النباتات بفائدة ثمارها ، فما لهم ولاوراقها . وحسبهم منها
فائدة اخرى ، وهي ان يحيطوا بها بساتينهم فتكون لها خير سياج

نظراً لاشواكها الحادة التي تتسلح بها .
كثيراً ما نجد في الجبل مناجم فحم حجري مطمورة في
الارض . وقد كانت تصلح للمصانع الكبيرة لولا زيادة الحامض
الكبريتي فيها . قال لي ابراهيم باشا ان استخراج هذا الفحم في
المدة الاخيرة كان يكلفه من الثمن ما يعادل تكاليف الفحم الذي
يأتيه من نيوكسل الى الاسكندرية . ولكنه عندما استطاع
اخيراً ان يستغني عن مهندس يدير العمل فقد عاد عليه بثمن
أدنى . ان مناجم هذا الفحم تقع في البقعة الواقعة بين ميروبا
وقالوغا * .

لم يستعمل السكان هذا الفحم وقوداً ، ولكنهم اكتشفوا فيه
ميزة طبية وهي شفاء الجراح الاكثر اتساعاً في ظرف اربع
وعشرين ساعة . انهم يحولونه الى مسحوق ناعم تكاد لا تستطيع
الاصابع ان تقبض عليه ، ثم يثرونه على الجرح الذي يلف بشاشة ،
فيندمل بسرعة عجيبة .

وهناك عدة مناجم من الحديد في لبنان فلما أستثمرت لانهم
لا يحسنون اختصار اساليبهم ، ولا يغيرونها ، فيستخدمون الحطب
في صنعه ، فتكلفتهم تلك العملية غالياً نظراً لارتفاع ثمن الحطب
عندهم . ان الحديد الموجود في لبنان من النوع اللين جداً ، وهذا
ما يجعله افضل من الحديد الاجنبي لصنع نعال الحيل وعمل المسامير ،
والاعمال الاخرى في البلاد .

* اشهر مناجم الفحم الحجري كانت في قرنايل ، ومنها كان يستخرجه ابراهيم باشا .
المغرب .

ويؤكدون ايضاً انه يوجد عندهم مناجم ذهب وفضة ونحاس .
غير انهم لم يجروا قاط على مسّها . والسيد بروكي العالم بالطبيعات
الموفد من قبل محمد علي الى سوريا عام ١٨٢٣ وجد مواد هذه
المعادن الثلاثة ، ومواد من التوتيا ايضاً .

ان الاشجار التي يلائمها مناخ لبنان وتنمو فيه هي الازدرخت
الذي ينمو بسرعة ويبقى خشبه صالحاً مدة طويلة . وهناك نوع
منه تنمو اغصانه المورقة بشكل مظلة ، فيوافق الطرق والممرات
ظله الوارف ، فتصبح كأنها أسرة .

ومن اشجار لبنان الحوز الذي اجهل بالفرنسية اسمه ، وهو
ذو صمغ طيب الرائحة ، وقد سبق لي ان قلت انهم كانوا
يستعملونه ليدوّخوا الاسماك في الانهار والغدران عند محاولاتهم
اصطيادها .

لست اعتقد ان توت هذه البلاد هو من نوع خاص لانه لا
يعلو عن الارض اكثر من ثلاثة امتار او اربعة . انه ولا شك
اكثر اشجار هذه الناحية أهمية ونفعاً . وبقطع النظر عن فائدته
الاولية في تربية دود الحرير فقضبانته التي تقطع في الربيع ، بقدر
ما تدعو الحاجة الى ورقه لعلف دود القز ، تستخدم للوقود ، كما
ان قشور هذه القضبان تقوم في علم الاقتصاد عند الفلاحين مقام
قشور الخيزران في الاشياء التي تحتاج الى ربط . ان اوراق الدفعة
الثانية من ورق التوت ، وهي تنمو في الصيف ، تطعم للمواشي .
اما الخشب فقد سبق لي ان قلت ان النجارين يفضلونه على سواه
من الخشب في اعمالهم .

واقول اخيراً انهم ينتفعون بكل ما ينتجه التوت حتى بفضلات

الاوراق التي أستعملت في تربية دود الحرير ، كما ان براز هذه
الدودة يستعمل علفاً للبقر ، وكثيراً ما تستلذه .
ان الفوائد العديدة التي تجني من شجرة التوت تدعو الفلاح الى
التضحية بجميع الاشجار الاخرى بدون شفقة . فاذا ما نبتت قريبا
شجرة ، كما سبق لي ان قلت ، تقنع حالاً خوفاً من ان تشاطر
من هي افضل منها عصارة التربة المغذية . وكالما بدا لناظر الفلاح
اليقظ مكانه ملائم لغرس التوت ، يقتلع كل ما فيه من شجر
ليغرس مكانه التوتة قرّة عينه . وحينذاك تسمد التربة باعتناء
وتحرث مرات في السنة . ويقدر ما تولى هذه الشجرة من عناية
يزداد الفلاح يسراً ، لان غلة هذه الشجرة تزداد بازدياد العناية بها .
وعندما يرون ان الشيوخوخة قد دبّت الى شجرة التوت (وهذا
يكون في الثلاثين من عمرها اذا لم يعتن بها) يقتلعونها بلا شفقة ،
لينصبوا مكانها شجيرة من العائلة نفسها . فالعناية الحسنة والتدبير
الاكثر ملائمة لطبيعة هذه الشجرة يجعلانها اكثر خصباً ، وأوفر
غلةً ، واطول عمراً .

واذا تفقّص بزر الحرير قبل نمو ورق التوت ، وهذا ما يحدث
في فصول الشتاء غير الباردة ، فانهم يغذونه باوراق الحبازي الى
ان يورثي شجر التوت أكله .

وموسم الحرير في القرى الساحلية يسبق موسم الجرود زهاء
شهرين ، فينتهي في الساحل في أواخر ايار ، وفي الجرود في أواخر تموز .
ان النمر ، والسنور المبرقش ، والضبع ، والذئب ، وابن آوى ،

٤ روى السيد ده مونكوفي في رحلته الى سوريا (الجزء الثاني ، ص ٧٣) على

والثعلب ، والغزال ، والدب ، والعنز البري ، والخنزير البري ،
والغريز ، وكثير من الظرايين الضخمة ، هي الحيوانات التي تشاهد
في لبنان . فالغريز يرمي بنفسه من اعالي الصخرة ان لم يجد غير
هذه الطريقة للنجاة من مغتاله . ومن الصعب جداً اصطياد هذا
الحيوان اليقظ ، وقد صورتُ واحداً منه أتوني به ميتاً .
ان صنوبر لبنان ينتج خشباً يصلح لبناء المراكب البحرية ،
وهو يستعمل جسوراً لسقوف البيوت يستغنى بها عن القناطر
الحجرية . وعندما يعمر الصنوبر يصبح خشبه كثير الصمغ ويعيش
اذ ذاك مدة طويلة .
وهناك نوع من النمل في الجبل يؤلم لسعه ويحدث انتفاخاً
في البشرة .

ان الجبل يزخر بالثمور ، وعلى الاخص في الوادي الذي يجري
في اسفله نهر الكلب ، وعلى الرابية المقابلة لمدينة بيروت . ان
خمرة لبنان بيضاء صفراء بوجه عام ، ومن هنا جاءها الاسم
الذهبي ، ولكن الخمرة الحمراء معروفة اكثر من تلك ، ولا سيما
بعد ان عرفت بيروت المؤسسات الاوروبية واصبحت هذه الاسكلة
يرتادها الاجانب . ان المولع بعمل الثمور يمكنه ان يكتشف
خموراً فاخرة في لبنان شرط ان لا يؤمن بشهرة بعض القرى
والمزارع . فهذه المحاصيل تختلف اجناسها في القرية الواحدة ، حتى
انك لا تجد تجانساً بينها خلال سنوات كثيرة . ولقد اختبرت

اثر سماعه عواء كلب له ذنب ثعلب ، انهم أكدوا له « ان هذه الكلاب كانت تلد
على اثر تزواجها من بعض الطيور كلاباً سلاقية . » اني اعرف ، رغم علمي بسداجسة
بعض السائحين الحديثين ، انه ليس بينهم من هو سليم الطوية بهذا المقدار .

ذلك بعد ان ذقت في كل موسم قسماً من حخرة صليبا الفاخرة ،
وفي كل عام كنت احصل على صنف يختلف في اللون والطعم عما
تقدمه في الاعوام السابقة . فعلى المولع باصناف الحجرة ان يتذوق
عدداً كبيراً من الحوايي ، ثم ينتقي الجيدة منها .
لا تكثر الطرائد في لبنان ، وهذه القلة ناتجة عن الطريقة
المبيدة التي يتصيدون بها . ان الامير بشيراً تعود ان يقوم كل
سنة برحلة او رحلتين في الناحية بين دير القمر وصيدا ، وكل
مرة كان يصطاد ببزاته من ثمانية الى تسعمائة حجل . وقد اقتفى
أثره الامراء الآخرون باتباعهم هذه الطريقة في صيد هذه الطيور .
اما طريقة الصيد الاكثر تداولاً من غيرها في الجبال ، فهي
تعويد الحجال طلب غذائهم من محلات معينة ، ثم مفاجأتها في
تلك الاماكن ، بعد التثبت من ماثرتها على الذهاب اليها .
انهم يعدون اليها مبكرين ويكمنون لها في الدواميس
(الستارة) التي היאؤها لهذا الغرض ، ثم ينتظرون الفرصة
المواتية ليطلقوا نار بندقيتهم . وكثيراً ما يصرعون بطلق واحد
من العشرة الى الخمسة عشر حجلاً عتيقاً او فروجاً . والصيادون
الذين لا يمكنهم ان يبنوا دواميس او يقبعوا فيها لقلة جلدتهم ،
يستخدمون رقعة كرقاع الشطرنج ذات لون ابيض واسود تعرض
لتظر الحجال بنصبها على قضيب كالراية ، فيجتذبونها بها ويطلقون
النار عليها من خلال ثقب يعدونه لاجراجه فم بندقيتهم منه .
وقد اكدوا لي ان هذه الرقعة تمثل للحجال جلد النمر الهندي
الذي يجذبها رقطه .

ارسلت الى المرحوم السيد دي ميريل النباتات المهمة التي

لمتها من جبال لبنان . وقد شاء السيد دي ميريل ان يعرفني
باسمائها . ومن النباتات التي ابيدت حتى اصبحت كأنها مجهولة
توجد نبتة اسمها الريباس Ribes الذي يُظن انه نوع من الرواند .
حاولت الحصول على هذه النبتة لابعث بها الى الذين رغبوا في ادخالها
الى فرنسا فلم اوفق الى ذلك . انها موجودة في ضواحي بعلبك ، واني لم
ارها إلا في شهر ايار بزحلة حيث تجلب لتباع كأنها ثمرة . ان اصولها
القتية تكون في البدء كثيرة المحوضة ، غير انها تخلو متى نضجت .
اما نفعها فهو انهم يصنعون منها دواء يفني الديدان . ويمكن
القول ان الاعتقاد السائد في فرنسا الزاعم ان هذه النبتة تزرع
في حلب هو اعتقاد خاطيء ، لاني لم اجدها هناك وقد اكد
لي اهلوها انهم لا يعرفونها .

تزرع جبال لبنان بالنباتات العطرية . والعرعر ليس بقليل
الوجود في جهة صليبا .

وهناك شيء جدير بالملاحظة ، وهو اننا نجد في اعالي لبنان
شجرة ذات قشور ، ذكية الرائحة ، تدعى الشجرة العطرة ، وهي
شجرة اللبني التي يمكن ان يكون قد اشتق منها اسم لبنان ،
لا من تعممه بالثلج ° لان الثلوج على عهد الاسرائيليين كانت
تساقط اقل مما تساقط اليوم . فالآثار الباقية تؤكد ان قمم
صنين وجبل الكنيسة كانت مأهولة في زمن يسبق الزمن الذي ابتداء
يميل فيه فلكننا الى البرودة .

° اني على راي السيد فوربا ديربان الذي قال في خطبة القاها امام الجمعية
الاسيوية (٤ شباط ١٨٢٨) : « ان لبنان سمي هكذا لكثرة هذه الاشجار فيه . »

الهواء ، بوجه عام ، جيد في لبنان ، وعلى الاخص في الاماكن المرتفعة التي يؤمها الناس في اثناء الصيف . ان سكان كثير من القرى الساحلية او التي تقع على الشاطئ ، ينتقلون في فصل الصيف الى سفوح الجبال العالية . والمكان الوحيد ذو المناخ السيء في هذه البقعة من سوريا هو ما وراء نهر بيروت المتفرد بجميَّاته * . ان اهالي هذه المحلة يموتون بمرض الاستسقاء والكظام ، وقد اكدوا لي ان الذين يعرفون اباؤهم من اهالي تلك المنطقة قليلون جداً . اما الجد فلا يعرفه احد منهم .

الدم نقي جداً في الجبل ، وقاما تنتشر فيه الامراض السارية . والذين تظهر عليهم امراض البرص ، وهذا نادر جداً ، يذهبون الى دمشق ليتنعموا بفوائد هذه المدينة ، اما بالشرب منها ، او بالاستحمام بها . انها تخفف وطأة الالم حين بلوغه الحد الاعلى ، وتشفي منه الى الابد اذا عرلج بها المريض حالاً . ولكن يجب ان يعاود المريض استعمال الدواء ، وإلا فلا تلبث اعراض المرض ان تفسو ثانية . ولذلك نرى البرص يقيمون في المدينة ويعيشون من الصدقات .

ان مادة التلقيح ادخلت الى سوريا منذ سنوات طويلة ، والفضل في هذا يعود الى المرحوم السيد بيير لورالا . ونظراً للحظوة التي لاقاها هذا السيد عند الامير بشير والمساعدة الناتجة عن صداقته لمواطنه المرحوم المطران غندولفي ، نائب الكرسي الرسولي ، استطاع

* اظنه يقصد البوشرية التي يقول المثل اللبناني في رداة مناخها : يا طالب العافية من البوشرية . - المعرب .

الحصول على الامتياز المطلق في اجراء عملية التلقيح ، كيلا يتعرض
الاهلون لسوء نية من اتوا يتمرنون بهم وهم ليسوا من ذوي القدرة
والاختبار ، ولا يعيرون عملهم اهتماماً وعناية كافيين .

والسيد لورالا خدمه حسن الحظ فاكتشف ، في اثناء اقامته
الطويلة في الجبل ، حيث مارس الطب مهنته الاولى ، بقرةً ظهرت
عليها بثور ذات سائل كاللحاح . فقدم حينذاك تقريراً الى اكااديمية
الطب في ايطاليا ، فيما لبثت ان اعلنت اكتشافه ^٦ .

وإذا أثبت بعض المعلومات عن الطاعون فما اظنها تكون
في غير محلها ، ولا سيما انها تفيد لتقرير قضية اختلفت فيها اراء
الاطباء . قال بعضهم ان هذا الوباء ينتج عن تأثير الهواء
ويخضع للفصول او شدة الحرارة او البرد ، وذهب فريق
الى غير ذلك .

ان الطاعون يجيء في اغلب الاحيان من مصر الى سوريا ^٧ ،

٦ ان السيد لورالا اصبح بعد ذلك قنصل النمسا وتوسكانا وعدة شعوب اخرى
في بيروت لان صدقه وميله الى الاحسان جعلاه محبوباً من الناس وحلام على احترامه .
ان ابنه البكر الذي جل محله في المراكز الهامة سلك مسلك ابيه الشريف فحاز حب الناس
لمزاياه الطيبة . وقد شاركني السيد جورج لورالا وابوه في الاعمال الشاقة عند تأسيس
المحجر الصحي في سوريا والمحافظة عليه خلال الخمسة عشر شهراً التي كلفنا به فيها . واقول
ان افضل النجاح الذي احرزناه يعود أكثره الى معلوماتها وتأثيرتها على العمل .

٧ ادليت بهذه المعلومات للدكتور باريزي عام ١٨٢٩ عندما قدم سوريا على رأس
لجنة صحية ليدرس فتك الطاعون فيها . ان هذا الطبيب الشهير لم يكتف بالتجريات التي
تؤلف اعمال اللجنة ، ولكنه شاء ان يقدم للشرقين دليلاً جديداً على الصفات الشريفة
التي يتحلى بها الفرنسيون . وهكذا فان اقامته القصيرة في بيروت والجبل كانت حافلة
بالحسنة وباعمال انسانية خيرة اكثر مما تكون دقة .

وقد يأتي أحياناً من استانبول خلال سنتين أو ثلاث ، مساراً
بالمدين التي تفصل هذه المنطقة عن العاصمة .

وعندما تظهر عوارضه في مكان ما يجب التأكد من انها ستظهر
هنا في العام المقبل . ان ذلك ناتج عن الالبسة التي تحفظ بعد ان
تكون قد كمنت فيها الجراثيم المعدية . فالإتراك لا يسلّمون بان
الطاعون ينتقل عن طريق اللمس ^٨ .

لاحظت فيما مضى انهم لم يكونوا يحتاطون للامر لدى وصول
الرسائل ، لا بل جميع الاشياء التي تلتقط بسهولة هذا الداء عندما
يكون متفشياً في القسطنطينية ، لانهم لم يكونوا يخشون قط ان
يصابوا به مباشرة .

اما في المدن الكبرى فأسباب الوباء اكثر انتشاراً ، لان
مخلفات الاجانب تسلّم الى وكيل من قبل السلطة كما هي ،
فيكون مضطراً الى ان ينتظر مداعاة الورثة او الاجل المعين في
القانون .

ومع ذلك فحالات عودة الداء اكثر من سنتين متواليتين عند
توافر هذه الاسباب ، هي قليلة جداً . وقد كان بوسعنا الاستنتاج
ان خطورته تتضاءل متى طال عليه الزمن لو لم نلاحظ ان الاصابة
الثانية كانت تقريباً دائماً اشد من الاولى .
ومكروبات الطاعون ، اذا ما ظهر هذا الداء في السنة الثانية

٨ ان الطاعون ، حسب رأي المسلمين ، هو احد الوبئة التي يسمح الله بانتشارها
لإنذار الشعب بان قدرته هي دائماً على استعداد لوضع حد لفتكه وبغيه . ان العوام
يعتقدون ان مهمة الفتك بضحايا هذا الداء يقوم بها درويش غير منظور .

والثالثة ، تكون ، ولا شك ، قد حفظت في بلدة اسلامية او
درزية ، فالتدابير التي اتخذت في لبنان المسيحي كانت كافية حتى
الآن لتطهير الامكنة التي تسربت اليها العدوى .

يأتي الطاعون عادةً من الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق الى
الغرب (عدا الحالة التي يأتي بها من مصر) ، وهذا ما يجعل بيروت
لا تحشى إلا طاعون دمشق .

والذين لاحظوا ان الطاعون يصل الى الشاطئ عن طريق
بعض الاماكن خاصة قد ظنوا ان الطبيعة الجوية لها بعض التأثير
في انتشاره .

وعندما كان ينتشر الطاعون في سوريا كانت الرياح الغربية
والجنوبية تضاعف شدته ، فيزداد عدد الوفيات زيادة محسوسة .

تحف وطأة الطاعون في اوقات معينة ، وهي ذات صلة وثيقة
باتساع الامكنة او مناخها المألوف . انه ينقطع عن بيروت خلال
شهر تموز ، ومع ذلك فان اصابة واحدة قد وقعت في ١٦ آب .
اما في الاماكن المرتفعة فيستمر الطاعون حتى تشرين الثاني ، لا بل
الى ما بعد هذا الشهر ، اذا كان فصل الحريف معتدلاً . وهكذا
استقر نحو سنة كاملة في لبنان عام ١٨٢٦ بعد ان تنقل بين جميع
مناخات هذا الجبل .

وعام ١٨١٧ كان الطاعون متفشياً في الجزائر بعد ان انقطع
عن زيارتها حوالي خمس عشرة سنة ، فخرّب ودمر طوال ستة عشر
شهرًا ، على الرغم من انه لا يثبت عادة امام حرارة الشمس
القوية . اما في هذه السنة فقد شعروا ، عند اقتراب هذا الفصل ،
بنقص ملموس في الوفيات .

قالوا : لا العمر ولا الجنس ولا البنية تقي من الطاعون .
ولكن ألم يلاحظوا في احوال متعددة ان ضحايا هذا الداء هي
في شعب مسا^٩ او جنس ما اكثر منها في شعب آخر ؟ او انه
فتك ، على الاخص ، بالاشخاص الذين هم في سن واحدة ؟ انسه
ليمكننا القول بكلمة اكثر وضوحاً انه كان يبدأ دائماً بالاطفال .
ولوحظ ايضاً ان الطاعون كان يصيب بعض طبقات من الناس
دون غيرها ، وان الاجانب هم الذين كانوا يصابون بادى ذي
بدء . ومثل هذه الحالات تلاحظ في المدن الكبرى .
ففي بحر سنة واحدة (واطنها سنة ١٨١٣) مات بهذا الداء
في ازمير جميع المحتالين تقريباً .

ان الطاعون مؤذ وحليم ، فتارة يودي بحياة عيال كاملة ،
ويعدي عند اقل احتكاك ، وطوراً يقتصر على شخص واحد من
اهل البيت الذي دخله ، على الرغم من ان الاشخاص الباقين لم
يلجأوا الى اية وقاية .

ويؤكدون ان المصابين بالطاعون يخافون بعض الثار وعلى
الاخص الخيار . الا ان انفسهم تشتهي البرتقال والحامض لان
الأحمض توافقهم .

ان ابناء البلاد يضعون على بشورهم لزقات تكون إما من
العنب المجفف الاسود ، ودهن من آلية الخروف ، واما من
الجبازى والحليب ولب الخبز والزعفران ، واما من البزاق الاصفر .

٩ اننا نعلم ان شعوب تركيا تتألف من المسلمين والمسيحيين (روم ، ارمن ،
موارنة ، ويهود) .

فالدمامل تشفى وتتلاشى في بعض الاحيان بعد استعمال هذه
الادوية . اما العرق الذي ينضح بغزارة فهو علامة طيبة
تدل على نجاة المريض . واذا لم يعقب فتح الدمامل العرق فانهم
يلجأون الى بضعها فتشدد ليسيل قيحها بطريقة الفتائل والمراهم
العادية .

ان الجلبين معرضون دائماً لحبة يدعونها حبة الكبي ، وهي لا
تشفى إلا بجرقها . اما اعراضها فهي الصعوبة في البلع ، ورائحة
اللهاث الكريهة ، والبثور في الفم ، وفي بعض الاحيان البثور
في الامعاء . ان كيباً بسيطاً في مقدمة الرأس يشفي منها
تماماً .

اننا نجد عدداً ضخماً من الثمار المتحجرة في الجبل ، وعلى
الاخص من هذه الثمار التي تسميها كتب الطب القديمة لايبديس جيدو
Lapides Judee ، وبعضها يرسل الى دمشق . ويزعمون انها ترسل
من هنالك الى الصين حيث تستعمل في صناعة الاواني . اني انقل
هذا الخبر دون ان أوكد صحته . وبين طبقات الارض ، نجد
مستحاثات الاسماك . لقد ولجت هذه الاسماك الطبقات الفخارية
فيكانت لها غلافاً . ويرجع عهد ذلك ، بلا شك ، الى الطوفان
الكبير .

شاهدت عدة مرات متحجرات منها في جرود لبنان .
ان رسوم الاسماك المتحجرة موجودة في جهة جيبيل * .
ونشاهد صخوراً من الصدف عند ذهابنا من عينطورا وبكركي ،

* نجد كثيراً من هذه المستحاثات في قرية حافل . - المغرب .

في الحقول المجاورة لهذا الدير ، قرب جمعيتنا ، وبين عين عنوب
وعيينه ، وفي اماكن اخرى . لقد لمت الكثير منها في
عين الباردة .

ملحق

الهدف الرئيسي للسياسة الانكليزية في سوريا ومصر هو ان تشق لنفسها طرقاً الى الهند، وان تستأثر هناك على قدر ما تستطيع باعمالها التجارية . فطريق الهند، في البحر الاحمر، هي الطريق المنشودة . وعلى هذا المسرح الجديد تمثل العبقرية الاوروبية ادوار مصالحها المختلفة . فعلى فرنسا واوروبا جمعاء ان تضع حداً لتوسع انكلترا .

افضى السيد اوبيو - روش ، عام ١٨٤٢ ، بيان الى مجلس الوزراء يدور حول هذه القضايا . وهذا البيان حافل بالآراء البارة الطريفة . وها نحن ننقل خلاصته المنشورة في مجموعة خصصت لبحث قضايا الشرق ، لعل في نقلها تنويراً لاذهان قرائنا .

البحر الاحمر وبحر الهند

مصالح فرنسية واوروبية. طريق الهند. سيطرة . مصالح تتنافى والمصالح الانكليزية. فرنسا ، روسيا ، النمسا ، انكرا . مؤسسات عسكرية وتجارية . بواخر بين السويس وبوربون . فحم حجري ، اسباب المعيشة ، مؤن ، خط وطني او فرنسي . مواقف . مدغشقر . شاطئ الحبشة ، خط تجاري عسكري بين مرسيليا وبوربون . تجارة عامة . جزيرة بلاد العرب ، الحبشة ، شاطئ افريقيا الجنوبي الشرقي . موقف عدن . اخطار . خلاصة . (نبذة من مذكرة رفعت الى مجلس الوزراء سنة ١٨٤٢) .

مصالح فرنسية واوروبية في البحر الاحمر

وفي خليج باب المندب

حلت المشكلة مبدئياً باعادة البحر الاحمر الى ما كان عليه بحيث يصبح منفذ اعمال تجارة الهند ، والصين ، واوقيانيا ، وجنوبي شرقي افريقيا .

ان محاولة اثبات هذه القضية بحث عقيم ، فيكفي ان نلقي نظرة على خريطة ما لندرك ان هذه الطريق هي اقصر الطرق واكثرها ملائمة لتوجه ، الى نقطة ما من البحر المتوسط ، منتوجات الهند واوقيانيا . فالخط الذي تتبعه السفن الانكليزية بين بومباي

والسويس يقيم لنا كل شهر هذا الدليل . لقد قاموا بتجربة تجارية
محاولين تصدير بضائع الهند عن طريق مصر وارسالها من هناك
الى تريستا عوضاً عن انكلترا ، آملين ان لا يثيروا أي اهتمام
حول هذه القضية .

ان تحويل تجارة الهند باجمعها عن طريق البحر الاحمر لا يكون
إلا اذا حفرت ترعة السويس . وبناء على امر نابليون (الاول)
الذي كانت عبقريته تحمل اصعب القضايا ، رسم المهندس لابر خريطة
للقيام بهذا المشروع العظيم . ان اعمال الحفر هينة بسيطة ، وهي
لا تكلف الا بضعة ملايين . اما الذين يزعمون غير ذلك فهم إما
جبناء ، واما غير عارفين بهذه الشؤون .

ان حفر ترعة السويس هو اخطر عمل يقلق بال اوروبا .
والانكليز يعرفون تلك الخطورة ويحتاطون للامر أشد الاحتياط .
انهم يوطدون اساسات قوتهم المستقبلية بتمركزهم في عدن ،
وبتوسيع سيطرتهم في زيبلاء وبوبرة . اما في خليج باب المندب
فتمد اصبحوا على ابواب البحر الاحمر ، وهذا امر واقع لا محالة .
فاذا تركوا يتصرفون كما يشاؤون ، فسيستولون على الممر ،
ويعمرن ، وخدمهم ، عن طريق مصر ، اسواق اوروبا واسيا
بالبضائع . ان مطامع انكلترا في البحر الاحمر كانت عظيمة كما
يظهر في المسلك الذي اتبعته اخيراً من قضايا الشرق .

وللقوى الاوروبية ، وعلى الاخص القوى الستي تحيط بجوض
الابيض المتوسط ، مصلحة كبرى في ان لا تستولي انكلترا او
تستفيد ، وحدها ، من مركز هام كهذا . ان مرافئ مرسيليا
وجنوى وليفورنو وتريستا تصبح ذات علاقة مباشرة مع الهند

وعلى الاخص اذا ما حفرت الترعَة . وقد تكون روسيا اكثر
اهتماماً من غيرها بالقضية ، اذ تصبح من قوى الدول الاوروبية
الاكثر قرباً الى الهند عن طريق البحر الاحمر . ان اوديسا تبعد
٤٠٠ فرسخ عن الاسكندرية ، في حين ان مرسيليا تبعد ٦٠٠ فرسخ .
اما هولندا فتود هي الاخرى ان ترى دول اوربا متمركزة على
هذه الطريق ، فتخلق مصالح تتنافى ومصالح انكلترا التي ستبتلع
مستعمرات هولندا عاجلاً او آجلاً .

فعلى الدول الاوروبية ، اذن ، مهما كلفها الامر ، ان تحبط
مشاريع انكلترا ، وتحول دون استئثارها بالسيادة على البحر الاحمر .
فمن الضروري ان تكون جميع الدول متساوية النفوذ في هذه
المنطقة . وهناك امر اهم من ذلك ، وهو انه في استطاعة فرنسا
وروسيا والنمسا ، لو عرفت هذه الدول كيف تتفاهم ، ان تلاشي
نفوذ انكلترا دون ان تتمكن هذه الدولة من المقاومة .

ان العرب والاحباش الذين يقيمون حول البحر الاحمر يكرهون
الانكليز ، فعلى ان نستفيد من الفرصة المؤانية بان نعرف كيف
نربط مصالح هذه الشعوب القريبة من الشاطئ بمصالحنا ، ونستخدم
مصالحهم ونعاضدهم بنوع ان نكتسبهم قلباً وقالباً .

ومن يصبح سيد القسم الاعلى من البحر الاحمر يكون سيد
المنفذ في وقت السلم ، كما انه يسد البحر في وجه كل قوة اثناء
الحرب .

ان تركز الانكليز في عدن يمكنهم ، ولا شك ، من خلق
العراقيل في وجه السفن لدى خروجها من بوغاز باب المندب .
اما سفن الاعداء فلن تستطيع ابداً ان تدخل خليج العرب . وان

كل محاولة هجومية تصبح مستحيلة مادياً . ويكفي ان نتذكر
البرتوغاليين الذين حاولوا عدة مرات ان يبيدوا بقواهم البحرية
القوى العربية في هذا البحر حتى تجرأوا على الانزلاج فيه بسفن
عديدة . ولكن الاخفاق كان حليفهم رغم قواهم التي كان العرب
يقاومونها بزوارق حقيرة لا يمكنها ان تصمد . ان البحر والمناخ
المجولين من البرتوغاليين ، لا بل الشواطئ ايضاً قد عضدت
العرب وقاومت في صفهم .

كان يجب عليّ ، بادىء ذي بدء ، لو كنت اقوم بتصنيف
كتاب ، ان اعرض باسهاب مصالح دول اوربا الحاضرة والمقبلة
في الهند والصين واوقيانيا والجهة الجنوبية من افريقيا وجزرها ،
وأبين بالتفصيل ان مصالح هذه البلدان هي ذات علاقة وثيقة
بمصالح اوربا . ولكن هذا البيان الذي أتقدم به لا يتسع لذلك ،
ناهيك بان كل شخص يعرفها او انه يجب ان يعرفها لان الكثيرين
قد افاضوا في الكلام عليها . اننا نعلم جميعنا ، اليوم ، ارتباط بعض
نقاط هذه القضية ببعضها الآخر . فالى الكتب الخاصة احيل من
تهم معرفتها .

لا تنقصنا معرفة العلاقات الجديدة التي ستقوم في البحر الاحمر ،
ولا يفوتنا ادراك تغيير ما كان موجوداً ، ولسنا نجعل تبدل وجه
الامور في العالم ، بل الذي ينقصنا هو ان نعرف كيف نعمل ،
ونتهيأ لنستفيد من هذا الانقلاب الذي لن يكون عن طريق
باتافيا وبومباي وكلكتا وبونديشيري وبوربون ومدغشقر ، بل
عن طريق البحر الاحمر ومصر . لقد درست قضية المرور عن
طريق العريش ومصر . فهذه قضية مستطاع حلها لانها لا تستدعي

إلا إرادة ، ولان في الاستطاعة مهاجمة مصر من البحر المتوسط .
فرنسا وروسيا واقفتان على ابوابها . واذا لم يكن للنمسا من
اهداف سياسية في هذه البلاد توازي اهداف هاتين الدولتين
قيمة واهمية ، فلهذه الدولة مصالحها التجارية التي ستصبح هامة نظراً
لهذا الممر ، والعلاقات الجديدة التي ستنشأ وتتمو .

ان المصالح الأوروبية هي هي ، سواء أكان ذلك في مصر ام
في البحر الاحمر . فالانكليز يعملون دائماً وابدأً ليسيظروا ويوطدوا
نفوذهم . بيد ان اخاديعهم اصبحت مفضوحة ، وسيئدا مصر اليوم ،
محمد علي ، وابراهيم باشا ، خلفه المقرر ، يفهمان جيداً طوية الانكليز ،
ومما يمتنانهم رغم ملاطفتها اياهم . انهم يصيخون الى النداء ويقدمون
يد المساعدة لكل طلب ، او محاولة ، او مشروع من شأنه ان
يناهض نفوذ هؤلاء . فما يهم مصر اصبحت مفهوماً : يجب ان تكون
مصالح أوروبا في هذه البلاد امن من مصالح انكلترا وحدها
وأقوى .

ان قضية البحر الاحمر هي ، اذن ، ذات شقين مستقلين :
مصر اولاً ، ثم ، وهذا قد رأيناها سابقاً ، القسم الاعلى من البحر
الاحمر وخليج باب المندب الذي استولت على شواطئه قبائل
مختلفة متفككة يسهل المكر بها ، وهي على الغالب تفهم مصالحها
على اسوأ ما يكون الفهم . ان هذه الناحية مجهولة الا من الانكليز ،
وقد درسوها باهتمام . انهم يعرفون تماماً بأن نصف القضية او
على الاصح كلها هي ههنا . فمن سواكن الى رأس كارداقوي
من جهة ، ومن جدة الى دفر حدود حضرموت من جهة اخرى ،
ينتظر مستقبل باهر ، سياسي وتجاري . فالدولة التي تعرف كيف

تتشىء مؤسساتها على هذه الشواطىء او تقيم علاقات حسنة لا
يستطيع أى حادث ان يززعها .
او هل يجب ان تقدم لانكلترا برهاناً آخر مستشهدين مجدداً
باحتيال عدن ؟

ان دولة منافسة عينت وجهة سيرها وتحفزها ، فعلى فرنسا ان
تستقر اذن في البحر الاحمر وخليج بـباب المندب . وللدول
الاوروبية هناك مصالح مائة لمصالحنا ، فعليها ان تعمل جميعاً اما
متحدة واما منفردة الواحدة عن الاخرى . ان مصالح هذه الدول
مشتركة متشابكة الى ابعد مدى ، فاحداها تدعم الاخرى . واذا
ما تقرر العمل فالدول تتعاخذ ، وكل منها يعمل من جهته :
فرنسا في مدغشقر وبوربون والهند ، والنمسا وروسيا تنشأت
مراكز تجارية وغيرها ، وهولندا تصبح ذات علاقة مباشرة مع
جاوى وسومطره والهند . وكذلك الاسبان فانه باستطاعتهم ان
يستوردوا عن طريق البحر الاحمر منتجات مانبلا . فبواسطة
هذا المنفذ تأتي كل دولة بمنتجات مستعمراتها وتصرفها عن طريق
البحر المتوسط ، وتقايض بها ، وتزاحم منتجات الهند الانكليزية
على اوسع نقاط تجارة العالم .

المؤسسات بوجه عام

قلت ان القضية تنحصر في انشاء مؤسسات تمتد من سواكن
حتى رأس كاردافوي على شاطىء افريقيا ، ومن جدة الى دفر ،
على شاطىء جزيرة بلاد العرب حتى حدود حضرموت .
وهذا العرض البسيط يدل على ان السويس والقصير Cosseir

منعزلان . ان هذين المرفأين هما مصر وسوف لن يكونا ابداً
الا مرافئ استيداع وتصريف البضائع ، وسيدقيان بحق لاصحاب
تلك البلاد ، فما علينا سوى انشاء دور القنصليات وتعيين موظفين
تجارين يشرفون على البضائع التي تنقل من الهند الى اوروبا ،
ومن اوروبا الى الهند ، ثم نقف بالمرصاد منتظرين الحدث الاهم .

ان معرفة مقدرتنا على انشاء مؤسسات على شاطئ افريقيا
او جزيرة بلاد العرب هي ما يجب علينا بحثه . واني ارى هذه
القضية اقل تعقيداً مما يظنون .

ليست القضية قضية انشاء مؤسسات على شاطئ الجزيرة ،
ولكنها قضية انشاء علاقات طيبة ومتمينة فحسب . وهاكم الدليل :
ان كل مؤسسة تنشأ على هذا الشاطئ تسمى في الوقت نفسه الى
الامة التي تديرها . والبرهان على ذلك عدن التي احتلها الانكليز
فكانت سبب الكراهية والحقد للذين يكنها العرب لهم . فهؤلاء
الناس الذين يتعشقون الحرية الى ابعد مدى ، وهم في الوقت
نفسه متعصبون لدينهم ، وتباعدون معتدون بانفسهم ، ينقلبون
عليكم اذا ما شعروا انكم تهددون استقلالهم ودينهم وتجرحون
عزتهم الوطنية . ان التفكير باخضاعهم عملية خطيرة جداً .
وليحاول الانكليز ذلك اذا شاؤوا .

اني ارى غير التفكير باخضاعهم ، ارى ان يسعى سعياً حثيثاً
للتحالف معهم .

ان احتلال انكلترا لعدن هو خطأ بالنظر للعلاقات التي يجب
ان تقام مع داخل الجزيرة . لقد ظنت هذه الدولة ان القضية
تتعلق بهودها فاختطت ولم تصب المرمى . فلنستفد نحن من

خطأها . فالطريق الى ان نكون اكثر منهم نفوذاً مهمة لنا
اليوم . اما فيما يتعلق بمشكلة المرور والمركز فما من شك في ان
احتلال عدن هو من أهم القضايا الخطيرة . ان عدن هي جبل
طارق البحر الاحمر . فيجب ، قبل كل شيء ، ان نتخلى عن
فكرة انشاء اي نوع من المؤسسات على شاطئ الجزيرة . وحسبنا
الآن تعيين موظفين وقناصل في جدة ، والحديدة ، ومخا ، والداخل
ان امكن ، ليوطدوا مصالحنا وعلاقاتنا هناك .

ومنذ اليوم الذي يلاحظ فيه العرب بانكم لا تتطلبون منهم
شيئاً ، بل يرون ، على نقيض ذلك ، انكم ترغبون في ربط مصالحكم
بمصلحتهم ، فسيكونون الى جانبكم ضد انكلترا التي يخافونها .
اما قضايا شاطئ افريقيا فتختلف عن ذلك كل الاختلاف .
صحيح ان هذه الشواطئ مأهولة بقبائل اسلامية ، الا ان هذه
القبائل ضعيفة مفككة عرى الاتحاد . فالقسم الداخلي من بلاد
الجبشة يضم شعوباً مسيحية ، وهي بأسرها تدعوننا وتمد لنا يد
المساعدة عندما ننزل الى الشاطئ .

والمواقع التي يمكن احتلالها ، سواء اكانت في خليج باب
المنذب ، ام كانت عند مدخل البحر الاحمر ، ام على شواطئ
الجبشة ، هي كثيرة جداً ، يجب ان توصل جميعها ببوربون عن
طريق شاطئ افريقيا الجنوبية الشرقية ومدغشقر فتؤلف سلسلة
مؤسسات تجابه بها فرنسا انكلترا لاسيا اثناء حرب عامة . اما
ايام السلم فيمكنها ان تكون لنا مصدر منافع تجارية عديدة .
يظهر ان الدولة الفرنسية قد سلمت بأهمية هذه القضية فكلفت
لجنة ان تدرس قضية انشاء مراكز تجارية تمخر بين السويس

وبوربون . انه لمن المحتمل جداً ، لسوء الحظ ، ان تقوم هذه اللجنة بما قامت به شبيهاها ، فتدفن المشروع . ولكن مهما يكن من امر فان مستعمرتنا بوروبون ، ومصالحنا في مدغشقر والهند ، واخيراً مصالحنا التي قد تنشأ على شاطئ افريقيا ، تستدعي هذا التنظيم .

بواخر بين السويس وبوربون

ان بين بوروبون والسويس ، اذا ما سرنا خطاً مستقيماً او شبه مستقيم ، مسافة تراوح بين ١٦٥٠ و ١٧٥٠ فرسخاً . وطريق كهذه لا يمكن ان تكون شوطاً واحداً ، ما لم نقيم ببناء بواخر كالبواخر المعدة للابحار الى ما وراء المحيط . واذا اتبعنا هذا النهج في علاقاتنا مع اميركا فلاستحالة وجود المواقف . اما من بوروبون الى السويس فاننا نجد اما كن نرسو فيها حيث نشاء لان نظرنا يقع دائماً على شواطئ وجزر . ان تنظيم هذه الشبكة من البواخر ونجاحها ، وهما ممكنان اذا شئنا ، يرتكزان اولاً : على الاتجاه الحظ ، ثانياً على المؤونة (فحم الحطب ، خشب البناء ، المعيشة) ، ثالثاً على مركز الموانئ .

الاتجاه الاول والخطوط الممكنة

الاتجاه الاول : الخط الانكليزي

٤٣٠	فرسخاً من بوروبون الى سيشيل . ربطه بجزيرة فرنسا .
٦٢٥	فرسخاً من سيشيل الى عدن . ربطه بسوكوتورا عند الضرورة .
٥٨٥	فرسخاً من عدن الى السويس . ربطه بمخا وجده .
١٦٤٠	فرسخاً . موقوفان .

الاتجاه الثاني : الخط العربي

٦٦٠	فرسخاً من بوربون الى شاطيء افريقيا الجنوبي الشرقي . ربطه بجزيرة فرنسا ومدغشقر .
٥٢٠	فرسخاً من شاطيء افريقيا الجنوبي الشرقي حتى مخا . ربطه بعدن وبربرة .
٥١٥	فرسخاً من مخا الى السويس . ربطه بمجده .
١٦٩٥	فرسخاً . موقفان .

الاتجاه الثالث : الخط الانكليزي العربي

٤٣٠	فرسخاً من بوربون الى سيشيل . ربطه بجزيرة فرنسا .
٣١٠	فراسخ من سيشيل الى شاطيء افريقيا الجنوبي الشرقي .
٤٥٠	فرسخاً من شاطيء افريقيا الجنوبي الشرقي الى عدن .
٥٨٥	فرسخاً من عدن الى السويس . ربطه بمخا وجده .
١٧٧٥	فرسخاً . ثلاثة مواقف .

وهناك ايضاً اتجاه آخر ، عربي انكليزي ، ينقص عنه مسافة ٨٠ فرسخاً وهو ذو موقفين : الاول من بوربون الى شاطيء افريقيا الجنوبي الشرقي . الثاني من هذا الاخير الى عدن ، ومن عدن الى السويس .

الاتجاه الرابع : الخط الفرنسي

٢٨٠	فرسخاً من بوربون الى القديسة مريم ومدغشقر ^١ .
٢٨٠	ربطه بجزيرة فرنسا .

١ انني لا اسمي نقاط المواقف باسمائها ، بل حاولت جهدي ان اتكلم عنها بصورة عامة ، لان ذكرها قولاً يضر بمصالحنا ، فكيف بنا اذا دوناه في كتاب .

٣٦٠	فرسخاً من مدغشقر الى شاطيء افريقيا الجنوبي الشرقي .
٣٢٠	فرسخاً من الشاطيء الجنوبي الشرقي حتى رأس كاردافوي .
٢٢٠	فرسخاً من الرأس حتى شاطيء الحبشة نحو ماسونا .
٣٤٠	ربطه ببوبرة ومضيق باب المنذب .
٤٠٥	فراسخ من شاطيء الحبشة نحو ماسونا - السويس .
٤٣٠	ربطه بجده .
١٧٣٠	فرسخاً . اربعة موافق . - الفرق بين المراسي

وهذه الاتجاهات الاربعة هي الوحيدة الممكنة . انها الفرصة المؤاتية ، بل الساعة التي يجب علينا فيها درس قيمة كل منها على انفراد . ولما كانت هذه الخطوط ترتبط كل الارتباط بالمواقف فسندرسها معاً .

الذخائر : الفحم ، الخشب ، اسباب المعيشة

الفحم الحجري

نحن بين امرين : اما ان نستورد الفحم الحجري من الهند واوروبا ، او ان نوجده في هذه الامكنة نفسها ، اي ان نستخرجه من مدغشقر وافريقيا وجزيرة بلاد العرب حيث يجب ان تقام هذه المواقف .

ان طرفي هذا الخط خاليان من هذا الفحم ، فبوربون ومصر يفتقران اليه ، بينما هو موجود في مدغشقر والحبشة ، واهل تلك

البلاد يعرفونه . اما جزيرة بلاد العرب فلم يعرف شيء عن الكمية التي وجدت فيها منه .

نجد في مدغشقر الفحم الحجري في مكان يبعد قليلاً عن البحر ، فيستطاع نقله بسهولة في نهر يصب في خليج كبير . وفي داخل الجزيرة ، قرب ، تاناناريف ، كثير من الفحم الحجري ، وقد استخدمه افرنسي في اعمال الحدادة . فاذا ما خصصنا قليلاً من العمل للنهر الذي يجري قريباً من ذلك المكان ، فانه يمكننا نقل ذلك الفحم الى البحر . ان تحقيق هذا المشروع سهل ، كما يقول العارفون . اما العارف في الحبشة ، فقد عثر على الفحم الحجري عند حدود فولوكالا وكوى ، قرب نهر وات الذي يبعد قليلاً عن روبي سانا ، ويصب في هافاش ، وهو موجود ايضاً في تيانو عند حدود كوى ، قرب هافاش . ومن الثابت اليوم ان جبال مدغشقر والحبشة تحتوي الفحم الحجري .

اما الامر الجدير بالذكر فهو ان رحالتين قد عثرا على الفحم في الحبشة حينما كانا بجولان في اطراف انجاد تلك البلاد . ان معرفتي لعلم طبقات الارض قليلة ، ولكن اختباري وملاحظتي التربة يؤكدان لي انه محتمل جداً ان نجد منه قرب تاران الواقعة على مقربة من هالاي وبوراي . وهاتان الاخيرتان تقعان على قمة رابية فسيحة وهي الجزء المتمم لرابية كوى . ان معادن الفحم الحجري تقع اذن على مسافة غير بعيدة من البحر ، وعلى الاخص من بوراي . وها اني ادون هذه المعلومات لتكون دليلاً للمستقبل . اما اليوم فيجب الاهتمام بنوع خاص بفحم مدغشقر ، فهو اول ما يجب الحصول عليه ليستعمل في الذخيرة . ان فحم

كوى لا يجدي نفعاً ما لم يمكن الابجار في هافاش . وهذا امر
محتمل وقوعه . ان الهند تستطيع في كل حال ان تقدم من الفحم
الحجري كميات كالتى تقدمها اوروبا . ولهذا يجب علينا ان نعلم ان
القيام بمشروع بناء السفن البخارية امر يكلف فرنسا الشئ الكثير ،
ولكنه امر لا بد منه اذا كانت مصالحها في بجار افريقيا لا تقل
عنه قيمة .

الاخشاب والحديد

ان هذه المواد تستورد عادة من اوروبا والهند ، ومع ذلك
فهناك عدة امكنة على الخطوط المشار اليها يمكنها ان تقدمها
لنا . فمدغشقر تقدم حديداً او اخشاباً لبناء البواخر . اما
الاخشاب فموجودة حوالي البحر . اما الحديد ففي الداخل .
فكيلوى والبلدان الواقعة قبالتها ذات غابات كثيرة ، ومنها تقطع
اخشاب البناء ، كما اننا نجد ايضاً غابات على الشاطئ الجنوبي
الشرقي من افريقيا وفي نهر جاب الذي تحمل مياهه السفن ،
وهناك يمكن ان تبني المراكب الضخمة .

وفي الحبشة حديد كثير ، وعلى بعد خمسة عشر فرسخاً من
البحر ، قرب هالاي ، مناجم منه يحسن الاهلون استثمارها . وهذا
الحديد هو من النوع الجيد . وحسبنا برهاناً على قيمته القول
ان حدادي البلاد ، وهم عمال غير حاذقين ، يلقونه بعض الاحيان
ثلاثين اربعين مرة في النار حتى يستطيعوا ان يصنعوا منه الشكل
الذي يرغبون فيه .

المؤن

لا يعني ان اتحدث عن المؤن التي تستورد من الهند او اوروبا، فهذه المؤن نجد منها ما نشاء في جميع الامكنة، في بوربون ومحا وجدة والسويس الخ... ولكنني سأتكلم على المؤن التي تقدمها البلدان الواقعة على الخط الذي تتبعه البواخر. اننا نجد في مدغشقر المؤن على اختلاف انواعها بكثرة. فهي يؤتى بها اما من الشاطيء، او من الداخل. وكذلك نقول عن شاطيء افريقيا الجنوبي الشرقي.

وعلى شاطيء الحبشة لا نجد من المؤن إلا اللحوم فقط. بيد انه يمكن ان يؤتى اليه بالحبوب من الداخل وبغزارة كلية. ولقد نقلوا في منتصف القرن الماضي الى جزيرة فرنسا حمولة اثنتي عشرة سفينة من القمح.

ليس في سيسيل وعدن ومحا فحم ولا حديد ولا خشب لبناء السفن. فهي تستورد كل شيء من الخارج، ما عدا بعض المؤن التي تأتي من الداخل الى هذين المحلين الاخيرين. اما في مدغشقر وشاطيء افريقيا والحبشة والبحر الاحمر فنقدر ان نجد كل شيء بسهولة. فالفحم الحجري، وخشب البناء، والحديد، والمؤن نجدها بكثرة تحت تصرفنا المطلق.

المواقف

ها قد وصلنا الى ادقّ نقاط مشكلة البواخر التي تربط بين

السويس وبوربون وهي مفصلة المواقف . اما المراسي فيمكن
تحويلها على ما تقتضيه المصالح السياسية والتجارية . وعليه فاذا ذكرنا
بوضوح المنافع التي يجب ان تتوافر في الموقف ليكون مقبولاً
ويسلم باحداثه ، فهذا يعني اننا عينا وجهة الخط .
ما هي هذه الشروط ؟

١- يجب ان يكون الموقف ، بناء على حق ما ، ملكاً
لفرنسا يحيط به شعب محالف لين الجانب ، تشبه مصالحه مصالحنا ،
ونكون ذوي تأثير فيه وسلطة عليه لنتمكن في جميع الحالات ان
نتقي المتاعب التي قد يحدثها لنا .

٢- يجب ان يكون كل موقف نقطة تجارية استطاع تحويلها
الى موقع عسكري في اثناء الحرب . ولهذا يجب ان يكون ذلك
المركز سهل الحماية يصلح ملجأ للمراكب التجارية ، وعند ذلك
سيكون لكل موقف مرفأ ممتاز ، وشعوب حليفة تحيط به . فمن
هذه المواقف التي يجب ان تكون ملكاً لفرنسا نستمد الفحم
والخشب ، ومواد الاعداد والتجهيز الاخرى ، والمؤن . فهل نجد في
مواقف هذه الخطوط الاربعة المنافع المشار اليها ؟

مواقف الاتجاه الاول

الخط الانكليزي

ان سيشيل وعدن ، المملكتين الانكليزيتين ، هما مواقف هذا
الخط ، فسنكون اذن تحت رحمة الانكليز . فالفائدة الوحيدة ،
وهي وصول المؤن ايام السلم ، فلن نحصل منها إلا على ما يوافق
الانكليز ان نحصل عليه ، فنضطر حينئذ الى مشتري كل شيء

منهم ، او على الافل استيادهم كل شيء . وبعد ، فاذا كانت كل
منفعة تجارية او وطنية تقوم على المخاطرات ، فهذا الخط لا يسلم
به ، وهو يسيء الى مصلحتنا الوطنية .

مواقف الاتجاه الثاني

الخط العربي

اذا كانت المواقف على شاطئ افريقيا الجنوبي الشرقي وفي
مخا ، فاتها نخص العرب الذين يهتمون بصعوبة وجودنا فيها .
فاستقرارنا هنالك لا يكون إلا رغماً عنهم . وعليه فلا يمكن ان
يكون لنا موقف إلا على الشاطئ الجنوبي الشرقي من افريقيا .
واذا كنا نطمح اليه فيمكن احداه اذا ما استندنا الى حق ما .
اما مخا فلا يجب ان نعلم بها لاننا نضطر الى مغادرتها إما عاجلاً
او آجلاً . ثم ان الاستقرار على الشاطئ الجنوبي الشرقي ، وفي
مخا ، دون التفكير بالمستقبل ، ولو رضي أهولهما ، يعني خلق المشاكل
الكبرى . فالدسائس الانكليزية التي تدعمها المصالح المقهورة لا تتأخر
ابداً عن العمل سراً .

ان الانكليز انفسهم لم يتمكنوا من الاستقرار في مخا . ولولا
مبادرتهم الى احتلال عدن لكانوا قطعوا عليهم ، على أثر اندحار
محمد علي من مخا ، خط المواصلات الذي تتبعه بواخرهم بين السويس
وبومباي . فكل مشاكلهم هناك من صنع العرب .

اما على الشاطئ الجنوبي الشرقي فيصعب عليهم ان يضرنا بنا
لان ليس لهم فيه مصالح محلية تعادل مصالحنا اهمية ، ولان بعض
المراكز بعيدة عن تأثير سلطة زعماء الداخل ، بخلاف مخا التي هي

تحت سلطة امام صنعاء .
فالمنفعة الوحيدة التي يمكن ان يقدمها هذان الموقفان هي
تجارية ، وكل ما عداها مؤقت . فعلى الشاطئ الجنوبي الشرقي
مرفاً جميل يمكننا بواسطته ان نستورد من الداخل الاخشاب
والمؤن . اما مرفاً محياً فهو غير نافع من جهة ثانية لاننا لا نجد
في ضواحي هذين الموقفين الفحم الحجري ، وبكلمة واحدة اننا
سنكون هناك تحت رحمة العرب . ولهذا ارى استحالة احداث
هذا الخط وعدم نفعه .

مواقف الاتجاه الثالث

الخط الانكليزي العربي

ثلاثة مواقف في سيشيل ومثلها على الشاطئ الجنوبي الشرقي
من افريقيا وفي عدن ، او اثنان فقط في هاتين النقطتين الاخيرتين
اذا كانت المسافة غير طويلة .

سوف لن نتناول هذا الخط الا بكلمة واحدة ، فهو شريك
الخطين الاخيرين ولا يقدم أية فائدة ، الا اذا استثنينا الحالة التي
ينشأ فيها موقف على الشاطئ الجنوبي الشرقي ، فتقصر الطريق
عند ذلك ، ونستطيع الحصول على منافع تجارية ، ولكننا نكون
تحت رحمة العرب والانكليز .

اننا لا نجد بين هذه الخطوط الثلاثة واحداً تجتمع فيه المنافع
والشروط المدونة اعلاه ، فاينما كنا لا نواجه الا شعوباً تقاومنا
ملبية داعي مذهبها . واذا ما حاولنا كبت تعصبها نصابنا العدا
اما بدسائسها ، واما بدافع مصالحها المقهورة . واخيراً الانكليز ؟

ان كل شخص يفهمهم . فهذه المواقف ، من جميع جهاتها ، تكون
اقامتنا فيها موقته ومعرضة للاخطار .
وعليه فاذا شئنا ان نحدث خطأ للسفن البخارية مبنياً بنياناً
وطيداً على اساس المصالح الافرنسية ، سواء أكان في البحر الاحمر
او مضيق باب المندب ، فيجب ان لا يكون موقفنا فيه تحت
رحمة العرب او سلطة الانكليز . واذا فعلنا خلاف ذلك فلا خط
للبوادر ولا مستقبل .
لنتنقل الآن الى الخط الافرنسي .

مواقف الاتجاه الرابع

الخط الفرنسي

الموقف الاول ، في خليج مدغشقر : انه يبعد عن
بوربون حوالي ٢٤٥ فرسخاً ، وهو مكان صالح للارساء ، ويمكنه
ان يتسع لجميع اساطيل العالم . حمايته سهلة ، ومناخه صحي خلافاً
لطبيعة شواطئ افريقيا . ان الاراضي هناك قابلة للحرارة لا بل
هي محروثة ايضاً ، والانهار والسواقي تسقيها . وقرب الشاطئ
نجد الفحم الحجري والاششاب للبناء . ولهذا يمكننا تحويل هذا
الموقف الى مستعمرة جميلة . اما مركزه فتجاري ، وسياسي ،
وعسكري ويمكننا ان نستمد منه ، لبوربون والمواقف الاخرى ، الفحم
والخشب . فالؤون هناك سهل الحصول عليها . وبكلمة وجيزة
نقول ان جميع الشروط التي نطلبها متوافرة كلها . اما المشكلة
الوحيدة فهي الاستيلاء عليه بصورة شرعية . ان معاهدات ١٨١٤
تمنح فرنسا جزيرة مدغشقر .

الموقف الثاني ، على الشاطئ الجنوبي الشرقي من افريقيا ،
وعلى بعد ٣٦٠ فرسخاً من مدغشقر : هنالك نقطة ذات مرفأ
جميل هادىء ، وهي محور تجارة تلك الناحية من الشاطئ ، لا
بل محور تجارة داخل افريقيا بكاملها . فالبلدان المجاورة لها زراعية
وفيهما جميع انواع المؤت حتى الاخشاب . فالجلب ، وهو النهر
الكبير الذي يجري من الحبشة بين البلدان ، بلدان الغال وسومولي ،
يصب قريباً من هنالك . ان ركوب هذا النهر ممكن وتجار البلاد
يقطعونه . فمما ذكرنا يبدو لنا ان مركزاً كهذا يدر ارباحاً
ضخمة ، وفوائد كبيرة اليوم وغداً .

يجب ان يكون لنا هناك مؤسسة تقام بناء على حق مشروع ،
وحل هذه المشكلة لا يكلفنا سوى قليل من الارادة . وعندذاك
تنتفي الاضرار التي سبق ذكرها لان مصالح الاهلين تصبح
مصالحنا وننتزج بهم .

فهؤلاء الناس يتعاطون التجارة مع البانانيين الذين يغشونهم .
ولهذا يفضلون الاتجار معنا عندما يرون اننا اقمنا هنالك ، وان
حسن النية رائدنا في عملنا .

الموقف الثالث ، يقع في رأس جاردافوي على مسافة ٣٨٠
فرسخاً من النقطة التي ذكرناها سابقاً : ان هذا الموقف هو اكثر
المواقف اهمية ، وهو يشرف على البحر الاحمر وشاطئ افريقيا .
اما من الوجهة التجارية فمركزه قليل الاهمية . يمكننا ان نحصل
فيه على مؤن من الداخل . اما فيما عدا ذلك فلا ينظر اليه إلا
كنقطة عسكرية تستمد ذخائرها من المواقف الاخرى ، إلا انه لا
يستغنى عنها . لا يمكننا الذهاب لاحتلال بيرة ، المركز التجاري

الهام ، الواقع على مسافة ١٤٠ فرسخاً من الرأس ، لان ذلك يعني
تحلينا عن المركز العسكري بتوغلنا في خليج باب المندب . اما
من رأس كاردافوي فنقدر ان نحمي العلاقات التجارية مع بربرة
ونسهر على صيانة شاطئ افريقيا . ان نظرة نلقها على الخريطة
تظهر لنا اهمية هذا الموقف ، وخصوصاً في ايام الحرب .
ان موقف الانكليز في زيلا وعدن يجعل الاستيلاء على هذا
المركز ضرورة ملحة . فبانشائنا مؤسسة قرب مضيق باب المندب ،
على شاطئ الحبشة ، لا نكون احدنا موقفاً بل مرسي يعادل به
نفوذنا نفوذ الانكليز الذين ظنوا انهم وصلوا اليه بامتلاكهم عدن .
فاذا لم نستطع ابادة ذلك النفوذ فعلياً ان نقاومه بهذا المرفأ
المتاز الواقع على مقربة من مضيق باب المندب ، وفي البحر
الاحمر ، في موقع يجعله سيد بحر القلزم . فمن هناك نقدر ان نشاهد
الناحية المقابلة ، فلا يستطاع تهريب شيء بصورة مخفية . أضف الى
ذلك انه لا يفصله إلا مسافة ١٢ يوماً سيراً او ٧٢ ساعة عن
بحيرة هوسا حيث يتضعع الهافاش . ولما كانت هذه البحيرة تصلح
للملاحة ، وهذا مؤكداً ، فنجارة كوى ، وعدل ، وبلاد الغال ترد عليها
بوفرة لانها أقرب مرفأ من بحيرة زيلا . ان بضائع كوى وفحمها
الحجري لا تقطع ، بعد عبورها النهر ، إلا طريقاً تبلغ مسافتها
حوالى الـ ٧٢ فرسخاً ، وهي سهلة التمهيد لتصبح صالحة للعربات .
واذا نشبت حرب يحول هذا الموقف مرفأً تحتمي فيه السفن .
الموقف الرابع ، على شاطئ الحبشة قرب ماسونا ويمكن
ربطه بمخا اذا دعت الحاجة : انه من اكثر المراكز اهمية سواء
أكان من حيث الوجهة التجارية ، او تنظيم خط البواخر ، او

احتلال المواقف على البحر الاحمر وشواطئ افريقيا . فهنا وفي
مدغشقر يجب ان يبتدىء العمل ، وعلى هاتين النقطتين يبنى مستقبل
تجاري باهر ، فتحقق المصالح الوطنية الكبيرة . ان هذا المكان لا
يحتوي الفحم الحجري - أي انهم لم ينقبوا عنه فيه ، ولا عن
الاشباب الصالحة للبناء ، ولكنه يتمتع باطيب مناخ حول البحر
الاحمر . فجميع انواع المعيشة متوافرة فيه ، وهو يفتح لنا مجال
استخراج الحديد من الحبشة . فهذا الموقف ، الذي يتلقى الفحم من
مدغشقر ، ومن كوى عن طريق الهافاش ، واخشاب البناء من شاطئ
افريقيا الجنوبي الشرقي ، في مقابل حديد الحبشة وذخايرها ، يمكننا
من القبض على ناصية تجارة البحر الاحمر .

انه ليسعني ان أويد بجاذب خطير صحة ما زعمت ، ولكن
ذلك يقتضي تعين المحلة بكثير من الوضوح ، وفي الايضاح ضرر
يجب عليّ ان اتجنبه لئلا اخدم غير دولتي .

لنفكر ملياً . فباحتلال رأس كاردافوي وشاطئ الحبشة نصبح
أسياد الهند عن طريق البحر الاحمر ، وباحتلالنا رأس كاردافوي
ومدغشقر نصبح اسياد الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح .
فالمسافة التي بين هذا الموقف الاخير والسويس ليست إلا ٤٥٠
فرسخاً . سوف لن اتكلم عن السويس حيث يجب ان تنشأ
مستودعات للفحم . ان موقف السويس هادئ لان هذه المدينة
تخضع من حيث تمولينها للقاهرة ومصر ، وقد كنا في كل وقت
نستطيع التأثير على الرجال الذين يحكمون القطر المصري .
فمصلحتهم تقضي عليهم بان يقوموا قدر الامكان بحماية المؤسسات
الفرنسية والاوروبية التي تناهض مصلحة انكلترة .

ان هذا الخط الوطني للبواخر يشمل ايضاً المواقف التجارية والعسكرية الممتدة بين بوربون والسويس . واذا ما نفذنا مشروعاً كهذا بارادة صلبة ، نقبض على تجارة مدغشقر وشاطئ افريقيا الجنوبي الشرقي ، والبحر الاحمر والحبشة ، وجزيرة العرب . وهكذا نصبح اسيا طريق الهند المطلقين عن طريق البحر الاحمر وتروعة موزامبيك . فالصمود في الحرب هناك سهل علينا اذا احسنا تنظيم هذا الموقف ، لابل يلحق باعدائنا الاضرار البالغة ، اذ لا يجسرون على اللحاق بنا او التفتيش عنا في البحر الاحمر ، ولا يحاولون الاقتراب من مؤسساتنا .

ان الخط الفرنسي هو الوحيد اذن الذي يوفر فوائد اليوم والغد ، وهو الوحيد الذي يجب تنسيه . فانشاء خط للبواخر بين السويس وبوربون هو مشروع وطني ذو مستقبل باهر . وبه تصبح بوربون على مسافة ٣٥ يوماً من فرنسا ، ومدغشقر على مسافة ٣٣ يوماً ، ومخا على مسافة ٢٢ يوماً ، والحبشة على مسافة ٢٠ يوماً ، وتصبح جدة ، وهي مرفأ مكة ونقطة ارتكاز بلاد جزيرة العرب ، على مسافة ١٩ يوماً . ان هذا يعني تشييد العمران والنفوذ الفرنسي في البحر الاحمر ، وبلاد جزيرة العرب ، والحبشة ، وشاطئ افريقيا بما فيه مدغشقر التي نستمد منها الفحم .

منافع المواقف وخط البواخر

بين بوربون والسويس

ان الفوائد الناتجة عن انشاء الخط الفرنسي وامتلاك المواقف هي على انواع ، فبعضها معروف يتفرع بالطبع عن الوقائع نفسها ويمكن اثباته بالبراهين ، وبعضها الآخر يمكن اثباته بالارقام . ومن المؤكد ، وهنا اعيد ما قلته سابقاً ، انه بامتلاكنا المواقف والحقوق على الشاطئ وتوطيد مؤسساتنا ، كما اشرت ، نصبح اسيا طريق الهند في البحر الاحمر . وهذا ما يجب ان نفكر به ملياً لان الوقت الذي تستعيد فيه تجارة اسيا وافريقيا طريقها القديمة ليس ببعيد .

ويجب ان نعلم ايضاً انه اذا كانت شواطئ افريقيا مأهولة بالمسلمين ، ففي الداخل اي في الحبشة وكوي وكافا وناريا ، مسيحيون يدعوننا ويودون لو يرونا نستقر على الشاطئ .

ان كل هؤلاء يصيرون سماسرتنا وعملائنا حتى في وسط افريقيا . ففرنسا بامتلاكها مركزاً عسكرياً وتجارياً ، وبخلقها منافذ لترويج بضائعها ، انما تقوم بالمهمة التي شاء القدر ان يلقبها على عاتقها ، ألا وهي مهمة تمدن الانسانية .

قد تخالج بعضهم الريبة بأن هذه النتائج لا تكون بدون تضحيات . ان القضية هي غير ما يتوهمون . فاذا وجدنا ، على الخط المذكور ، مصالح عتيدة وادبية ، فهناك ايضاً مصالح بديهية ومفيدة يمكن تحقيقها مباشرة . انها مصالح مادية نقدية يمكن تحقيقها في اليوم الذي ننزل فيه الى الشاطئ .

صحيح ان تجارة جميع هذه الامكنة من مدغشقر وشواطئ
افريقيا والبحر الاحمر ليست على المستوى الذي يجب ان تكون
عليه ، الا انها مع ذلك مهمة جداً يجدر بنا ان نستأثر بها . وعليه
يجب الابتداء هنا ، ولو في انشاء خط البواخر بين السويس
وبوربون .

قد نتعرض لمصاعب جمة اذا شئنا ان ننشئ بغتة مراكز
عسكرية ، ناهيك بان هذا الامر يتطلب نفقات كبيرة .
اما اذا ابتدأنا بتعاطي اعمال التجارة ، وخلق علاقات
ومصالح مع شعوب الداخل والشاطئ ، فانهم يمنحوننا جميع
مطالبنا عندما يشعرون بالارباح التي يمنونها . يجب ألا نعتقد ان
مسألة هذه التجارة سهلة ، وانه يجب ان نواجه هذا العمل كمن
يذهب الى صيد الحوت . كلا ! انها تقتضينا القيام بغزوة تكون
اكثر رصانة من غزوة انكوبيو والكثيرات مثلها التي اسفرت
عن نتائج مخزية . فهي تتطلب انشاء شركة متكاتفه وعمل متتابع ،
لا عمل شركة منافع ١ .

١ اني اسف ان اقول ذلك . الا ان التجارة الفرنسية لم تعد تستطيع القيام باعمال
تصدير واسعة وانشاء مؤسسة تجارية قوية . انها تجل معنى الشركة وضم رؤوس المال بعد
ان اصحت اناية منطوية على ذاتها . فكل شخص يعمل جهده ليستأثر بالعمولة ويتفرد
بارباح استياداع البضائع . وقد رأيت بياناً بأسعار بضائع ضعفت ثمنها لدى وصولها الى
المرفأ ، من قبل المحل المكلف بارسالها . كم هي مشجعة تجارتنا الخطرة في المرفأ !! ومنذ
زمن ليس بالبعيد عرض على احد المحلات التجارية في بوردو مشروع القيام بتصدير ،
فرفض بادىء ذي بدء حين بدا له ان ليس في استطاعته استغلال المناسبة ومضاعفة الربح .
واخيراً بعد ان حصل على المعلومات الكافية ، قبل بذلك وساهم بدفع اربعين الف فرنك
على شرط ان يستقل باستياداع البضائع . ان البضائع المصدرة كانت تساوى ٦٠٠٠٠٠

سوف لن ادلي فيما بعد باية معلومات عن تجارة مدغشقر لانها معروفة نوعاً ما . فهذا البلد يقدم لجزيرة فرنسا وبوربون حاجيات ذات اهمية اولية . وانا واثق من اننا نعرف القليل عن منتوجات هذه الارض الشاسعة التي نجد فيها منفذاً هاماً للتصدير لانها تضم حوالي اربعة ملايين من المستهلكين . لا اريد ان اتعمق في التفصيلات لان اناساً آخرين غيري يهتمون بذلك بصورة جدية . فيمكننا ان نقرأ عن مدغشقر وتجارتها البيان الصحيح الممتاز المنشور في المجلد الخامس من هذه النشرة . ويلاحظ المؤلف ، بلا ريب ، ان مدغشقر التي شاءت ان تحصر فرنسا فيها جميع نشاطها ، ما هي إلا واحدة من النقاط التي تم الاوروبيين عامة والافرنسيين خاصة لكي يقفوا بوجه انكلترا .

تجارة جزيرة بلاد العرب العامة . تجارة مصر وسنار ،

وبلاد النوبا ، والبحر الاحمر ، والشانجالا ، ودنقلي ،

والحبشة ، وعدل ، وشاطيء افريقيا الجنوبي .

الارقام تفصح هنا اكثر من الكلام . ولهذا ابدأ بتقديم بيان عن البضائع المستوردة والبضائع المصدرة ، مع وصف الحركة التجارية .

واحيط القارئ علماً بانني لم اسجل في لوائح الرقيم الادنى ،

فرنك . وما من شك ان ربح العمولة لم يكن ينقص عن ٦٠٠٠٠ فرنك . ففي جميع الحالات كان هذا المحل الجسور في بوردو متيقناً انه سيجني ربحاً يعادل ٢٠٠٠٠ فرنك . هذه هي تجارتنا في اعمال التصدير : انها مخيفة !

كحل ، ثبغ ، مشروبات ، زجاج ، وما شاكلها .
ونصف هذه التجارة يتعاطى بالنقود ، والنصف الآخر بضائع
مستوردة .

كمية المعاملات التجارية : ٨٨٠ ٠٠٠ فرنك .

تجارة اقاليم امهره

غوندار هي السوق المهمة والنقطة التي تتوجه اليها القوافل
لتعود منها الى بلاد الغال وتذهب الى ناريا وسنار ومصوع بعد
ان تمر في تيجرى .

بضائع التصدير

عاج	١٥٠٠٠٠ فرنك
ذهب	» ٢٠٠٠٠٠
بن	» ٤٠٠٠٠٠
مسك	» ١٥٠٠٠٠
جلود البقر بمجالتها الطبيعية	» ٦٠٠٠٠
جلود مدبوغة	» ١٥٠٠٠
جلود المعزى والاعناب بمجالتها الطبيعية	» ٣٠٠٠٠
جلود مدبوغة	» ٥٠٠٠٠
قطن	» ٥٠٠٠٠
بوابيج ونعال	» ٨٠٠٠٠
صمغ	» ٢٠٠٠٠
قرون الكر كدن	» ١٠٠٠٠

»	٢٠٠٠	الفراء
»	٧٠٠٠	ريش النعام
»	٨٠٠٠٠٠	شمع
	٣٧٠٠٠٠	فرنك

ان شحم الاغنام والبقر والحيول والمعادن تخر بها هذه البلاد .

بضائع الاستيراد

الانسجة القطنية : الزرقاء والحمراء ، زجاج ، حرائر ، زرقاء وحمراء ، اجواخ زرقاء وحمراء ، انواع المخمل ، قطن ، بهار ، بفتا ، بارود ، سعوط وتبغ ، انسجة منقشة ، شاش موصل ، اقمشة حريرية ، سيوف ، عطور ، ابازير ، كبش قرنفل ، لعب للاولاد ، سكاكين ، زجاج ، خزف (لا يستوردون من هذا الصنف الا القليل) ، حلي من فضة ومن نحاس مطلي ، بنادق بفتيل ، بعض السجاد ، أواني كنسية .

ان الاستيراد والتوريد يتعادلان . وهذه التجارة تقوم بها القوافل .
كمية الاعمال التجارية : ٧٥٤٠٠٠٠ .

تجارة اقاليم كوى

ان عليو - امبا هي سوق هذه الاقاليم الهامة . فالقوافل تجتمع فيها لتتوجه الى بلاد الغال وكافا ونارايا وجنجيرو ، ثم تعود الى البحر عن طريق هورر ، واليوم الى بربرة ، وفي بعض الاحيان الى زيلا .

بضائع التوريد

عاج	٤٠٠٠٠٠٠ فرنك
بن	« ٥٠٠٠٠٠
صمغ	« ٣٠٠٠٠٠
مسك	» ١٢٠٠٠٠
ذهب	» ٥٠٠٠٠٠٠
ريش النعام	» ٤٠٠٠٠
شمع	» ٦٠٠٠٠٠
جلود بقر ومعزى واغنام غير مدبوغة	» ٣٠٠٠٠٠٠
	<u>١٠٨٦٠٠٠ فرنك</u>

وفيما عدا ذلك فهناك البغال ، وجلود فرس البحر ، وجلود النمورة والفهود ، والبقر ، والاغنام ، والحيول ، والمعادن .

بضائع الاستيراد

هي البضاعة نفسها التي نجدها في امهره . والاستيراد والتوريد يتعادلان . ويؤثرون التعامل بالنقود على المقايضة . اما المبالغ المتداولة في هذه الاعمال التجارية فهي ٢١٩٢٠٠٠ فرنك .

ملاحظة : ان تجارة هذه الاقاليم الثلاثة من الحبشة تمارس حالياً عن طريق البحر الاحمر مع مصوع واراننا ، وعن طريق باب المنذب مع زيلا وبربرة ، واخيراً مع سنار لتنفذ الى مصر .

يمكن ان تكون اكثر اهمية مما هي عليه اليوم عندما يتأكد اصحاب القوافل انهم في مأمن من المتاعب . واول محل يستطيع ان يقوم بحمايتهم يصبح نقطة ارتكاز هذه التجارة .

ان عدد سكان هذه المقاطعات الثلاث يبلغ ٤٠٠٠٠٠٠٠ نفس ،

ان لم يكن اكثر، وهي تتعامل مع اهالي نارايا وكافا وجنجيرو
 وجميع بلدان الغال التي تبلغ حوالى ٣٠٠٠٠٠٠ نفس . وهي
 تتعامل ايضاً مع بلدان اكثر بعداً . ان امهره وكوى هما السوقان
 اللتان تنتجان البضائع الموردة والمستوردة واللذان تلتقي هذه
 البضائع فيها .

تجارة عدل والصومال

مركز هذه التجاره زيلا وبربرة . اما هوسا وهورر فهما
 السوقان الهامتان اللتان تتوجه اليهما القوافل .
 بضائع التوريد

بن	٤٠٠٠٠	فرنك
صمغ عربي	» ١٠٠٠٠٠	
صمغ	» ٥٠٠٠٠	
شمع	» ٤٠٠٠٠	
عاج	» ٢٠٠٠٠	
ريش النعام	» ٣٠٠٠	
مسك	» ٥٠٠٠	
زبدة	» ٢٠٠٠٠	
بجور	» ١٠٠٠٠	
جلود البقر والاعناب المعزى	» ٦٠٠٠	
فراء	» ١٠٠٠	
ذهب	» ٢٠٠٠٠٠	
	» ٤٩٥٠٠٠	

ويجب ان نضيف الى ما سبق : البقر ، والاغنام ، والبغال ،
والحمير ، والجمال ، والحيول التي يمكن ان تؤلف تجارة كبيرة .
انهم لا يحسنون صنع شحم الاغنام .

بضائع الاستيراد

انها البضائع نفسها التي نجدها في امهره .
وهذه التجارة قوامها المقايضة تقريباً . ومع ذلك فهم يؤثرون
النقود .

كمية الاعمال التجارية : ٩٩٤٠٠٠٠ فرنك .

نسبة حمولة المراكب في مرفأ بربرة : من ١٠ الى ١٢ ، ومن ٥٠٠
الى ٦٠٠ طن ، ومن ٥ الى ٢٠ مركباً تصل من الهند ومسقط .
ملاحظة : يجب ان نضيف الى هذا المعدل التجاري معدل
كوى . ان هوسا هي نقطة ارتكاز عدل التي تتفاوض مع بلاد
الغال الغربية ، كما ان هورر هي نقطة ارتكاز الصومال التي تتصل
بفروعها مع بلاد الغال الجنوبية . وهاتان النقطتان هما المركز
التجاري لهذا المثلث الفسيح الذي ينتهي به رأس جاردافوي .
ان عدد السكان لا يقل عن ٢٠٠٠٠٠٠٠ شخص .

تجارة شاطيء افريقيا الجنوبي ورأس جاردافوي

عند مصب كييلاموس

ان هذه التجارة تمارس على الاخص في باد ، وهاجادوكسا ،
وبرافا ، وهامار ، ولامو .

بضائع التوريد

ذهب ، عاج ، صمغ اللك ، مسك ، جلود بحالتها الطبيعية .

بضائع الاستيراد

بارود ، اقمشة زرقاء ، زجاج ، انسجة منقشة ، خرزوات ،
اجواخ ، تبغ ، عرق ، مأكولات .
وهذه التجارة تمارس بواسطة سفن ومراكب ، وقوامها
المقايضة . انه يصل من الهند من ١٥ الى ٢٠ سفينة .
ان معدل عدد المراكب ، وجميعها من مخا او مسقط ، لا يقل
عن الخمسين مركباً .

الحمولة : من ١٠٠ الى ١٥٠ طناً في جميع انحاء الشاطئ .
كمية المعاملات التجارية : ٤٠٠٠٠٠٠٠ فرنك على الاقل .
ملاحظة : ان البلد الذي يمتد من الكيلاموس ، النهر الذي
يجري من نارايا وجنجنيو و حتى راس بربرة ، هو مأهول ومروي
ومزروع ، وغير قاحل كما توهموا . ويمكن الابحار على متن
مراكب ثقيلة وضخمة في الكيلاموس والجاب حتى مسافة ١٥ يوماً
من المصب . ان المراكز المختلفة التي اتينا على ذكرها هي اسواق
تتعامل مباشرة مع ١٠٠٠٠٠٠٠ شخص ان لم يكن اكثر .

بيان موجز ١

الشعوب التي تفاوض
هذه الاسواق

حركة الاعمال التجارية
عن عام واحد

١ انا ندرك بسهولة كم كلفنا وصولنا الى نتيجة تقريبية من الانتباه الدقيق والتحريات
والنظريات المحصنة والمراقبة الدقيقة في بلدان لا تمسك دفاتر منظمة او سجلات رسمية
صحيحة .

ومع ذلك اقول : اذا اعتبرت هذه الارقام غير صحيحة فانما تكون دون الواقع لا

السكان	جزيرة بلاد العرب ، محا :	١٥٠٠٠٠٠٠
اليمن ونجد ٥٠٠٠٠٠٠	جزيرة بلاد العرب ، الحديدية :	١٥٠٠٠٠٠٠
	جزيرة بلاد العرب ، جدة :	٢٥٠٠٠٠٠٠
مصر ، السويس ، القصير ٢٠٠٠٠٠٠	مصر ، السويس ، القصير :	٦٠٠٠٠٠٠٠
سنار وبلاد النوبا ٥٠٠٠٠٠٠	سنار ، بلاد النوبا ، سواكين :	٣٠٠٠٠٠٠٠
البلدان المجاورة ٢٥٠٠٠٠٠		
في الجزر ٢٠٠٠	البحر الاحمر والجزر :	٣٠٠٠٠٠٠٠
دثقلي ٤٠٠٠٠	دثقلي ، مصوع :	٢٤٠٠٠٠٠٠
شتغالا ٤٠٠٠٠	شتغالا ، مصوع :	٨٠٠٠٠٠٠٠
	الجبشة ، تيجري :	٨٨٠٠٠٠٠٠
في الجبشة ٤٠٠٠٠٠٠	الجبشة ، امهره :	٧٥٤٠٠٠٠٠٠
البلدان البعيدة ٣٠٠٠٠٠٠٠	الجبشة ، كوى :	٢١٩٢٠٠٠٠٠٠
٢٠٠٠٠٠٠٠	عدل ، صومال :	٩٩٤٠٠٠٠٠٠
في الداخل مباشرة ١٠٠٠٠٠٠٠	شاطيء برافا الجنوبي :	٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠
عدد المستهلكين ٢٠٠٨٢٠٠٠٠	كمية المعاملات التجارية	٨٠٢٢٦٠٠٠٠٠٠

عدد السفن التي تقوم باعمال هذه التجارة

من ٦٥ الى ٨٢ سفينة تراوح حمولتها

من ٤٠١٥٠ طناً

من ٥٠٠-٦٠٠ طن . المعدل :

اكثر منه . اما فيما يختص بالبيان المفصل عن تجارة الجبشة فاني اؤكد صحته على الرغم من انه يسعنا ان نضيف اليه بعض الحاجيات المصدرة التي تظهر من وقت الى آخر في الاعمال التجارية ، والتي لم يعد يهتم اليوم بها مطلقاً . ومن ثم فاذا اسقطنا تلك ارقام البيان الموجز من الحساب ، فالقيل منه يجب ان يثير مع ذلك انتباهنا واهتمامنا .

من ٩٥ الى ١١٠ قوارب هندية تراوح حمولتها
 من ١٥٠-١٠٠ طناً . المعدل :
 ١٢٧٥٠ طناً
 من ١٥٠ الى ٢٠٠ مركب عربي تراوح حمولتها
 من ٦٠-١٠٠ طن . المعدل :
 ١٤٠٠٠ طناً
 المجموع
 ٦٦٩٠٠

المستهلكون ٢٣٠٨٢٠٠٠
 كمية المعاملات التجارية ٨٠٢٢٦٠٠٠
 حمولة ٦٦٩٠٠٠٠٠

ان البيوت التجارية الاوروبية لا تتعاطى هذه التجارة .
 وما اظن اننا في حاجة الى التذكير بالخلاصات التجارية التي
 اتينا على ذكرها لندلل على اهميتها . اننا نعلم ان انشاء خط
 للبواخر ومواقف في النقاط المذكورة يعني الاستيلاء على التجارة ،
 واستقرارنا على طريقي الهند في رأس الرجاء الصالح والبحر الاحمر .
 لنفكر ملياً ، ان كل ذلك جدي . ولتنبه اذن فرنسا
 واوروبا الى موقف انكلترا وخطتها .

ان عدن ، المملكة الانكليزية ، هي على مسافة ستة ايام من
 السويس ، وهذه الاخيرة على مسافة نهار وليلة من القاهرة . ان
 خليج عدن هو افضل الخليجان ، فمن يمنع الانكليز ، اذن ، بحجة
 الحرب او حماية انفسهم من العرب ، ان يحشدوا في هذه النقطة
 من عشرة آلاف الى اثني عشر الف رجل ، ويجمعوا البواخر
 وسفن الشحن لينقضوا على ترعة السويس في الوقت المناسب ،
 من الفصل الجميل ، بظرف ثمانية ايام على الاكثر ، يعاونهم في ذلك
 اسطول انكليزي يتألف من عدة يوارج تخرج من مالطة لتقوم

بأعمال عدائية امام الاسكندرية ، فتخلق البلبلية والتشويش ، وتسفر
النتيجة عن استسلام مصر للانكليز بدون قتال ؟
ان يسهل عليهم القيام بذلك قبل ان تستطيع فرنسا وروسيا
والنمسا ان تعوق خططهم هذه . اما اذا امتلكتنا المواقف التي
اشرت اليها ، فأنشأنا خطأ للبوآخر ، او موقفاً واحداً في البحر
الاحمر على شاطئ الحبشة ، فاننا نقطع الطريق في وجه الانكليز
الذين لا يجروون بعد ذلك على المغامرة في قطع بحر القلزم ، ناهيك
بان حملة من هذا النوع تكون مستحيلة .
ان موقف الانكليز في عدن يشكل خطراً قريباً وتهديداً
كبيراً لمصر اذ يمكن اخذها من الامام ومن الورا ، وتلك هي
الخطة التي اتبعها الانكليز عام ١٨٠٠ . لقد انزلوا الى الشاطئ
جيوشاً في ابي قير والقصير واضطرونا الى التسليم ، فما علينا ، اتقاء
لخطر جديد ، إلا ان نحتمل موقعاً في البحر الاحمر .
ان تقدم انكلمترا نحو البحر الاحمر يستحق درساً دقيقاً خاصاً .
وعلينا ان نبدأ بدرس قضية غزوها سيدي في القصير ، ومحاولات
تمركزها في سو كوتورا ، وبريم ، وكاماران ، وبعثاتها الديبلوماسية
في صنعاء ، والحبشة ، تلك البعثات التي قررتها ونفذتها رغمًا عن نفقاتها
الباهظة ، والمصارفات الضخمة المخصصة لرسم خريطة البحر الاحمر
وجزره وسواحه . ولا ننس اصرار هذه الدولة على انتزاع شاطئ
جزيرة بلاد العرب من محمد علي الذي كان يضايقها ويمكنه ان
يهاجمها من الورا اذا تجرأت وحاولت غزو مصر . أما احتلت
عدن ، وقوت نفوذها في زيلا وتاجورا ، واحكمت عرى علاقاتها
التجارية التي اقامتها بينها وبين كوى والهورر عن طريق بربرة

لتحصل منها على المؤونة التي ابت ان تقدمها جزيرة بلاد العرب
لعدن ؟

فهل يظن ان جميع هذه الاعمال وهذه النفقات التي صرفت
بصورة متواصلة منذ اربعين سنة قد اتخذت بدون اي هدف ؟
ان القضية ليست قضية صرف بعض الآلاف من الفرنكات
يشغل بها الرأي العام ، كما هي الحالة في فرنسا ، لكي يقال فيما
بعد : انظروا ، ان فرنسا تهتم ايضاً بمشكلة البحر الاحمر . لقد
اوفدنا رسلاً ، وانطنا بجمعية امر الاهتمام بقضية انشاء خط بحاري
بين السويس وبوربون وانشاء بيوتات تغزو تجارتها العالم ، ولكن
ماذا كانت النتيجة ؟ كانت العاقبة تقويض المحل التجاري ، وزرع
الحذر والريبة بين التجار ، وتجديد الحرب الاهلية في الحبشة ،
وقنوط كل من شرع بعمل مجد هام ٢ .

٢ ان ثمة موضوعاً تاريخياً جذاباً جديراً بالكتابة عن تصرفات بعض الفرنسيين في هذه
المناطق منذ العام ١٨٣٨ . فقد استطاع احددم الحصول لفرنسا على شواطئ في مقابل
وعد قطعه لأوبي زعيم تيجري بانه يزوجه من الاميرة كليمنتين كريمة ملك الفرنسيين .
ونظم فرنسي ثاب قافلة تجارية مؤلفة من نبيذ برسم المسلمين ، ومن احذية للاعباش الذين
يسديرون حفاة الاقدام ، ومن قفازات وموسيقى عسكرية كاملة العدة للقبائل المتوحشة . وقد
عاد هذا الاخير الى فرنسا وبصحبه خدام احباش زعم انهم سفراء . ثم رجع الى الحبشة
وجرّ معه فرنسيين طيبين من سان دنيس للبحث عن تجارة اصواف في بلاد صوف اكثر
اغنامها قاس جداً . واكتشف ثابك انهرأ في نقطة تخلو من الماء ، واخترع علاقات تجارية
وحاول ان يقبض اثمناً باهظة لقاء ذلك . فتصور ان مثل هؤلاء الناس كوفثوا ، فقال
هذا صلياً ، وذلك مناصب ، وذلك مهمات جديدة . لقد خدعت الحكومة وخذع الوزراء
على شكل يحط من كرامتهم . فن واجبنا ، بصفة كوننا عضواً في الجمعية الشرقية ، ان
نشير الى هذه الاعمال . فهناك اشخاص يتق بهم بعض رجال الادارة ، فيضلونهم . فعلى
الرجال الرسيين ان يتنبهوا . فان هؤلاء الجهلة يزعمون كلهم انهم يعرفون كل شيء ،

لقد شاءت انكلترا بطريقة جدية الاستقرار عند مصب البحر الاحمر ، لانها تدرك اهمية هذا الموقف . ولذلك انفقت الملايين وانشأت مؤسسات يمكن ان تقدم لها خدمات جلي . لقد احتلت عدن مفتاح البحر الاحمر ، وهي اليوم سيدة طريق الهند عن طريق مصر ، ولا ينازعها تلك السيادة منازع . فاذا ما تعقدت قضايا الشرق فانها تنبئ اذ ذلك فرنسا واوروبا (باحتلالها مصر ، وبدون ان يشعروا بذلك في باريس) عن اهمية موقفها في عدن .

ملخص

وختاماً لهذا العرض الموجز الذي تناول طريق الهند عن طريق البحر الاحمر ، والمصالح الاوروبية وانشاء خط للبواخر بين السويس وبوربون ، والمراكز التي يجب ان تحتلها فرنسا ، واخيراً تجارة البحر الاحمر العامة ، وتجارة شاطئ افريقيا ، ألخص كلامي السابق لاجعل التوضيح اكثر وضوحاً وإيجازاً :

١ - ان علاقات اوروبا مع الهند واوقيانيا والصين وشواطئ افريقيا الغربية سوف تتبع طريقاً جديدة ، وسيصبح البحر الاحمر منفذ هذا الممر . ٢ - ان مصالح الدول الاوروبية ، وبوجه خاص

ويظهرون امامهم كما لو كانوا رؤساء المنطقة التي يستثمرونها فيحصلون على حماية الادارات الرسمية . وقد حدث اخيراً ان احدهم زعم بكل سذاجة : « ان الجمعية الشرقية هي جمعية خطيرة جداً ولا بد لها من اعلان الحقيقة . » وحسناً فقل فانه اتاح لها ان تكشف عن حقيقته وحقيقة امثاله . وبعد ، عاد من الحبشة والبحر الاحمر الزميلان السيدان المحترمان كاليثيه وفيريه الضابطان في اركان الحرب ، المرسلان من قبل المارشال سولت ، كما عاد من البحر الاحمر السيد سانت كروي باجو ، وحملوا معهم من هذه البلاد وثائق ومعلومات لم يبق يجوز معها ان يتدع احد او يتخذع .

مصالح فرنسا، هي واحدة في البحر الاحمر وخليج باب المندب. وعليه فعلى هذه الدول اذن ان توحد قواها لتضعف في هذه النواحي توسعات انكلترا او تعادها. ٣ - من واجب هذه الدول، متكاتفه او غير متكاتفه، ان تتشبه بانكلترا فتحصن الامر وتجنّب نفعاً من الفوائد المقبلة التي ستجعلها طريق الهند في متناول البلدان الواقعة على شاطئ المتوسط. ٤ - اما اليوم فان طريقة الاستفادة من المستقبل، وهي اساس كل عمل عتيد، لتتخصص في انشاء مؤسسات حول البحر الاحمر وفي خليج باب المندب. ٥ - يجب على فرنسا ان تكون رأس هذه الرابطة الاوروبية التي وفتت بينها مصالحها، فتحتمل المراكز التي اشرنا اليها، ونشئ خطاً مجرياً للبوياخر بين السويس وبوربون. ٦ - ان مركز المواقف وانشاء خط للبوياخر هما الطريقة الوحيدة لانشاء مؤسسات كبرى تجارية وعسكرية، ثم الاستعمار، وتوطيد النفوذ الفرنسي في جزيرة بلاد العرب، والحبشة وشاطئ افريقيا، ومدغشقر، والسيطرة، او على الاقل، اقتسام تجارة هذه النواحي، وفتح اسواق جديدة لفرنسا وتوطيدها بقوة على طريقي الهند. فمن مرسلها الى بوربون، عن طريق مصر، يمكن فرنسا ان تنشئ خطاً هاماً للعمليات الحربية. ٧ - ان الدول الاوروبية التي هي من طراز اول وثالث تقضي عليها مصالحها بدعم بل بمساعدة الدولة التي تأتي لتقف على طرفات الهند معارضة انكلترا. ان قلق الصحافة الانكليزية في الهند من البعثات التي اوفدها الحكومة الفرنسية الى الحبشة هو برهان كاف لتأييد صحة ما جاء في هذا الملخص.

فهرست

الفصل السابع	٥	كلمة لا بد منها
٦٥ اخلاق السكان وعاداتهم	٧	كتاب من السيد بوجولا
الفصل الثامن	٩	مقدمة
٧٦ اخلاق المسلمات وعاداتهن		الفصل الاول
الفصل التاسع		خطة الكتاب . ملخص تاريخ بيروت ١٤
٨٥ عادات اسلامية . شعر . موسيقى . علوم		الفصل الثاني
الفصل العاشر		٢٠ اهمية بيروت التجارية . اسبابها
٩١ اخلاق المسلمين . معجزات الروم . قدر تعاليم دينية . تسول		الفصل الثالث
الفصل الحادي عشر		٢٦ وصف بيروت
١٠١ عادات المسيحيين		الفصل الرابع
الفصل الثاني عشر		٤٢ ضواحي بيروت
١٠٤ عادات المسيحيين ايضاً . انها تخائف قليلاً عن عادات المسلمين . ملابس النساء . اتباع العادات الشرقية . اوهام . تقدير . حيل اثناء الاكل . غنى عام . الولع بالبناء . الاعراس		الفصل الخامس
		٥١ ضواحي بيروت ايضاً . غابة الصنوبر . مار جرجس . الكرتينا . هضبة مار متر
		الفصل السادس
		٥٧ حاصلات البلاد . الدخل العام . اسعار الحبوب

- الفصل التاسع عشر
تجارة بيروت . اهميتها . الاساليب
التي يجب ان تتبعها فرنسا في سبيل
ازدهارها ١٥٩
- الفصل العشرون
بيروت ودمشق ابنتها اخرى بان
يكون مراكز للمؤسسات
الاوروبية . الحجج التي تؤيد
بيروت ١٧٧
- الفصل الحادي والعشرون
تجارة دمشق . الحجج المؤيدة
للمؤسسات التي تنشأ في هذه البلاد ١٨٦
- الفصل الثاني والعشرون
آثار بيروت وضواحيها . منبع
نهر بيروت . اطلال بعل مرقد ١٩٢
- الفصل الثالث والعشرون
آثار نهر الكلب ٢٠٢
- الفصل الرابع والعشرون
وصف لبنان المسمى الجبل
لدرزي . تقسيمه الى مقاطعات .
ارتقاء بيت شهاب كرسي الحكم .
الميثاق ٢١٥
- الفصل الخامس والعشرون
تاريخ لبنان الطبيعي وضواحي
بيروت ٢٢٨
- ملحق
البحر الاحمر وبحر الهند ٢٤٨
- الفصل الثالث عشر
السلطات التركية . مبادئها
وانظمة العدالة . مساوىء الادارة ١١١
- الفصل الرابع عشر
لغة وآداب عربية ١٢١
- الفصل الخامس عشر
صناعة اهالي بيروت . غباوتهم .
عدم تشجيعهم . تربية التوت
للحرير ١٣٢
- الفصل السادس عشر
تجارة الفرنسيين الاولى في سوريا .
تعيين القناصل . قناصل بيروت
يحمون المصالح الوطنية من
المصريين . الكراهية التي
توحىها مهمة القناصل ١٣٩
- الفصل السابع عشر
تفريق بين القناصل ونواب
القناصل والوكلاء . المساوىء التي
تنتج في سوريا من جراء
تعيين بعض « الرؤساء » في
هذه المراكز ١٤٨
- الفصل الثامن عشر
ترجمة . مستشارون . مساعدا
الترجمة . سمسرة . موظفون
آخرون ١٥٤

نصوب

صواب	خطأ	السطر	الصفحة
اعجوبة في نظرهم	اعجوبة نظرهم	١٨	١٢
ليدياً	ليدياً	٨	٣٤
يقودونه في المدينة	يقودونه الى المدينة	٦	٣٦
الشيخ بحشيشاً	بحشيشاً للشيخ	١١	٣٧
بايسونيل	بايسوتيل	٢٢	٣٨
بجميزته	بجميزته	١٥	٤٧
السماء	المساء	١٩	٦٥
الفرحة	الفرحة	١	٦٨
الخمرة انه لم	الخمرة لم	٨	٧٣
التخاطب	المتخاطب	١٠	٨٥
ووجهين	ووجهين	١٠	١٠٤
السمعاني	عثماني	١٩	١٢٢
اكثر	كثر	٢٢	١٣٥
مواطني	موطني	١٩	١٤٣
ملياً	ماليّاً	١٤	١٦٩
نسلم	تسلم	١٤	٢٠٤

يؤجروها	١	٢٢٣
ففقدان	١٢	٢٢٤
واللتين	٦	٢٣٠
بفوائد مياه هذه	١١	٢٤٠
رأيناها	١٦	٢٥٢
بجزيرة	١٨	٢٥٦

بمياه

٢١ ٨١

٢٦ ٨

٢٧ ٢

٢٧ ١١

٨٦ ٢٦

٧١ ٥١

٥٢ ٢٦

٨٢ ١

٢٧ ٨

٥٨ ٥١

٢٠١ ٥١

٢٢١ ٢١

٥٦١ ٢٦

٦٢١ ٢١

٢٢١ ٢١

٢٠٦ ٢١

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع نصار
في اليوم الاول من ايلول سنة
تسع واربعين وتسماية والف .

فَعِنْدَمَا كُنْتُ أَقْعُ عَلَي رَقْمِ كُنْتُ مُحَصِّه دَائِماً مُعْتَمِداً عَلَي مَعْلُومَاتِ رَسْمِيَّة لِأَشْكَ فِي صَحْتِهَا ، ثُمَّ انْقَصَ مِنْ نَسْبَتِهِ دَائِماً . وَسُوفَ يَلَاظُ الْمَطَالِعُ أَيضاً أَنَّ جَمِيعَ أَرْقَامِي خَالِيَةٌ مِنَ الْكَسُورِ ، وَمَا سَبَبُ ذَلِكَ إِلَّا إِهْمَالِي لَهَا ، لِأَزِيدُ فِي إِضَاحِ بَيَانَاتِي . وَمَعَ كُلِّ هَذَا أُرَانِي لَمْ أَتَجَاوِزْ قَطُّ الْوَاقِعَ .

أَنَّ الْمَعْلُومَاتِ التِّجَارِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةَ بِجَزِيرَةِ بِلَادِ الْعَرَبِ وَمِصْرَ وَسِنَارَ وَشَاطِئِ أَفْرِيْقِيَا هِيَ مُخْتَصِرَةٌ . وَقَدْ أَكْتَفَيْتُ بِتَدْوِينِ الْوَارِدَاتِ وَالصَّادِرَاتِ كَيْ لَا أَضْخَمَ هَذَا الْبَيَانَ ، كَمَا أَنِّي لَمْ أَقْمِ إِلَّا بِعَرْضِ وَارِدَاتِ الْحَبْشَةِ وَالْبِلْدَانِ الْمُجَاوِرَةِ لَهَا لِأَنَّهَا لَمْ تُعْرَفْ مِثْلَ غَيْرِهَا .

تِجَارَةُ جَزِيرَةِ بِلَادِ الْعَرَبِ

أَنَّ الْمَرَكَزَ الثَّلَاثَةَ الْهَامَةَ الَّتِي تَمَارَسُ فِيهَا الْأَعْمَالُ التِّجَارِيَّةُ هِيَ جِدَّةُ وَالْحَدِيدَةُ وَمَحَا .

تِجَارَةُ جِدَّةِ

حَرَكَةُ الْمَرْفَأِ التِّجَارِيَّةِ :

مِنْ ٤٠ إِلَى ٥٠ سَفِينَةً تَرَاوِحُ حَمُولَتِهَا مِنْ ٥٠٠ إِلَى ٦٠٠ طَن .

مِنْ ٣٠ إِلَى ٤٠ مَرْكَباً شِرَاعِيّاً مِنَ الْهِنْدِ إِلَى مَسْقَطِ .

مِنْ ١٥٠ إِلَى ٢٠٠ مَرْكَبٍ مِنْ مِصْرَ وَالنَّقَاطِ الْآخَرَى .

وَارِدَاتُ

الْمَأْكُولَاتُ ، الْأَرْزُ ، الْقَمْحُ ، السُّكَّرُ ، الْأَبَاذِيرُ ، الْأَقْمِشَةُ الْحَرِيرِيَّةُ وَالْقَطْنِيَّةُ ، الزَّجَاجُ ، الْحُرْفِيَّاتُ ، السِّكَاكِينُ ، الْأَسْلِحَةُ ، الْبَارُودُ ، الرِّصَاصُ ، الْحُرْطُوشُ ، السِّجَادُ ، الْحَامُ السَّادِجُ ، الْحَامُ الْمَلُونُ وَالْأَصْفَرُ ، الْعَرَقُ ، الْحُرْضُوتُ ، التَّبَعُ ، الْأَجْوَانُ ، الْخَمَلُ .

صادرات

الصمغ ، السنديروس (نوع من الصمغ) ، البخور ، الزجاج
البراق ، اللآليء ، الحجارة الكريمة ، وعلى الاخص النقود والبلح .
ان التوريد ضئيل جداً ، فهم يقايضون بقليل من الاشياء ،
والتجارة تنحصر كلها في الاستيراد .
ان كمية المعاملات التجارية تبلغ على الاقل ٢٥٠٠٠٠٠٠٠ فرنك .

تجارة الحديد

صادرات

البن ، السن ، الصمغ ، الاملاح ، الحمضيات ، جلود البقر والمعزى
والغنم ، التمر الهندي ، البخور ، عروق الصباغ ، الزجاج البراق ،
اللاآليء ، البلح .

واردات

الارز ، السجاد ، الاقمشة الحريرية والقطنية ، الانسجة ذات
اللونين الازرق والاحمر ، التبغ ، البضائع الخفيفة (خروضات) ،
السكاكين ، الاسلحة الابازير الخ ...
ان الاستيراد ضئيل جداً والتجارة محصورة في التوريد مقابل
نقود .
كمية المعاملات التجارية : ١٥٠٠٠٠٠٠٠ فرنك .

تجارة مخا

صادرات

البن ، الصمغ العربي ، المصطكي ، الصبر ، جلود البقر والمعزى

والغنم ، الجلود المدبوغة ، النيل ، ملح البارود ، التمر ، السنا ،
خراسف السلاحف ، الاشياء اللماعة ، عود الند ، روح النشار ،
العطور ، البلح .

واردات

الارز ، الابازير ، الخام البسيط والمصبوغ ، السجاد ، التبك ،
التبغ ، الارز ، العرق ، الحديد ، الرصاص ، القصدير ، النحاس ،
السكاكين ، الاسلحة ، الزجاج ، الخزف ، الاجواخ ، الخمل .
يتعاطى نصف هذه التجارة بالبضائع المستوردة مقايضة ،
والنصف الآخر بالنقود .

كمية المعاملات التجارية : ١٥ ٠٠٠ ٠٠٠ فرنكاً .

ملاحظة : ان هذه المرافىء الثلاثة تمون الشعوب النجدية
واليمينية . ومرفأ جدة يمون مكة والمدينة والبلدان المجاورة . ان
هذه المرافىء تتعامل مع ٥ ٠٠٠ ٠٠٠ نفس على الاقل .
اما التجارة القائمة على الاستيراد والتوريد فيقوم بها ابناء
البلاد ، والبانميانيون مع الهند . ان بعض السفن الاوروبية ، وهي
ثلاث او اربع على الاكثر ، تأتي الى مخا لتتنقل البن دافعة ثمنه
نقوداً .

تجارة مصر

ان هذه التجارة تمارس عن طريق السويس والقصير Cosseir .
انها هي هي ، من حيث التوريد ، في كلا المرفأين . اما
البضائع المستوردة فتذهب خصيصاً الى السويس .

البضائع الموردة

الحام ، الحرائر المصبوغة بالاحمر والازرق ، الملابس الجاهزة ،
الزنانير الحريرية ، الطرابيش ، البوابيسج ، الجلود الحمراء ، المناديل ،
التبغ ، الاسلحة ، الانسجة المغربية ، الثار المجففة ، الخضار ،
وبنوع خاص المأكولات كالارز والقمح . حاجيات المصانع
الاوروبية كالانسجة القطنية ، والانسجة المصبوغة والزجاج والخزفيات
وشبهات تلك .

البضائع المستوردة

البن ، البخور ، جاود الاغنام ، التبناك ، البلع ، السجاد ،
الكشمير ، اللآي ، عروق الدباغة ، الكركم ، القصير ، السفط ،
الاقمشة القطنية الزرقاء ، الخناء .

ان الاستيراد يفوق بكثير قيمة التوريد .

رأس مال هذه المعاملات التجارية : ٦٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك .

ملاحظة : ان مرفأى السويس والقصير يوردان الى مصر

الوسطى والسفلى وقليلاً الى سوريا ، وهما يتعاملان مع ٢٠٠٠٠٠٠٠
نفس .

ان الاعمال التجارية تمارس بواسطة المراكب .

تجارة سنار وبلاد النوبا

سواكن وبادرو هما النقطتان الوحيدتان لاعمال هذه التجارة .

واردات

الارز، القمح، الانسجة الحريرية والقطنية، التبغ، الالبازير، الاسلحة،
البن ، ثم البضائع عينها الموجودة في جدة ، ولكن بمقدار قليل.

مادرات

الصمغ ، البخور ، ريش النعام ، الجلود ، الذهب ، العاج .
ان الاستيراد والتوريد متعادلان .

كمية المعاملات التجارية : ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك .

ملاحظة : وهذه التجارة التي كانت قديماً هامة ضعفت بعد احتلال محمد علي لسنار وبلاد النوبا . ان المنفذ التجاري الهام كان عن طريق البحر الاحمر . اما اليوم فان جميع الواردات والصادرات تتوجه الى مصر .

ان سواكن وبادرو تتعاملان مع ٥٠٠٠٠٠٠ شخص ، وقد كان هذا الشعب يتعامل فيما مضى مع درفور وفازوجلون وبلاد الزنوج الاخرى . ان هذه التجارة التي اعيدت الى ما كانت عليه سابقاً يمكنها ان تسد حاجة ٢٥٠٠٠٠٠٠ مستهلك . وهي إتمارس بواسطة مراكب تقدم من جدة .

تجارة جزر البحر الأحمر

دهالاك وكامران ، ونورا وفروت الخ... هي جزر تقع في الجهة السفلى من البحر الاحمر . وهذا بيان بما تصدر وتستورد كل سنة :

بضائع التصدير

السفط	٥٠٠٠٠	فرنك
اللاكيء	١٠٠٠٠٠	فرنك
العروق المماعة	١٠٠٠	فرنك
الحصر	٥٠٠	فرنك
	<hr/>	
	١٥١٥٠٠	فرنك

بضائع الاستيراد

المأكولات ، الارز ، القمح ، البلح ، بعض الانسجة للملبوسات
وعلى الاخص النقود .

كمية المعاملات التجارية : ٣٠٠٠٠٠٠٠ فرنك .

ملاحظة : كانت هذه التجارة مزدهرة تماماً وكثيرة الانتاج .
اما اليوم فاصطياد اللائى وسفط الاسماك اهمل تقريباً . وشعب
جميع جزر البحر الاحمر لا يتعدى الالفين من السكان . ان هذه
التجارة تمارس بواسطة المراكب مع مدن جزيرة بلاد العرب
وافريقيا .

تجارة ثقلي

ان هذه التجارة تمارس على نقطتين ، عن طريق مصوع واراننا .

بضائع التصدير

الزبدة السائلة ١٠٠٠٠٠٠ فرنك

» ١٠٠٠٠ البقر والاعنام

» ١٠٠٠٠ جلود البقر والاعنام والمعزى

١٢٠٠٠٠ فرنك

شحم الغنم . انهم لا يحسنون تحضيره ، كما انهم يرمون القرون .

واردات

الارز ، القمح ، الذرة ، البلح ، الانسجة القطنية الزرقاء اللون
والبيضاء ، الزجاج ، البارود ، الاسلحة ، الرماح ، السيوف .
تجارة مقايضة ونقود .

كمية المعاملات التجارية : ٢٤٠.٠٠٠ فرنكاً .
 ملاحظة : تتعاطى هذه التجارة مع شاطئ جزيرة بلاد العرب .
 ان تجارة أخرى ، سنتكلم عليها فيما بعد ، تتعاطى في المرافئ نفسها ،
 هي تجارة الحبشة . ان شعب دنقلي يقارب ٤٠.٠٠٠ نفس .

تجارة شنغالا

ان هذه التجارة تمارس عن طريق مصوع وتيجرى .

صادرات

ذهب	٣٠.٠٠٠	فرنك
عاج	٥.٠٠٠	فرنك
فار المسك	٢.٠٠٠	فرنك
قرون الكركدن	٥٠٠	فرنك
صموغ	١.٠٠٠	فرنك
جلود البقر والمعزى	١.٠٠٠	فرنك
ريش النعام	١.٠٠٠	فرنك
جلود الثمورة	١٠٠	فرنك
	<u>٤٠.٧٠٠</u>	فرنك

واردات

انسجة قطنية : بيضاء وزرقاء وحمراء ، سيوف ، بندقيات ،
 بارود ، زجاج ، ابايزر ، بهار .
 وهذه التجارة هي بمعدل ١/٤ من النقد و ٣/٤ بالمقايضة .
 كمية المعاملات التجارية : ٨٠.٠٠٠ فرنك .
 ملاحظة : وهذه التجارة الضئيلة يمكنها ان تصبح ذات اهمية

كبرى . ان بلص حكام مسوى هو السبب في احجام سكان
شنغالا عن تعاطي التجارة في هذا البلد . ان عدد السكان يبلغ
حوالى ٤٠٠٠٠٠ نفس .

تجارة الحبشة

تجارة اقاليم تيجرى

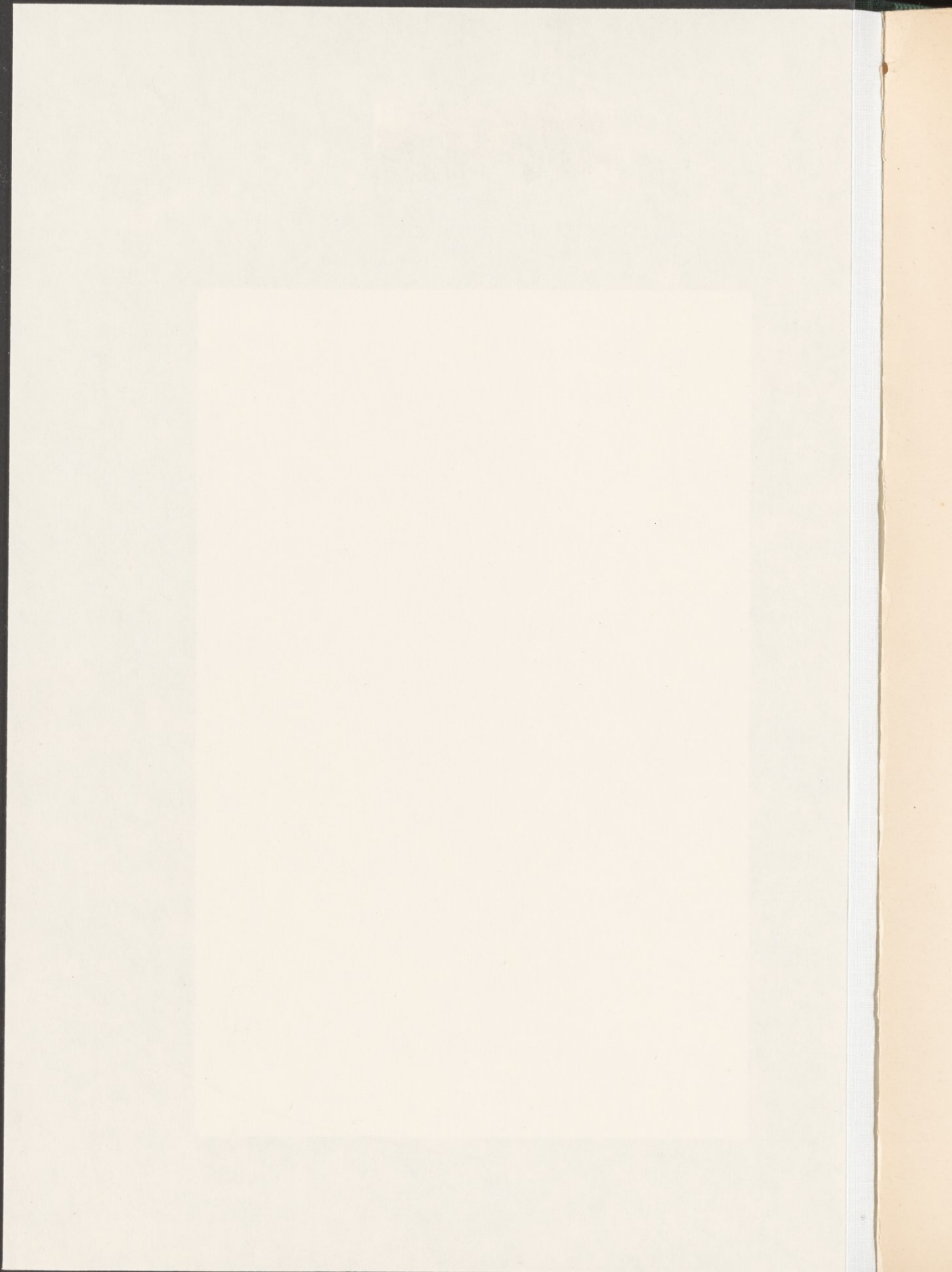
عدوى وانتالو هما النقطتان الهامتان لهذه التجارة .

بضائع التصدير

شمع	٢٠٠٠٠٠٠ فرنك
جلود البقر والمعزى والاغنام	٧٠٠٠٠٠ »
قطن	٥٠٠٠٠٠ »
نعال	٥٠٠٠٠٠ »
عسل	٥٠٠٠٠٠ »
عاج	٣٠٠٠٠٠ »
صموغ	١٠٠٠٠ »
مسك	١٠٠٠٠ »
ذهب	١٥٠٠٠٠ »
فراء	١٠٠٠٠ »
	<u>٤٤١٠٠٠٠ فرنك</u>

انهم لا يحسنون صنع شحم الغنم . بقر ، اغنام ، قمح ، شعير .
واردات

انسجة قطنية : زرقاء وحمراء ، جلود القاهرة ، حرائر زرقاء ،
بنادق بفتيل ، سيوف ، نحاس ، زجاج ، انسجة منقشة ، بهار ،



NYU BOBST LIBRARY



3 1142 05127684 1

New York University
Bobst, Circulation Department
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

Web Renewals:
<http://library.nyu.edu>
Circulation policies
<http://library.nyu.edu/about>

THIS ITEM IS SUBJECT TO RECALL AT ANY TIME

NOTE NEW DUE DATE WHEN RENEWING BOOKS ONLINE

